للكنيسة القبطية

طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

٩ / ٣

التاريخ الطقسي لسر التوبة والاعتراف

للكنيسة القبطية

طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

٩ / ٣

التاريخ الطقسي لسر التوبة والاعتراف

الكتـــاب: التَّاريخ الطَّقسي لسرّ التَّوبة والاعتراف
الكـــاتب: الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري
(راهب من الكنيسة القبطيَّة)
المطبـــعة: دار نوبار. شبرا ٦أ شارع مدرسة المعلّمين
الطَّبـــعة: الأولى، أكتوبر ٢٠٠٧م
رقم الإيداع بدار الكتب : ١٦٢١٦/ ٢٠٠٧
الترقيم الدولى : 977-17-4945-5

كافة حقوق الطَّبع والنَّشر محفوظة للمؤلّف

ثمن النُّسخة ١١ جنيها

قداسة البابا شنودة الثالث
بابا الإسكندرية و بطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

مقدِّمة عامة ١١

البَاب الأوَّل: رؤية عامة

الفَصل الأوَّل: مفاهيم أوليَّة ١٥

مفهوم التَّوبة ١٦

حياة التَّوبة حراسة لفعل المعموديَّة ١٧

حياة التَّوبة هي الطَّريق إلى الإفخارستيَّا ٢٣

حياة التَّوبة توزن بكلمة الله ٢٤

مار أفرآم السِّرياني يتحدَّث عن التَّوبة ٢٧

مفهوم الاعتراف ٢٩

(١) الإقرار والمجاهرة بالإيمان ٢٩

(٢) الإقرار بالخطيئة والاعتراف بها ٣٢

(٣) مقبرة الشَّهيد تُسمى "الشَّهادة" أو "موضع الشَّهادة" ٣٣

(٤) الشُّكر أو الاتفاق ٣٥

الشَّواهد الكتابيَّة والآبائيَّة عن الاعتراف بالخطايا ٣٧

مفهوم العقوبات أو التَّأديبات الكنسيَّة ٤٢

من هو أب الاعتراف؟ ٤٧

الأب الرُّوحي ٥٤

الفَصل الثّاني: طقس سرّ التّوبة والاعتراف ٥٧
تمهيد ٥٨
بين ذبيحة المسيح على الصّليب وذبائح العهد القديم ٥٨
سرّ التّوبة والاعتراف في العهد الجديد ٦٣
أولاً: الوقوف أمام الله ٦٣
ثانياً: وجود الكاهن كشاهد بين طرفين ٦٨
ثالثاً: الإقرار والاعتراف بالخطيئة أمام الله في حضور الكاهن ٧٥
رابعاً: التّحليل ٨١
طقس الاعتراف بالخطايا في الكنائس الشّرقيّة ٨٩

البَاب الثّاني: المراحل التّاريخيّة التي عبر عليها سرّ التّوبة والاعتراف

الفَصل الأوّل: كنيسة الرُّسُل ٩٥
تمهيد ٩٦
ركائز غفران الخطايا ٩٦
الرّكيزة الأولى: أنه لا يغفر الخطايا إلاّ الله وحده ٩٧
الرّكيزة الثّانية: إنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة – ٩٨
الرّكيزة الثّالثة: إقرار الخاطئ بخطيئته ٩٩

الفَصل الثّاني: بدءاً من القرن الثّاني الميلادي وحتى منشور ميلان ٣١٢م ١٠٥
ملامح ممارسة سرّ التّوبة في القرن الثّاني الميلادي ١٠٦
في الدِّيداخي أي تعليم الرُّسُل ١٠٧
في رسالة برنابا ١٠٧
في رسائل القدّيس إغناطيوس الأنطاكي ١٠٧
في رسالة كليمندس الرُّوماني ١٠٨

تقسيم الخطايا وتصنيفها كتابياً وعند آباء الكنيسة ١٠٩
من كتاب الرَّاعي هرماس ١١٣
خلاف فكري حول الخطايا التي تُغفر والتي لا تُغفر ١١٧
ملامح ممارسة سرّ التَّوبة والاعتراف في القرن الثَّالث وما بعده ١٢١
من سيرة البابا دمتريوس الكرَّام ١٢٦

الفَصل الثَّالث: بعد منشور ميلان وحتى نهاية القرن السَّادس الميلادي ١٢٩

تمهيد ١٣٠
نموذج مصري قديم لصلاة اعتراف وتوبة ١٣١
التَّوبة والاعتراف عند البابا أثناسيوس الرَّسولي ١٣٢
رأي البابا أثناسيوس الرَّسولي عن اقتراف الخطيئة بعد المعموديَّة ١٣٤
التَّوبة والاعتراف عند البابا كيرلس الكبير ١٣٧
التَّوبة والاعتراف عند القدِّيس غريغوريوس النِّيسي ١٣٧
التَّوبة والاعتراف عند القدِّيس غريغوريوس اللاهوتي ١٣٨
التَّوبة والاعتراف عند القدِّيس يوحنا ذهبي الفم ١٣٩
التَّوبة والاعتراف في القوانين الكنسيَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير ١٤٣
التَّوبة والاعتراف في القرنين الخامس والسَّادس في الإسكندريَّة ١٤٥
التَّوبة والاعتراف عند القدِّيس أغسطينوس وفي الغرب ١٤٦
تأثير التَّقليد الرَّهباني على سرّ التَّوبة والاعتراف في الكنيسة ١٤٨
في رسائل القدِّيس أنطونيوس الكبير ١٤٩
في تعليم القدِّيس أنبا مقار الكبير ١٥٧
عند تلاميذ أنبا مقار الكبير وغيرهم ١٦٢
عند القدِّيس أنبا باخوميوس أب الشَّركة ١٦٤
كتاب "سُلَّم الفضائل" ليوحنا الدَّرجي ١٦٤

الفَصل الرَّابع: من القرن السَّابع وحتى الحادي عشر للميلاد ١٧١

انحسار التَّوبة العلنيَّة أمام الجماعة وانتشار الاعتراف السِّري ١٧٢

التَّوبة والاعتراف في الكنيسة البيزنطيَّة بدءاً من القرن السَّابع ١٧٥
التَّوبة والاعتراف في الغرب المسيحي ١٧٧
التَّوبة والاعتراف في القرن العاشر في مصر ١٧٨
انتشار مخطوط بين الأقباط منسوب خطأً للأنبا ساويرس ابن المقفّع ١٧٨
قصَّة مؤثّرة من القرن الحادي عشر في مصر ١٨٣
إطلالة على حياة الكنيسة القبطيَّة في القرن الحادي عشر ١٨٦

الفَصل الخامس: في القرون الوسطى في الشَّرق المسيحي ١٨٩

تمهيد ١٩٠
في الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة ١٩٠
في الكنيسة البيزنطيَّة ١٩٣
في الكنيسة القبطيَّة ١٩٣
أنبا ميخائيل مطران دمياط في القرن الثّاني عشر الميلادي
وموضوع الاعتراف على الشَّورية ١٩٤
القس أبو ياسر ابن القسطال ١٩٩
القس مرقس الضَّرير بن القنبر في القرن الثّاني عشر ٢٠٢
الأنبا ميخائيل مطران دمياط يتحدَّث عن ابن القنبر ٢٠٦
كتب "المعلّم والتِّلميذ" التي عُرفت في الكنيسة القبطية .. ٢٠٩
حول كتاب "المعلّم والتِّلميذ" للقسّ مرقس ابن القنبر ٢١١
الصَّفي بن العسَّال ٢٢٤
مؤتمن الدَّولة أبي اسحق ابن الفضل في القرن الثّالث عشر ٢٢٦
الشَّيخ الفاضل علم الرِّئاسة بن كاتب قيصر في القرن الثّالث عشر ٢٢٨
يوحنا ابن سباع في القرن الثّالث عشر ٢٢٨
القسّ شمس الرِّئاسة المعروف بابن كبر في القرن الثّالث عشر .. ٢٢٩
كتاب سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت من قول معلّمي الكنيسة ٢٣٢
خلاصة موضوع التَّوبة والاعتراف في العصور الوسطى ٢٣٥

الفَصل السَّادس: في القرون الوسطى في الغرب المسيحي ٢٣٩

تمهيد ٢٤٠
في القرن الثَّالث عشر الميلادي ٢٤٠
في القرن الخامس عشر الميلادي ٢٤٢
مجمع فلورا ٢٤٣
مجمع فلورنسا والأحداث المصاحبة له ٢٤٧

الفَصل السَّابع: في العصر الحالي ٢٤٩

تمهيد ٢٥٠
ممارسة الاعتراف على الكاهن أثناء صلوات القدَّاس!! ٢٥٠
نيَّة التَّوبة أثناء الاعتراف هي محكّ صحَّته ٢٥٢
سؤال حول دور سرّ الاعتراف في التَّهيئة للتَّناول ٢٥٤
قصَّة واقعيَّة عن روعة حياة التَّوبة والاعتراف ٢٥٩

المراجع ٢٦٥

مقدِّمة عامة

هذا كتاب في سرّ التَّوبة والاعتراف، لعله يحكي تاريخ التَّوبة في حياة الكنيسة - إن كانت التَّوبة تاريخ يُحكى - كما يسرد أيضاً المراحل اللّيتورجيَّة التي عبر عليها الاعتراف في الكنيسة.

فالتَّوبة في الكنيسة هي حياة تتجدَّد كل يوم، وتنمو كل يوم، وتثمر كل يوم. واليوم الذي يعبر بلا توبة، هو يوم غير محسوب من عمر الإنسان الجديد الذي وُلد للكنيسة في المعموديَّة، ابناً لله، ولابساً للمسيح.

ويشرح الكتاب الذي بين يديك، مفهوم الاعتراف في الكنيسة، وأن غايته الأساسيَّة هي عودة التَّائب إلى شركة الجماعة، بعد أن انفصل عنها بالخطيئة. ومن أجل ذلك كان الاعتراف في بداياته الأولى علنياً على الجماعة الكنسيَّة كلها، لأن خطأ الإنسان المنتمي إلى جماعة الله لا يصيبه هو وحده، بل يؤثّر على الجماعة كلها، ويُحزن قلب الله. لأنه إن تألّم عضو، تألّمت معه باقي الأعضاء، كقول الإنجيل المقدَّس. والألم هنا ليس ألماً جسدياً، فهذا يهون، بل هو ألمٌ روحيٌ، لا يسبِّبه سوى الخطيئة.

ولما توقّف الاعتراف العلني على الجماعة كلها، انتقل إلى اعتراف سري على الكاهن، باعتبار الكاهن ممثلاً للجماعة ونائباً عنها.

وفي كلا الحالتين، أي الاعتراف العلني، أو الاعتراف السِّري، صار الهدف الأساسي منهما هو عودة الخاطئ التَّائب إلى شركة الجماعة، وإلى

حضن الكنيسة.

وبعد هذا الاعتراف العلني الذي كان يمارسه التّائبون العائدون إلى حضن الكنيسة أمام الكنيسة كلها، كان التّحليل يجري لهم أثناء الصّلوات اللّيتورجيّة، وفي مواضع محدّدة منها، ومع كل الشّعب أيضاً.

ولما انتقل الاعتراف - فيما بعد - من اعتراف علني على الشّعب إلى اعتراف سري على الأب الكاهن، ظلّت صلاة التّحليل التي تعقبه، والتي تُصلّى من داخل اللّيتورجيّا هي الأساس، حتى بعد أن أصبح الكاهن يصلّي نفس هذه الصّلاة عينها على رأس المعترف بمفرده بعد اعترافه بخطاياه.

ولكن الأمر الجدير بالانتباه هنا هو أن القدّاس الإلهي ليس هو وقت الاعتراف بالخطايا، لأن الكنيسة كلها الآن في حالة صلاة وشُكر وتسبيح، مع مخافة، من جراء حضور الله بين شعبه. ومن ثمّ فمن نافلة القول أن يطلب أحد المصلّين من الأب الكاهن أثناء صلوات القدّاس الإلهي أن يصلّي له التّحليل. والكتاب الذي بين يديك يشرح هذا الأمر بتوضيح أكثر.

راجياً إلى ربي يسوع المسيح رأس الكنيسة وثباتها، أن يجعل من ثمرة هذا الكتاب خلاصاً وبنياناً وثباتاً في كنيسته المقدّسة، بشفاعة والدة الإله القدّيسة الطّاهرة مريم، وسادتي الآباء الرُّسُل القدّيسين، وكل مصاف الشُّهداء والصدّيقين. وبصلوات قداسة البابا شنوده الثّالث بابا الإسكندريّة وبطريرك الكرازة المرقسيّة. وصلوات آبائي المطارنة والأساقفة والقمامصة والقسوس، وإخوتي الشّمامسة وآبائي الرُّهبان، وكل طغمة العلمانيين المباركين، آمين.

البَاب الأوَّل

رؤية عـــــامة

الفَصل الأوَّل

مفاهـــيم أوليَّـــة

مفهوم "التَّوبة" μετάνοια – Penitence

"التَّوبة" هي لفظة عربيَّة. ونقول في اللُّغة العربيَّة "تاب إلى الله"، أي رجع عن المعصية إلى الطَّاعة. ونقول أيضاً: "تاب الله على الإنسان"، أي عاد عليه بالمغفرة. وفي اللُّغة العربيَّة أيضاً: "الله وحده هو التَّوَّاب"، أي الذي يتوب على عبده، بينما الإنسان أياً كان هو "تائب" عندما يرجع عن المعصية إلى ربِّه.

وفي اللُّغة السِّريانيَّة – ومعها اللُّغة العبريَّة أيضاً – التَّوبة تعني الرُّجوع والعودة إلى الوضع السَّابق.

وفي اللُّغة اليونانيَّة، يدل الفعل μετανοέω (ميطانويؤ) على تغيير العقل والقلب، وتحويلهما من الأهواء والشَّهوات إلى الله. وعند آباء الكنيسة لا يشير هذا الفعل اليوناني فقط إلى تغيير العقل أو الذِّهن، بل أيضاً إلى تغيير النَّفس والعقل الأعلى، وهو ما يشير إليه آباء الكنيسة في كتاباتهم بلفظة "القلب – νους (نوس)". فمفهوم "القلب"، أو "العقل الأعلى" في التَّعليم الآبائي يعبِّر عن قوَّة من قوى النَّفس، وعن أسمى ما فيها، لأنه هو – أي العقل الأعلى – صورة الله في الإنسان.

التَّوبة هي انسحاق القلب، وندامته على الخطايا السَّالفة، فهي تبدأ بدينونة النَّفس. ومحاسبة النَّفس تنتهي بالصَّلاة إلى الله، لأن الخطيئة موجَّهة أصلاً إليه.

التَّوبة هي جحد للذَّات وتلاشي الاهتمام بها تحت أي مسمًّى من المسمَّيات. فهي عزم على إصلاح السِّيرة، واسترضاء قلب من أحزنته، عملاً بقول الرَّب: «اترك قربانك قدَّام المذبح، واذهب أولاً اصطلح مع أخيك» (متى ٥:٢٤). والمحبَّة هي السَّعي لخلاص الآخرين ونجاتهم، وأعظم محبَّة نقدِّمها للآخرين هي صلاتنا من أجلهم. إننا عندما نفعل ذلك، فنحن نقدِّم عن أنفسنا توبة، وعن الآخرين تشفعاً. يقول القدِّيس أنبا مقار الكبير (٣٠٠-٣٩٠م): [خلاصي في حياة أخي].

والتَّوبة هي الإيمان بالمسيح والرَّجاء الوطيد في تحنُّنه[1]. فالرَّاحة الحقيقيَّة والفرح الكامل، والسَّلام الذي يفوق كل عقل، نحصل عليه في المسيح وحده الذي قال: «تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين والثَّقيلي الأحمال وأنا أريحكم» (متى ١١:٢٨). فالخلاص من الخطيئة وسلطانها إنما هو بالمسيح وبالإيمان باسمه، والإيقان بقوَّته ومعونته، والرَّجاء في رحمته، وباستخدام وسائط الخلاص التي رسمها لنا في كنيسته، إذ ليس بأحد غيره الخلاص، «لأن ليس اسم آخر تحت السَّماء قد أُعطي بين النَّاس به ينبغي أن نخلص» (أعمال ٤:١٢).

وحياة التَّوبة في الكنيسة المسيحيَّة لا يمكن فصلها عن المعموديَّة والإفخارستيَّا والإنجيل. وهذا هو الفارق التَّاسع بل والوحيد بين مفهوم التَّوبة في المسيحيَّة، ومفهومها في غيرها من الدِّيانات الكثيرة الأخرى. والسُّطور التَّالية هي شرح لهذه الجزئيَّة الأخيرة.

حياة التَّوبة حراسة لفعل المعموديَّة

رأيتم يا إخوة، في طقس المعموديَّة المقدَّسة، كيف تتجلَّى النَّفس

١- أعمال ٤:١٢ ؛ أعمال ١٠:٤٣ ؛ رومية ٥:١، ٢ ؛ عبرانيين ٧:٢٥

وتلتحف بالنُّور، وتكتسي ثوب البر في يوم عرسها الحقيقي، حينما تُسجَّل في سفر الحياة، كما في السَّماء كذلك على الأرض.

ورأيتم كيف يُختتم طقس المعموديَّة والميرون بلبس الثِّياب البيض، ثياب الخلاص. ولبس الأكاليل، أكاليل الغلبة. وحمل النُّور في مشاعل يحملها بنو النُّور ابتهاجاً بقبولهم النُّور الحقيقي في حياتهم، ربُّنا يسوع المسيح.

هذه هي بداية الرِّحلة إلى الملكوت، بثوب أبيض، وإكليل يتوِّج الرأس، ومصباح مضئ في اليدين. أمَّا نهاية المطاف عند دخول السَّماء، فيلزم أن تكون النَّفس لابسة وحاملة نفس الأشياء التي تسلَّمتها يوم معموديَّتها. فلو سلَّمت النَّفس ثوبها أبيضاً، وإكليلها على رأسها غير مسلوب منها، ومصباحها موقداً مضيئاً كما استلمته يوم معموديَّتها، استحقت الملكوت.

فطوبى للذين لم ينجِّسوا ثيابهم، لأنهم سيمشون مع الحَمَل في ثياب بيض، لأنهم مستحقون.

يقول الرُّوح: «من يغلب، فذلك سيلبس ثياباً بيضاً، ولن أمحو اسمه من سفر الحياة. وسأعترف باسمه أمام أبي وأمام ملائكته» (رؤيا ٣:٥).

فطوبى للذين ارتدوا ثوب المعموديَّة الأبيض، وحفظوه أبيضاً، وغسلوه في دم الخروف. هؤلاء يستحقون أن يكونوا أمام عرش الله، ويخدمونه نهاراً وليلاً في هيكله. والجالس على العرش يحل فوقهم. لن يجوعوا بعد، ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشَّمس - شمس التَّجارب - ولا شئ من الحر، لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم،

ويقتادهم الله إلى ينابيع ماء حيَّة. ويمسح الله كل دمعة من عيونهم[٢].

إذاً من المهم أن نلبس ثوب المعموديَّة الأبيض، ولكن الأهم أن نصل به أبيضاً إلى السَّماء. وطوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يمشي عرياناً[٣]. ولكن ما الفائدة يا إخوتي أن أكل العُث ثيابنا، فهل تنفعنا المعموديَّة شيئاً؟.

يقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أسقف ميلان:

[حسنة هي التَّوبة، فإن لم يكن لها مكان في قلبك، فستخسر نعمة الغسل التي نلتها في المعموديَّة منذ أمد بعيد. فإنه من الأفضل أن يكون لنا ثوب نصلحه، عن أن لا يكون لنا ثوب نرتديه. ولكن إذ أعد لنا الثَّوب مرَّة، فيجب أن يتجدَّد].

أمَّا إكليل المعموديَّة فهو إكليل جهادنا، وهو إكليل يمكن أن يبلى إذا لم نحفظه في مسيرة غربتنا. أمَّا إكليل نصرتنا حين يظهر الرَّب في مجيئه الثَّاني فهو إكليل مجدنا الذي لا يمكن أن يبلى بعد. فهو إذاً إكليل نصرة عوض إكليل جهاد. وكل من ليس عليه إكليل معموديَّته، ليس له إكليل نصرته وحياته. لقد خرجنا من المعموديَّة غالبين ولكي نغلب، لأن للرَّب حرب مع عماليق من دور إلى دور. فهي حربُه هو بشركتنا الأمينة معه. وهوذا الصَّوت من وراء الدُّهور ينادي على كل من وطأ الموت الأوَّل بقدميه، موت الخطيئة: «كن أميناً إلى الموت، فسأعطيك إكليل الحياة. من له أذنان فليسمع ما يقوله الرُّوح للكنائس. من يغلب فلا يؤذيه الموت الثَّاني» (رؤيا ٢:١٠، ١١). وهذا هو نداء الإنجيل لكل من يتمسَّك بإكليله: «اركضوا لكي تنالوا، وكل من يجاهد يضبط نفسه في كل شئ.

٢- رؤيا ٧:١٥-١٧

٣- رؤيا ١٦:١٥

أمَّا أولئك فلكي يأخذوا إكليلاً يفنى، وأما نحن فإكليلاً لا يفنى» (١كورنثوس ٩:٢٥).

هذا هو إكليل البر الذي يُعطي للذين يحبون ظهور الرَّب الدَّيان العادل في مجيئه الثّاني، كوعده الذي وعده قائلاً: «ها أنا آتي سريعاً. تمسَّك بما عندك، لئلا يأخذ أحد إكليلك» (رؤيا ٣:١١). «ومتى ظهر رئيس الرُّعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يبلى» (١بطرس ٥:٤).

لكن ما الفائدة يا إخوتي إن سقط إكليل رأسنا، هل تنفعنا المعموديَّة شيئاً؟.

أمَّا عن النُّور الذي حملناه في قلوبنا عند خروجنا من جرن المعموديَّة، فكان رمزه هو تلك الشَّمعة التي حملناها في أيدينا. نور الرُّوح القُدُس الذي يكشف لنا كل شئ حتى عمق الله نفسه. هذا هو النُّور الذي أوصانا الرَّب من أجله قائلاً: «لتكن أحقاؤكم ممنطقة، وسرجكم موقدة» (لوقا ١٢:٣٥). و«سيروا ما دام لكم النُّور، لئلا يدركم الظَّلام. والذي يسير في الظَّلام لا يعلم إلى أين يذهب» (يوحنا ١٢:٣٥). إنه نور الإنجيل، نور الوصيَّة الإلهيَّة «سراج لرجلي كلامك، ونور لسبيلي» (مزمور ١٩:١٠٥). و«الوصيَّة مصباح والشَّريعة نور» (أمثال ٦:٢٣). فليتك أنت يارب تضئ سراجي، لكي بنورك أعاين النُّور.

كلمة الرَّب هي السِّراج الذي يظل ينير الطَّريق حتى إلى الأبديَّة. فالذين ظلُّوا ماسكين مصابيحهم موقدة، أي أناجيلهم مفتوحة، حتى إلى مجئ العريس، هؤلاء هم الذين سينظرون وجهه واسمه على جباههم. وهناك لن يحتاجوا إلى سراج أو نور شمس، لأن الرَّب الإله ينير عليهم،

وهم سيملكون معه إلى أبد الآبدين[٤].

ولكن ما الفائدة يا إخوتي إن انطفأ سراجنا، وصار الإنجيل مكتوماً فينا. هل تنفعنا المعموديَّة شيئاً؟.

ترون إذاً أن النُّمو هو في استمرار البداية والبناء عليها. وهذا هو عمل التَّوبة. فالمعموديَّة كأساس متين للبناء، تضمن لنا التَّوبة. وحياة التَّوبة هي النُّمو والبناء على هذا الأساس، أي النُّمو في معرفة ربِّنا يسوع المسيح، وقوَّة قيامته، وشركة آلامه. والبناء ليس من أعمال برِّنا التي نعملها بذواتنا. لأنها مهما عظمت، فهي بدون معونة النِّعمة ومؤازرة الرُّوح القُدُس هي قشٌّ أو عشبٌ تحرقه النَّار فيزول. فتمجيد النَّاس لله بسبب أعمالنا الحسنة، هو خير دليل على أن أعمالنا ليست من ذواتنا، بل من معونة الله وقوَّته فينا. «فليضئ نوركم هكذا قدام النَّاس، لكي يروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السَّموات» (متى ٥:١٦).

التَّوبة هي حياة تبدأ بالميلاد من الله وتنتهي بالاتحاد به. فالمعموديَّة سرٌّ، والاتحاد بالله سرٌّ أيضاً. ومن ثمَّ فقد لزم أن تكون التَّوبة سرٌّ أيضاً. أي سرّ الحياة مع الله. فالمعموديَّة هي سرّ الميلاد من الله، والتَّوبة هي سرّ الحياة مع الله، والإفخارستيَّا هي سرّ الاتحاد بالله. هذا هو ما عبَّر عنه الإنجيل المقدَّس بقوله: لأن منه وبه وله كل الأشياء، ونحن له[٥].

المعموديَّة هي التَّوبة الأولى، وقبول حياة جديدة في طبيعة الإنسان التي فسدت بسبب الخطيئة الأولى. والتَّوبة هي معموديَّة ثانية، وتجديد للمعموديَّة الأولى، بقبول مغفرة دائمة عن الخطايا اليوميَّة، لدوام الحياة

٤- رؤيا ٢٢:٤

٥- انظر: رومية ١١:٣٦ ؛ ١كورنثوس ٨:٦

مع الله وفيه بالرُّوح القُدُس.

المعموديَّة إذا لم تسندها التَّوبة، تفقد فاعليتها. فالتوبة هي سرّ تجديد ودوام فعل هذا الميلاد الثّاني. فالإنسان المولود من الرُّوح إذا لم يسلك بحسب الرُّوح، يطغى عليه الجسد، وتسود عليه الخطيئة، ويموت ثانية كما مات آدم أولاً. وهذا هو الموت الثّاني الذي أشار إليه سفر الرؤيا[٦].

الموت الثّاني هو موت الخطيئة، أمّا الموت الأوَّل فهو الموت الذي جزناه في المعموديَّة عندما مُتنا مع المسيح، ومات فيه إنساننا القديم. ولما قُمنا مع المسيح بالمعموديَّة صارت هذه هي قيامتنا الأولى. أمّا قيامتنا الثّانية فهي عند مجئ الرَّب في اليوم الأخير. وأما موت الجسد التُّرابي، فما هو إلاّ عبور من حياة أرضيَّة إلى حياة أخرى سماويَّة، من حياة الزَّمن إلى حياة الأبد، فلا يكون هو موت إذاً، بل عبور من حياة إلى حياة.

المعموديَّة والتَّوبة إذاً هما صنوان لا يفترقان، والذي يعدم أحدهما يعدم الأخرى بالضَّرورة. فالمعموديَّة تقيم التَّوبة، وتجعل منها معنى مسيحياً لا تعرفه ديانة أخرى. لأن غاية التَّوبة هي الاتحاد بالله، والاتحاد به لا يكون إلاّ بالميلاد منه أولاً. وهذا لا يكون إلاّ بالمعموديَّة.

التَّوبة في إيجاز هي في قول الإنجيل: «لي الحياة هي المسيح» (فيلبي ١:٢١). التَّوبة هي حفظ العهد الذي تعهَّدنا به أمام الله يوم المعموديَّة بحضرة شهود كثيرين، أن نجحد الشيطان وملائكته، وكل أعماله، وكثرة نفاقه. لقد كتب الملائكة تعهُّدنا، وحُفظ العهد في السَّماء. فالتَّوبة تضمن دوام العهد. فدينونة المسيحي لن تكون إلاّ لكونه قد نقض العهد الذي قطعه على نفسه، فمن فمه يُدان. فعلى قدر ما لعظم المعموديَّة من كرامه

٦- رؤيا ٢٠:٦

لا تدانيها كرامة، على قدر خطورة إغفال تلك الكرامة وعدم اعتبارها. وهنا تبرز أهميَّة التَّوبة للذين شهدت عليهم ملائكة السَّماء.

حياة التَّوبة هي الطَّريق إلى الإفخارستيَّا

أمَّا سرّ الإفخارستيَّا فهو ثمرة سرّ التَّوبة وجزاؤها، حيث التَّناول المتواتر من جسد المسيح ودمه الأقدسين، هو فعل ديمومة حياة المسيح فينا، وثباتنا فيه، بعد أن تهيأ المسكن بالتَّوبة لسكناه. فالغصن الثَّابت في الكرمة لا يكف عن احتياجه للعصارة التي تغذيه دواماً من أصل الكرمة. وإن أعاقه عائق عن استمرار تدفُّق العصارة إليه من أصل الكرمة، يجف ويُلقى خارجاً. والمسيح هو الكرمة، ونحن الأغصان. وعصارة الكرمة هي جسده ودمه الكريمين.

التَّوبة لقاء مع الله، والإفخارستيَّا توكيد لهذا اللِّقاء. التَّوبة هي تقابل بين مشيئة الله المُحبَّة الهادئة الجاذبة للإنسان الخاطئ بفعل دم المسيح، وبين مشيئة الإنسان المتعب ورغبته الجديَّة بشوق في العودة إلى الله. وإنما المبادرة دائماً وأولاً هي من الله «لا يقدر أحد أن يُقبل إليَّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني. وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يوحنا ٦:٤٤).

والله يجذب إليه الإنسان بناء عن اشتياق هذا الإنسان وسعيه إليه «كل ما يعطيني الآب فإليَّ يقبل، ومن يُقبل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يوحنا ٦:٣٧). ولكن حتى هذا الشَّوق الذي يشتاقه الإنسان إلى الله، هو نفسه من الله. «توِّبني فأتوب، لأنك أنت الرَّب إلهي» (إرميا ٣١:١٨).

فحياة التَّوبة ليست مجرَّد رجوع إرادي إلى الله فحسب، بل هي أيضاً قبول دعوة من الرَّب لكي يدخل إلى حياتنا. «هاأنذا واقف على الباب وأقرع، إن سمع أحد صوتي وفتح البَاب أدخل إليه وأتعشى معه

وهو معي» (رؤيا ٣:٢٠).

لا نستطيع أن نتقدَّم إلى الإفخارستيَّا إلاّ بضمير خطاة تائبين، لننال البر الذي وعد به الرَّب كل الرَّاجعين إليه. لأنه إن كانت التَّوبة عتق من الموت، فالإفخارستيَّا عبور إلى الحياة. التَّوبة ثمرة المعموديَّة، والإفخارستيَّا ثمرة التَّوبة، والكل معاً ليعيش المسيح فينا، ونعيش فيه.

انظر كيف أن كل من لاذ بالكنيسة واحتمى بها لا يهلك مع العالم. ففي الكنيسة نلنا معموديتنا، وفي الكنيسة نعيش توبتنا، وبالكنيسة تتحقّق شركتنا مع المسيح بسر جسده ودمه الكريمين. فإن قلنا مع الرَّسول بولس «لي الحياة هي المسيح»، فلا نستطيع أن نحقّق عملياً هذه الحياة فينا بدون الكنيسة. لأن المسيح له المجد هو محور حياة الكنيسة، وهو غاية كل تسابيحها وصلواتها وطقوسها وتعليمها.

الحياة في المسيح بالكنيسة شفاء ودواء ورجاء للنَّفس والجسد والرُّوح. شفاء من الخطيئة ودواء لأسبابها ورجاء أكيد بالنَّجاة والخلاص.

حياة التَّوبة توزن بكلمة الله

يستحيل أن تستقيم التَّوبة بدون الإنجيل. ولا يمكن أن تدوم إلاّ إذا ظلّ الإنجيل مفتوحاً كل يوم. لأن كلمة الرَّب هي النُّور الذي نسير بهداه مسيرة غربتنا على الأرض. استمع إلى مقدار التَّطهُّر والشِّفاء الذي يغشى كيان الإنسان كله من جرَّاء الإصغاء إلى كلمة الرَّب، ومن فم الرَّب نفسه حين يقول: «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يوحنا ١٥:٣).

كانت الخليقة الأولى بالماء والرُّوح والكلمة، ونمت الحياة بدوام

الكَلمة «ليكن ... فكان». وهكذا الإنسان المولود من المـــاء والـــرُّوح والكلمة، هو خليقة جديدة تنمو بدوام الكَلمة. فإن كنَّا قد وُلدنا لا من زرع يفنى، بل مما لا يفنى، بكلمة الله الحيَّة الباقية إلى الأبد، إذاً فلتثبـــت فينا كلمة الرَّب إلى الأبد.

أتعزى كثيراً بعبارات وردت في قوانين هيبوليتس القبطيَّة والتي تعود إلى القرن السَّادس الميلادي. أنقل إليك قارئي العزيز جانباً منها، وهي من القوانين (٢١، ٢٦، ٢٧). تقول:

"يجتمع القسوس كـــل يـــوم في الكنيســـة، وأيضـــاً الشَّمامســـة والإيبودياكونون والأغنسطسون وكل الشَّعب عندما يصـــيح الـــدِّيك. ويصنعون الصَّلاة والمزامير **وقراءة الكُتُب** والصَّلوات كوصيَّة الرَّســـول القائل: التفت إلى القراءة إلى أن أحضر.

إذا كانت مفاوضة (شرح) في بيعة (كنيسة) لأجـــل **كـــلام الله**، فليسرع كل واحد ويجتمع إليه (أي إلى كلام الله). وليعلموا أن الأفضل لهم أن يسمعوا **كلام الله** أكثر من كل افتخار هذا العالم. وليحسبوا أنها خسارة عظيمة لهم إذا عاقتهم ضرورة عن أن يسمعوا **كـــلام الله**، بـــل ليتفرَّغوا للكنيسة مرَّات كثيرة. ليقدروا أن يخرجوا الحقد الذي للعدو ...

والذين يحرِّكهم العقل في البيت، فإنهم لا يغفلون عمَّـــا سمعـــوه في الكنيسة. لأجل هذا؛ فليهتم كل واحد بأن يمضي إلى الكنيسة في كـــل الأيام التي تكون فيها الصَّلوات.

وفي اليوم الذي لا يصلُّون فيه في الكنيسة، فلتأخذ كتاباً وتقرأ فيـــه، ولتنظر الشَّمس الكتاب على رجليك في كل الغدوات".

هكذا عاش آباؤنا القدِّيسون، مربوطون بقراءة الإنجيل باكر كل يوم حتى بداية شروق اليَوم، والشَّمس تشهد على ذلك. فهل لا زالت الشَّمس تشهد لنا كما شهدت من قبل لآبائنا؟.

«آدم ... أين أنت» (تكوين ٣:٩) هو هو ذات الصَّوت الذي ينادي الخاطئ — كل خاطئ — الذي يختبئ من صوت الله ويتوارى عن لقائه خلف أشجار الاعتذار خجلاً من خطيئته. والصَّوت الذي حذَّر قبل السُّقوط في الخطيئة، هو ذات الصَّوت الذي يؤنِّب بعد السُّقوط فيها، وهو هو ذاته الذي يشجِّع ويعزِّي للقيام والنُّهوض منها «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الآن، حين يسمع الأموات (بالخطايا) صوت ابن الله والسَّامعون يحيون» (يوحنا ٥:٢٥).

فعلى قدر ما تكون الوصيَّة حيَّة، على قدر ما تكون التَّوبة صادقة وأمينة ونابعة من القلب. «استمعوا لي استماعاً ... أميلوا آذانكم وهلُّموا إليَّ. اسمعوا فتحيا أنفسكم. وأقطع لكم عهداً أبدياً، مراحم داود الصَّادقة» (إشعياء ٥٥:٢، ٣).

الإنجيل هو قوَّة الله للخلاص، والتَّوبة هي سعي نحو هذا الخلاص. اسمع قول الإنجيل: «فاقبلوا بوداعة الكَّلمة المغروسة القادرة أن تخلِّص نفوسكم» (يعقوب ١:٢١). «وأعرِّفكم أيها الإخوة بالإنجيل الذي بشرتكم به وقبلتموه وتقومون فيه وبه أيضاً تخلصون» (١كورنثوس ١٥:١).

إن الرِّباط الوثيق بين التَّوبة والوصيَّة المقدَّسة نتيقَّن منه إذا عرفنا أن التَّوبة هي فعل تغيير مستمر في حياة الإنسان، من حياة حسب الجسد، إلى حياة حسب الرُّوح. وهذا التَّغيير لا يتم إلاَّ بتجديد الذِّهن والفكر، طبقاً لقول الإنجيل «تغيَّروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم» (رومية

٢:١٢). وتجديد الذِّهن والفكر لا يكون إلاَّ بكلمة الإنجيل. «إذ خلعتم الإنسان العتيق مع أعماله، ولبستم الجديد الذي يتجدَّد للمعرفة حسب صورة خالقه» (كولوسي ٣:٩). «وتتجدَّدوا بروح ذهنكم، وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله في البر وقداسة الحق» (أفسس ٤:٢٣).

ومن أجل ذلك يؤكِّد آباء الكنيسة في كتاباتهم باستمرار أن الخلاص يبدأ عند الفرد بتطهير هذا العقل وتجديده، وبرفض كل هوى ذاتي يسيطر عليه. فهذا هو بدء مسرى التَّوبة عندهم. فمنطلق التَّوبة هو تغيير الفكر[٧].

إذاً نخلص إلى نتيجة خلاصيَّة واحدة هي أن التَّوبة في الكنيسة المسيحيَّة مرتبطة بالمعموديَّة والإفخارستيَّا وكلمة الإنجيل. المعموديَّة تخلق فينا إنساناً جديداً يحتاج إلى نمو من قامة إلى قامة. وكلمة الإنجيل هي البذرة التي تُلقى في تربة هذا الإنسان الجديد، لتثمر فيه ثمراً يليق بالحياة الأبديَّة. والإفخارستيَّا هي الحصن الذي يصون نمو هذه الثِّمار لتكون كلها لحساب المسيح وحده. وهكذا يظل هذا الإنسان الجديد ينمو وينمو يوماً فيوماً حتى يبلغ إلى ملء قامة المسيح. وهل لملء قامة المسيح نهاية؟. أمَّا التَّوبة فهي الرِّباط السِّري الذي يهيئ في الإنسان مناخاً صحياً وتربة صالحة لنمو هذه الحياة الجديدة، حياة المسيح فينا. وبهذا الإنسان الجديد، وبه فقط، يكون الدُّخول إلى ملكوت ربِّنا يسوع المسيح.

مار أفرآم السِّرياني (٣٠٦-٣٧٣م) يتحدَّث عن التَّوبة

[في شبابكَ كنتَ تقول أتوب إذا ما كبرت. فمضى الشَّباب وجاء الكِبر ولم تتب. أفنيتَ شبابك بأوجاع

٧- لشرح أكثر، انظر مثلاً: مجلَّة النور، العددان ٢، ٣، ١٩٨٥م.

الشّهوات والذّنوب، وعندما كبرتَ لا ترغب أن تتوب.

من يوم إلى يوم تطرد التّوبة، وأظنُّها قد هربت منك. في شبابك قلتَ أبقى حتى أصنع هواى وأتوب، فها الآن قد كبرت. اطلب التّوبة قبل أن يطلبك الموت، فإنه بعد الموت ليست هناك توبة. الأيام التي مضت تخبرك عن الأيام التي تأتي. الأولي لم تختبئ ... والأخرى لا تبقى ... قد كنتَ بعيداً عن يومك، فجاء وأدركك ... وها هو أيضاً مسرع إلى الذّهاب كما ذهبت الأيام الخوالي.

انظر لنفسك قبل أن يجوز يومك، واذكر أن شبابك لن يدوم. تعبر مثل الظّل أيامك، ومعها تنقضي حياتك.

التّوبة هي أم الحياة، وطوبى لمن يولد منها. التّوبة هي ترياق لأوجاع الخطيئة القاتلة، وعذاب عظيم للشيطان مضادها. إنها التّوبة تجعل الزّناة بتوليّين، كما تُجلي النُّوراني الذي علاه الصّدأ ... هي تجتذب من الطُّرقات إلى الملكوت، ومن بين السّياجات تُدخل إلى العُرس ... إنها قائمة بباب الختن السّماوي، وكل من عبر بها استقبلت وجهه بيدها ... هي هي أم النُّور، وكل من وُلد منها أنبتت له أجنحة من نار، ومع الرُّوحانيّين يطير إلى العلا ... هي هي ملحمة الطّب السّماوي، ومن وضعها على وجهه برء لوقته ... إنها تزور الأموات، وكل من بلعه الموت ودنا من أحضانها شقّت الموت وأخرجته من جوفه ... إنها حصن تحفظ ما بداخله، وجبّار يرد كل من سُبي. هي هيكل للأمم الطّاهرة، ومنها يأخذون قُدساً لقدسهم ... هي خزانة لجميع الكنوز، وكل من قرع بابها أخذ منها حاجته ...

فمن ذا الذي لا يحبُّك أيتها التَّوبة، يا حاملة جميع التَّطويبات ... ليس من تمسَّك برجائك ونزل إلى الجحيم. ولا من صعد إلى السَّماء بدونك. من يرى الله بغيرك؟ من تمسَّك برجائك ووقع في يد الشيطان؟. ومن تطهَّر و لم تكوني أنت التي غسلتيه؟ مباركة أنت يا أم الغفران، يا من أعطانا إياك الآب المملوء رحمة ...

هي التي تجدِّد البتوليَّة التي اتَّسخت، وتحفظ بلا عيب تلك التي لم تفسد بعد. المسيح جاء وخلَّصنا، وبصوته نادانا قائلاً: «توبوا فقد اقترب الملكوت»].

مفهوم "الاعتراف" ἐξομολογήσις – The Confession

الاعتراف هو الشَّهادة في المفهوم الكنسي، وهو يشمل أربعة معاني:

(١) الإقرار والمجاهرة بالإيمان

وذلك بواسطة المعترف الذي يشهد بإيمانه إلى حد قبول الموت إن حدث. والسيِّد المسيح نفسه له المجد هو باكورة هؤلاء الذين شهدوا باعتراف حسن حتى إلى قبول الموت. «أوصيك أمام الله الذي يحيي الكل، والمسيح يسوع الذي شهد لدى بيلاطس البنطي بالاعتراف ὁμολογίαν الحسن» (١تيموثاوس ٦:١٣).

وعن هذا المعنى يقول السيِّد المسيح: «وأقول لكم: كل من اعترف بي قدام النَّاس يعترف به ابن الإنسان قدَّام ملائكة الله» ὁμολογήσῃ (لوقا ١٢:٨). وأيضاً: «فكل من يعترف بي قدام النَّاس أعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السَّموات» ὁμολογήσει (متى ١٠:٣٢). ويقول

القدّيس يوحنا الرّسول: «من اعترف ὁμολογήσῃ أن يسوع هو ابن الله، فالله يثبت فيه وهو في الله» (١يوحنا ٤:١٥). وأيضاً قول الرُّوح في سفر الرؤيا: «من يغلب فذلك سيلبس ثياباً بيضاً، ولن أمحو اسمه من سفر الحياة، وسأعترف ὁμολογήσω باسمه أمام أبي وأمام ملائكته» (رؤيا ٣:٥).

وعن المجاهرة بالإيمان نقرأ عند يوسابيوس القيصري (٢٦٠-٣٤٠م) المؤرِّخ الكنسي المشهور، كيف أن الشَّهيد لا يكون شهيداً بآلامه وبدمائه فقط، بل بكلمة فمه أيضاً. فيقول يوسابيوس القيصري: "وممن اشتهر بين الشُّهداء في تلك الأوقات شخص يُدعى بيونيوس. ومن يريدون معرفة اعترافاته المتعدِّدة، وجرأته في الكلام، واحتجاجاته دفاعاً عن الإيمان أمام الشَّعب والحكّام، وخطاباته المليئة بالتَّعليم. وفضلاً عن ذلك تحيَّاته لمن استسلموا للتَّجربة أثناء الاضطهادات، وكلمات التَّشجيع التي وجَّهها إلى الإخوة الذين أتوا لزيارته في السِّجن، والتَّعذيب الذي تحمَّله. بالإضافة إلى الآلام والتَّسمير وثباته وهو على الكومة، وموته بعد كل المحن الشَّاذة. هؤلاء نحيلهم على تلك الرِّسالة التي كُتبت عن استشهاد الأقدمين، والتي جمعناها متضمِّنة وصفاً كاملاً عنه" (٤:١٥:٤٧).

وفي تعبيرات مؤثِّرة عن الشُّهداء والمعترفين يقول يوسابيوس أيضاً: "... قد كانوا أيضاً غيورين جداً في الإقتداء بالمسيح الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله[٨]، لدرجة أنهم بالرَّغم من وصولهم إلى مثل هذه الكرامة، وتقديمهم الشَّهادة كاملة، لا مرَّة ولا مرَّتين، بل مراراً كثيرة، وإعادتهم إلى السِّجن بعد طرحهم للوحوش الضَّارية، مهرَّأة أجسامهم بالحروق والجروح، فإنهم لم ينادوا بأنفسهم بأنهم شهود، ولا سمحوا لنا بأن نلقّبهم بهذا الاسم. وإن تحدَّث أحدنا

٨- فيلبي ٢:٦

عنهم بالرَّسائل أو شفوياً كشهود، وبَّخوه بشدة

لأنهم تنازلوا عن لقب 'شاهد' بسرور إلى المسيح الشَّاهد الأمين، الصَّادق، البكر من الأموات[٩]، بداءة خليقة الله. وقد ذكَّرونا بالشُّهود الذين سبق أن ارتحلوا، قائلين: إن الشُّهود هم الذين حُسبوا مستحقين أن يؤخَذوا إلى فوق في اعترافاتهم، الذين ضمنوا شهادتهم بارتحالهم. أما نحن فإننا لا نزال معترفين، متواضعين وضعفاء. من ثمَّ التمسوا من الإخوة بدموع أن يقدِّموا الصَّلوات الحارة لكي يكمَّلوا (بالاستشهاد).

وقد أظهروا بأعمالهم قوَّة الشَّهادة، مظهرين جرأة عظيمة نحو جميع الإخوة. وبيَّنوا نبلهم وسموهم بالصَّبر والشَّجاعة وعدم الخوف. ولكنهم رفضوا لقب 'شهود' الذي يميِّزهم عن إخوتهم، لامتلائهم من خوف الله" (٥:٢:٢-٤).

وكانت الكنيسة – ولا زالت – تكرِّم المعترفين الذين يشهدون بإيمانهم أمام كثيرين، ولكنها ظلَّت تفرِّق بين المعترفين الذي قبلوا الآلام نتيجة اعترافهم، والذين لم يتألَّموا لسبب ذلك الاعتراف، بل منحتهم رتبة كنسيَّة إزاء اعترافهم ومجاهرتهم بالإيمان. فنقرأ في القانون السَّادس من قوانين هيبوليتس القبطيَّة:

"١- إذا استحق واحد أن يقف في محفل لأجل الأمانة، ويحتمل العقوبة لأجل المسيح، وبعد هذا يتخلَّص بنعمة المراحم، فهو بذلك قد استحق رتبة القسيسيَّة من جهة الله. لا يقسمه الأسقف، لأن اعترافه هو قسمته. أما إذا صُيِّر أسقفاً فليُقسم.

٢- وإذا اعترف واحد ولم يؤلَّم بعقوبة، فقد استحق القسيسيَّة؛

٩- رؤيا ١:٥

ولكنه يُقسم من جهة الأسقف.

٣- وإن كان عبدٌ لواحد، واحتمل عقوبة لأجل المسيح، فهذا هو قسيس الرَّعيَّة، وإن لم ينل شكّل القسيسيَّة، لكنه نال روح القسيسيَّة، ليس بصلاة الأسقف عليه بتلاوة، بل من جهة الرُّوح القُدُس".

فالاعتراف بالمسيح وبألوهيَّته وبإنجيله هو تمجيد لله الآب «إذ هم باختبار هذه الخدمة يمجِّدون الله على طاعة اعترافكم ὁμολογία لإنجيل المسيح» (٢كورنثوس ٩:١٣). وأيضاً «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السَّماء ومن على الأرض، ومن تحت الأرض، ويعترف ἐξομολογήσεται كل لسان أن يسوع المسيح هو ربٌّ لمجد الله الآب» (فيلبي ٢:١٠، ١١).

وفي ذلك يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[فكما أنه كان يُعبد دائماً لكونه اللُّوغوس الموجود في صورة الله، هكذا ظلّ هو نفسه كما هو وصار إنساناً ودُعي يسوع. فليس أقل من أن كل الخليقة تظل كما كانت دائماً تحت قدميه، وهي التي تجثو بركبها له بهذا الاسم. وتعترف أن اللُّوغوس صار جسداً، وأنه احتمل الموت بجسده، ولم يحدث له كل هذا كإهانة لمجد ألوهيَّته، بل لمجد الله الآب][١٠].

(٢) الإقرار بالخطيئة والاعتراف بها

وذلك إمَّا إقراراً علنياً أمام الجماعة من خلال العبادة اللّيتورجيَّة، حيث يقف المعترف وسط الجماعة ليعترف بخطيئته، وهو ما يشير إليه إنجيل القدِّيس مرقس البشير «وخرج إليه جميع كورة اليهوديَّة، وأهل

10- Ath. *Ar.*, 1:42.

أورشليم، واعتمدوا جميعهم منه في نهر الأردن معترفين ἐξομολογούμενοι بخطاياهم» (مرقس ١:٥). أو قول القدِّيس يعقوب الرَّسول: «اعترفوا ἐξομολογεῖσθε بعضكم لبعض بالزَّلات، وصلُّوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا ...» (يعقوب ١٦:٥).

أو يكون الإقرار بالخطيئة في اعتراف فردي خاص على الكاهن، أي اعتراف سرِّي auricular confession وهو الاعتراف فماً لأذن. وهو ما سأعرضُ له تفصيلاً في هذا الكتاب.

(٣) مقبرة الشَّهيد تسمى "الشَّهادة"، أو "موضع الشَّهادة".

ويُطلق الاسم نفسه أيضاً على البناء الذي يقام على مثل هذه المقبرة. وهو غالباً يكون كنيسة صغيرة. أو يطلق على السِّرداب الموجود تحت بناء هذه الكنيسة، والمدفون فيه الشَّهيد، وهو يُسمى Crypt أي الضَّريح، أو المزار. ويكون غالباً تحت مذبح الكنيسة الرَّئيسي، وهو يُسمى Shrine وفيه توضع رفات الشَّهيد.

فلقد عرفت الكنيسة منذ البداية ما لأجساد الشُّهداء أو رفاتهم من كرامة فائقة، وقوَّة شفاعة، فاستودعتهم أقدس مكان تحت المذبح المقدَّس. واعتنت بمقابرهم عناية شديدة. ولم يكن هذا التَّكريم مختصاً بهم في الأرض فقط، بل هو كذلك في السَّماء أيضاً. «رأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله، ومن أجل الشَّهادة التي كانت عندهم» (رؤيا ٩:٦).

ويروي يوسابيوس القيصري (٢٦٠ـ٣٤٠م) أن هيجسبوس Hegesippus المؤرِّخ في مؤلَّفه عن "سير الأبطال" يورد قصَّة استشهاد القدِّيس يعقوب أخي الرَّب، أسقف أورشليم، وهو القدِّيس يعقوب البار، فيقول: "... وللحال تقدَّم أحدهم وكان قصَّاراً، وضرب البار

على رأسه بالعصا التي كان يضرب بها الملابس، وهكذا استشهد. فدفنوه في الحال بجانب الهيكل. ولا يزال قبره بجوار الهيكل. فصار **شهادة** صادقة لكل من اليهود واليونانيِّين بأن يسوع هو المسيح ...'' (١٨:٢٣:٢).

وفي القوانين الكنسيَّة المصريَّة القديمة يرد في المخطوطات تعبير ''المرديريون''، أو ''المارتيريون''، وهو تعريب الكلمة اليونانيَّة μαρτήριον ، أي موضع الشَّهادة، أو ''موضع الشَّهيد''.

ويبدو أن بعض الأقباط، ولاسيَّما الأغنياء منهم، ومنذ أواخر القرن الخامس الميلادي قد أفرطوا إفراطاً زائداً في الاحتفال بأعياد الشُّهداء في مواضع استشهادهم، أو عند قبورهم، بعيداً عن سلطان الكنيسة وإشرافها، متخطّين ما دأبت الكنيسة على ممارسته في هذه الأعياد، من حيث إقامة صلوات وتسابيح تمتد طوال اللَّيل وتنتهي بالقدَّاس الإلهي والتَّناول من الأسرار المقدَّسة، إلى السَّهر في اللَّهو والطَّرب، وتحويل يوم عيد الاستشهاد إلى ''مولد''. وهو ما ظلّ سارياً في بعض المناطق في مصر حتى إلى عهد قريب.

لذلك نقرأ في القانون رقم (٩٢) من قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة ما يلي: ''لا يمضي أحد من الرُّهبان أو الرَّاهبات إلى أحد (موالد) المارتيريون أي مواضع الشُّهداء أو **ملاهي المنحلّين** هناك. بل كل دير من أديرة العذارى تقيم راهباته ليلة الشُّهداء في ديرهن كاجتماعهن (كأنهن اجتمعن) في مواضع الشُّهداء، يصلُّون''.

وفي القانون رقم (٣٣) من القوانين الكنسيَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير، والتي تعود إلى حوالي القرن السَّادس الميلادي، نقرأ ما يلي: ''... وإذا جسر **أناسٌ غير متأدِّبين** وهم في مواضع الشُّهداء،

ويجحدون الكنيسة الجامعة وناموسها، ولا يريدون أن يكونوا تحت سلطانها، فإن الكنيسة الجامعة تفرِّقهم كهراطقة".

هذا الوضع الغريب لم يكن هو الوضع العام والسَّائد في كل الكنيسة، إذ نقرأ في سيرة القدِّيس أنبا مقار، أنه كان يدعو أولاده مراراً لزيارة المكان الذي وُضع فيه جسدا القدِّيسين الرُّوميين، مكسيموس ودوماديوس، وذلك للصَّلاة ونوال البركة، فيقول لهم: "هلمُّوا بنا نعاين شهادة الغرباء الصِّغار". وهي إشارة إلى الكنيسة الصَّغيرة التي وُضع جسداهما فيها، على اعتبار أن الرَّاهب يشهد كل يوم بحياته التي كرَّسها كلها للمسيح.

وفي العصور الوسطى أُطلقت الكلمة على كل الكنيسة التي يُدفن فيها جسد أحد الشُّهداء أو رفاته، مثل كنيسة القدِّيس بطرس في روما، والتي تحوي جسد القدِّيس بطرس الرَّسول، حيث دُعيت الكنيسة Confessio of St. Peter أي "شهادة القدِّيس بطرس".

(٤) الشُّكر أو الاتفاق

الشُّكر هو أحد أوجه الاعتراف لله، أي حمده وشكره «لأنه مكتوب أنا حي يقول الرَّب إنه ستجثو لي كل ركبة، وكل لسان سيحمد الله» (رومية ١٤:١١). والفعل "سيحمد" كما يذكره القدِّيس بولس الرَّسول يأتي في اليونانيَّة ἐξομολογήσεται (إكسومولوجيستي)، وأصله هو الفعل ἐξομολογέω والذي يعني معاني كثيرة منها: يوافق – يرضى – يقر بـ – يعترف بـ – يسلِّم بـ – يسمح – يسبِّح – يحمد – يشكر. والتَّعبير "سيحمد الله – ἐξομολογήσεται τῷ Θεῷ" يحمل معنى "يعترف لله".

وهذا هو نفس ما يشير إليه الرَّسول بولس بقوله: «كما هو مكتوب

من أجل ذلك سأحمدك ἐξομολογήσομαι في الأمم، وأرتِّل لاسمك»، لتفيد الآية أيضاً معنى ”... سأعترف بك في الأمم، وأرتِّل لاسمك“.

ونقرأ في رسالة كليمندس الرُّوماني الأولى إلى أهل كورنثوس ”إننا نعترف لك (نشكرك) بواسطة رئيس الكهنة، وحامي نفوسنا يسوع المسيح الذي له المجد والتَّعظيم، الآن وإلى جيل الأجيال آمين“.

وهو نفس المعنى الذي يشير إليه البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) في شرحه للمزمور رقم (٣٠)[١١]. والقدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) في شرحه للمزمور رقم (٤١)[١٢]. وقبلهما العلاّمة المصري أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) في عظة له على سفر إرميا[١٣]. والقدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) في شرحه للمزامير أيضاً[١٤].

وهو ما تصلّي به الكنيسة القبطيَّة حتى اليوم في تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر في ترتيلها للمزمور ١٣٥، وهو الهوس الثَّاني، ”اعترفوا للرَّب، فإنه صالح، وأن إلى الأبد رحمته“. والفعل ”اعترفوا“، جاء في القبطيَّة ⲟⲩⲱⲛϩ ⲉ̀ⲃⲟⲗ ويعني أيضاً ”اشكروا“.

وكما أن ”الاعتراف“ يعني ”الشُّكر والحمد“، فهو يعني أيضاً ”التَّواعد والاتفاق“، وهو ما نقرأه في إنجيل القدِّيس لوقا البشير (لوقا ٢٢:٦)، حين يشير إلى يهوذا عندما اتفق مع رؤساء الكهنة على أن يسلِّم يسوع لهم، فيقول: «فواعدهم - ἐξομολόγησεν » أي ”رضى ووافق شاكراً“، ومن ثمَّ كان يطلب فرصة ليسلِّمه إليهم خلواً من جمع.

11- Cf. Athanas. *Exp., Ps. 30: 24.*
12- Chryst., *Exp., Ps. 141.*
13- Orig., *Hom. 17:7 in Jer.*
14- Bas., *Hom., in Ps. 44 ; Ps 115.*

هذه هي معاني الاعتراف أو الشَّهادة.

الشَّواهد الكتابيَّة والآبائيَّة عن الاعتراف بالخطايا

الاعتراف بالخطايا تدعِّمه شواهد كثيرة من العهد القديم[١٥]. أمَّا العهد الجديد فيرد به أشهر أربعة شواهد كتابيَّة عن ذلك، وهي:

متى ٣:٦ «واعتمدوا منه (أي من يوحنا المعمدان) في الأردن معترفين بخطاياهم».

يعقوب ٥:١٦ «اعترفوا بعضكم لبعض بالزَّلات وصلُّوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا».

١يوحنا ١:٨، ٩ « إن قلنا إنه ليس لنا خطيئة نضل أنفسنا وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا، ويطهِّرنا من كل إثم».

أعمال ١٩:١٨ «وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون (إلى الآباء الرُّسُل) مقرِّين ومخبرين بأفعالهم».

وبرغم أن الشَّواهد الكتابيَّة السَّابق ذكرها لا تنص صراحة على الاعتراف السِّري على الكاهن، إلاَّ أن الكاهن لا يستطيع ممارسة السُّلطان الممنوح له من الله بحل الخطايا أو ربطها إلاَّ بمعرفة هذه الخطايا، وإقرار المخطئ بها. فإنكار الاعتراف على الكاهن هو إنكار لسُلطان الحل والرَّبط الممنوح له من الله.

وينبغي ألاَّ نخلط بين التَّوبة العلنيَّة أو الاعتراف العلني في الكنيسة،

١٥- لاويين ٥:١-٦ ؛ لاويين ٢٦:٣٩-٤٥ ؛ عدد ٥:٦، ٧ ؛ تثنية ٢٦:٣ ؛ يشوع ٧:١٩ ... الخ.

والذي عُرف في الكنيسة على مدى الثّلاثة قرون الأولى للمسيحيَّة، وبين الاعتراف السِّري على الكاهن الذي كان مرحلة تالية في الكنيسة بعد توقُّف الاعتراف العلني فيها[١٦].

ولم يطوِّع آباء الكنيسة – على كثرة كتاباتهم – واحدة من الآيات الكتابيَّة التي تحوي لفظة "اعتراف" – وهي الآيات الكتابيَّة السَّابق ذكرها[١٧] – لكي يجعل منها شاهداً كتابياً من العهد الجديد لإثبات الاعتراف السِّري على الكاهن، باستثناء القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م). ففي تعقيبه على آية يعقوب الرَّسول، يقول:

[ليس المقصود أن يعترف الكهنة على العلمانيِّين، كما يعترف هؤلاء لهم. فإن هذه الجملة لا توجب دائماً المشاركة بين كل من الطَّرفين، أي لا يلزم منها اعتراف الكهنة للشَّعب، بل هي على حد قولك: علِّموا بعضكم بعضاً، وعالجوا أحدكم الآخر، وليسعف الواحد منكم صاحبه. بمعنى أن العالم يعلم الجاهل، والطَّبيب يعالج المريض، والقوي يشدِّد الضَّعيف، وقس على ذلك. ومن هذا يتَّضح أن البعض الذي نعترف له هو كهنة الله الأمناء، الذين يدعوهم المريض لدهنه بالزَّيت، والدُّعاء له من الله. قال يوحنا الرَّسول: «إن قلنا إنه ليس لنا خطيئة نضل أنفسنا، وليس الحق فينا. إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا، ويطهِّرنا من كل إثم. إن قلنا إننا لم نخطئ نجعله كاذباً، وكلمته ليست فينا»] (تفسير يوحنا ١:٨-١٠).

١٦- موسهيم، مجلد ١، ص ٤١٧ . مقتبس عن: المطران سويرس زكا عيواص، والأب الرَّبان اسحق ساكا، الأسرار السَّبعة بحسب معتقد وطقس الكنيسة السِّريانيَّة الأرثوذكسيَّة، طبعة أولى، بغداد، ١٩٧٠م، ص ١٢١

١٧- متى ٣:٦ ؛ يعقوب ٥:١٦ ؛ ١يوحنا ١:٩

ولعل كلام القدِّيس أغسطينوس السَّابق ذكره ينفي عن الكهنة أنهم هم أيضاً ضعفاء يحتاجون إلى توبة واعتراف، ومرضى يحتاجون إلى طبيب. وإن كان كلام القدِّيس يعقوب الرَّسول لا يعني اعتراف الكهنة على العلمانيين كما يفسِّر القدِّيس أغسطينوس، إلاَّ أنه لا يمنع اعتراف العلمانيين على العلمانيين، والكهنة على الكهنة، فلماذا قصر أغسطينوس تفسير الآية على كونها اعتراف العلمانيين على الكهنة فحسب؟[١٨].

وإن كنيسة الإسكندريَّة صاحبة مدرسة التَّفسير المجازي للكتاب المقدَّس لم تنهج هذا الأسلوب في تفسير هذه الآيات السَّابقة التي تتحدَّث عن الاعتراف بالخطايا، لكي تجد فيها شاهداً عن الاعتراف السِّري على الكاهن. فالتَّقليد المستقر في الكنيسة هو الذي يدعِّم هذا التَّعليم ويؤكِّده، ويكفي في ذلك قول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[كما أن المعمَّد يستنير بنعمة الرُّوح القُدُس، هكذا بواسطة الكاهن ينال التَّائب الغفران بنعمة المسيح] (ضد النواتيين).

وكان العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) هو أوَّل من أشار في الكنيسة القبطيَّة إلى أن الاعتراف بالخطايا يكون أولاً أمام الله في الصَّلاة، ثمَّ أمام الكاهن في الكنيسة. وهو التَّقليد الذي رسَّخه في الكنيسة البابا أثناسيوس الرَّسولي.

فيقول العلاَّمة أوريجانوس:

[يوجد ترك للخطايا مكرب جداً وصعب، وممكن الحصول عليه بالتَّوبة، وذلك عندما يبلِّل الخاطئ فراشه

١٨- إن آراء القدِّيس أغسطينوس في بعض القضايا الكنسيَّة غير معتد بها الآن في الكنيسة الكاثوليكيَّة ذاتها.

Cf. Dictionnaire de spiritualité, Vol. 2, Paris. 1983, p.

بدموعه. وعندما تصير دموعه له خبزاً نهاراً وليلاً. وعندما لا يخجل بأن يكشف خطيئته أمام كاهن الله طالباً الشِّفاء. أو عندما يقول بعد الخطيئة: قد عرفتُ خطيئتي، و لم أخف إثمي. قلتُ أعترف للرَّب بذنبي.

فإذا عملنا هكذا، وكشفنا خطايانا، ليس لله فقط، بل للذين يستطيعون أيضاً أن يشفوا جراحنا وآثامنا، تُمحى جهالاتنا من الله الذي قال: قد محوت كغيم ذنوبك، وكسحابة خطاياك][١٩].

إن إعطاء الكاهن سُلطان الحل والرَّبط بموهبة الرُّوح القُدُس لغفران الخطايا أو ربطها، يكفي لكي يشهد بوجوب الاعتراف بالخطيئة على الكاهن في الكنيسة. ثمَّ لا ينبغي أن نغفل التَّقليد المتوارث في الكنيسة من جيل إلى جيل. لأنه إن حاولنا إيجاد شاهد كتابي لكل ممارسة كنسيَّة نمارسها، ستتعثر خطواتنا؛ فأي شاهد كتابي علَّمنا كيفيَّة رشم إشارة الصَّليب، أو طريقة عمل القُربان، أو طقس صلوات القدَّاس، أو استخدام البُخور في كنيسة العهد الجديد، أو تكريم الأيقونات وإيقاد الشُّموع أمامها، أو الصَّلاة على المنتقلين، أو قدَّاسات اللقَّانات، أو صلوات تكريس الرُّهبان والرَّاهبات، أو تكريس الأساقفة والقسوس والشَّمامسة، أو تكريس الكنائس والمذابح ... الخ؟.

إن سبب بحثنا عن آية كتابيَّة صريحة واضحة تخدم ضرورة الاعتراف السِّري على الكاهن في الكنيسة، هو أننا ركَّزنا تركيزاً شديداً على تسمية السِّر "سرّ الاعتراف" فقط، في حين أنه في الحقيقة هو "سرّ التَّوبة"، قبل أن يكون "سرّ الاعتراف". وإن أخذناه بهذا المعنى الصَّحيح

١٩- تفسير اللاويين، مقال ١٧

له توفَّرت لدينا شواهد كتابيَّة لا حصر لها تخدمه كسر توبة نعود به إلى الله، لنجد عنده الصَّفح عن الخطايا، ونخرج من أمامه مبرَّرين، فرحين، ليصبح الاعتراف على الكاهن في الكنيسة هو إخبار عن اختبار خلاصنا بكل إيمان واثق أن من يأتي إلى الرَّب لا يخرجه فارغاً. ونسرد أمام الكاهن خطايانا مع يقين قلبي أن الرَّب قد قبل صلاتنا، وملأ قلوبنا سلاماً وتشجيعاً، حينئذ نسمع من فم الكاهن: "مغفورة لك خطاياك"، هنا يكون الختم على صك تبرئة نلناه من الرَّب، وكل ما لا تختم عليه الكنيسة لا يكون قابلاً للصَّرف من عند الرَّب. فلا خلاص خارجاً عن الكنيسة.

إن تعليم الكنيسة في هذا الشَّأن يتلخَّص في التَّحليل الأخير في القدَّاس الإلهي وقبل التَّناول مباشرة والذي يقول فيه الكاهن:

"أنت الذي قلت لأبينا بطرس من فم ابنك الوحيد ربنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوع المسيح، أنت هو الصَّفا، وعلى هذه الصَّخرة أبني بيعتي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها. وأعطيك مفاتيح ملكوت السَّموات. ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السَّماء، وما حللته على الأرض يكون محلولاً في السَّموات[٢٠]. فليكن يا سيِّد عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي، محاللين من فمي بروحك القدُّوس، أيها الصَّالح محب البشر".

ولاحظ هنا قارئي العزيز أن التَّحليل يأتي بعد صلاة وابتهال وتشفُّع.

ثمَّ يضع الكاهن نفسه كواحد بين شعبه، وفي ذات الوقت يتوسَّط لدى الله كشفيع عن شعبه الذي قدَّم من قَبل توبة إلى الله، فيكمل قائلاً:

"اللَّهم يا حامل خطيئة العالم، أسبق بقبول توبة عبيدك منهم، نوراً للمعرفة، وغفراناً للخطايا، لأنك أنت إله رءوف ورحيم، أنت طويل

٢٠- مت ١٦: ١٨، ١٩

الأناة، كثير الرَّحمة وبار. وإن كنَّا (الكاهن والشَّعب معاً) أخطأنا إليك بالقول أو بالفعل فسامح واغفر لنا كصالح ومحب البشر.

اللّهم حاللنا (يقول الكاهن ذلك عن نفسه أولاً) وحالل كل شعبك ... الخ".

وهكذا تجد أن موجز تعليم الكنيسة وإيمانها في هذا الأمر ينحصر في قول الكاهن: "فليكن يا سيِّد عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي محاللين من فمي بروحك القدُّوس".

هذا التَّعليم وهذا الإيمان ليس بكلمات ومناقشات ومباحثات وبراهين، بل بإيمان معلن من داخل اللّيتورجيَّا التي تعيشها الكنيسة كل يوم زاداً لا ينضب لحياة لا تزول.

مفهوم العقوبات أو التَّأديبات الكنسيَّة

العقوبة أو التَّأديب الكنسي أو الدِّيني، والمعروف في الإنجليزيَّة والفرنسيَّة باسم Penance وفي اللاتينيَّة باسم Poena والذي يوقَّع على الخاطئ لم يكن بديلاً أو تكميلاً لغفران خطيئته الذي يتم بواسطة كفّارة المسيح له المجد على الصَّليب. فغفران الخطيئة لا يكون إلاّ بدم المسيح فقط. أما التَّأديبات أو العلاجات الكنسيَّة للخاطئ، فهي إمَّا لإصراره على الاستمرار في الخطيئة، وعدم توبته عنها، كأن يُحرم من شركة الجماعة. أو لاقترافه خطأ فاضحاً بين الجماعة أعثر كثيرين منهم، وهنا يكون تقويم العضو الفاسد صوناً لباقي الأعضاء. أو بمثابة دواء يعالج نتائج الخطيئة وآثارها على نفس الخاطئ، وتهذيباً لباقي الجماعة. أو لكي تردع الإنسان الخاطئ فلا يتجرأ على خطايا أعظم.

نعرف أن الخطايا التي يقترفها الإنسان، إمَّا خطايا فكريَّة فقط، أو خطايا فكريَّه أدت إلى مشاركة الجسد وحواسه معاً. فإن كانت التَّأديبات الكنسيَّة نافعة للأولى، فهي للأخيرة نافعة بالأكثر.

تقول الدِّسقوليَّة في ذلك: "إذا مشى واحد عند البحر وزلق، وأنت عوض معاضدتك إياه وجذبه إلى فوق، صرت تشبهه أيضاً ودفعته أسفل إلى البحر، فقد قتلت أخاك. كان يجب عليك بالحري أن تعضد الذي زلق لئلا يهلك تماماً، لكي يتأدَّب الشَّعب، والذي أخطأ أيضاً، لئلا يهلك الكل" (الدِّسقوليَّة ٤:٣).

والتَّعليم الأرثوذكسي عن العقوبات والتَّأديبات الكنسيَّة لا يعرف ما يعلِّم به التَّعليم الكاثوليكي عنها، والذي يقول: "إن توقيع العقوبة على الخاطئ هو جزء أساسي في غفرانها، باعتبار أنه من الأفضل أن يقاسي الخاطئ العقوبة هنا في هذا العالم عن معاناته بسببها هناك في العالم الآتي، إلاَّ أن الجانب الرَّئيسي في غفران الخطيئة هو بواسطة كفارة المسيح على الصَّليب"[٢١]. وواضح هنا – طبقاً لهذا التَّعليم – أن دم المسيح وإن كان يحتل الجانب الرَّئيسي في غفران الخطيئة، إلاَّ أن هذا الغفران يحتاج إلى جوانب فرعيَّة لتكميله، وهذا ما لم تعلِّم به الدِّسقوليَّة، ولا المراسيم الرَّسوليَّة، أو أي واحد من آباء الكنيسة في القرون الأولى لها.

فعن عقوبة الخطيئة يقول التَّعليم الكاثوليكي: لكي نفهم هذه العقيدة وهذه الممارسة في الكنيسة، لابد من النَّظر إلى الخطيئة في مفعولها

21- Dictionaire de spiritualité, vol. 12, Paris, 1983, p. 943 ; Cross, F.L., & Livingstone, E.A., The Oxford Dictionary of the Christian Church (ODCC), (2nd edition), 1988, p. 1059.

المزدوج. فالخطيئة الثّقيلة تحرمنا من الشّركة مع الله، وتجعلنا، من ثمّ، غير أهل للحياة الأبديَّة. وهذا ما يُسمى "بالعقاب الأبدي" للخطيئة. ومن جهة أخرى، كل خطيئة، حتى الخطيئة العرضيَّة، تجعلنا نتعلّق تعلّقاً مريضاً بالخلائق، يحتاج إلى تنقية، سواء في هذا العالم أم بعد الموت، في الحالة المعروفة "بالمطهر". هذه التّنقية تعفينا مما يُسمى "بالعقاب الزّمني" للخطيئة. هاتان العقوبتان، يجب ألاّ نعتبرهما شبه انتقام يترله الله بنا من الخارج، بل نتيجة نابعة من طبيعة الخطيئة نفسها. والتّوبة الصّادرة عن محبّة متّقدة قد تؤدي بالخاطئ إلى تنقية كاملة تعفي صاحبها من كل عقاب[٢٢].

أمّا الأمر الأكثر أهميَّة في هذا الشّأن فهو خطورة استخدام التّأديبات أو العقوبات الكنسيَّة بدون خبرة ودراية في علاج الخاطئ، لئلا يتقبّل الخاطئ داء بدلاً من الدّواء.

وفي ذلك تخاطب الدِّسقوليَّة الأسقف قائلة: لتشف الذين ضلّوا بالخطيئة كطبيب للعاجز، ومشارك للمتعبين ... وأنت الآن طبيب كنيسة الرّب، فقدِّم الأشفية اللائقة بكل واحد من المرضى، لتشفيهم وتنجيهم بكل شكل، ولترتّبهم في الكنيسة[٢٣].

ولقد صار الكتاب الثّاني من مجموعة كتب المراسيم الرّسوليَّة[٢٤]

٢٢- المطران كيرلس سليم بسترس، التّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة، عرّبه عن الطّبعة اللاتينيَّة الأصليَّة التي صدرت عن حاضرة الفاتيكان سنة ١٩٩٧م المطران سليم بسترس وآخرون، المكتبة البولسية، جونيه، لبنان، ١٩٩٩م، ص ٤٤٣

٢٣- وليم سليمان (الدكتور)، الدِّسقوليَّة – تعاليم الرُّسُل"، القاهرة، ١٩٧٩م، وهي الدِّسقوليَّة العربيَّة في نصها الثاني (٤٢:٤، ٤٣)، ص ١١٤

٢٤- الكتاب الثّاني من المراسيم الرّسوليَّة يضم الفصول من الثّالث إلى الحادي عشر من الدِّسقوليَّة العربيَّة في نصّها الثّاني.

انظر للمؤلّف: كتاب "المراسيم الرّسوليَّة – دراسة موجزة، نص الكتاب الثّامن"، حيث تجد فيه جدولاً يحدِّد العلاقة بين كتب المراسيم الرّسوليَّة وفصول الدِّسقوليَّة.

"دليلاً رعائياً"، شاملاً نصائح مطوَّلة في معالجة الخاطئ. ولقد فوَّضت الكنيسة للأسقف سلطة توقيع العقوبة أو التَّأديب على الخاطئ، لحفظ سلامة الرَّعيَّة، داعية إياه أن يحكم على الذين أخطأوا بالرَّحمة والرأفة. فإن كان واجب الأسقف ألاَّ يغفل عن خطايا الشَّعب، وينتهر الذين يخطئون، ويعاقب الخاطئ على خطيئته، فعليه أيضاً أن يؤدِّب بوداعة الذين لا يريدون أن يرجعوا، وأن يقبل إليه الذين يتوبون برحمة ورأفة ويبشرهم بالخلاص، لأنه إذا لم يقبل إليه الذي تاب، فإنه يسلِّمه إلى الأعداء، ومن ثمَّ تهلك رعيَّة الرَّب.

"أرجع (أيها الأسقف) ذاك الذي طُرد خارجاً، أي لا تسمح بأنَّ الذي يكون في خطاياه وطُرد خارجاً على سبيل العقاب، أن يستمر مبعداً، بل اقبله إليك وردّه إلى داخل القطيع الذي هو شعب الكنيسة البار" (٢:٢٠:٤)[٢٥]. فهدف التَّأديب إذاً هو خلاص النَّفس، وليس التَّأديب في حد ذاته كتأديب.

ولكن الفقرة الأكثر شُهرة والتي تحمل مضموناً رعائياً متميِّزاً، هي تلك التي وردت في الكتاب الثَّاني من المراسيم الرَّسوليَّة:

"وأنت إذا رأيت الذي أخطأ، فاغضب يسيراً، ومُر أن يخرج، فإذا خرج، فليوبِّخه الشَّمامسة، ويطلبوه، ويمسكوه خارج الكنيسة، وليدخلوا فيسألوك من أجله ... حينئذ تأمر أن يُدخل، وإذا وجدت بالفحص أنه تائب، أو بالجُملة يستحق أن تقبله إليك في الكنيسة، فحدِّد له أيام صوم حسب درجة مخالفته، أسبوعين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو سبعة، وهكذا اتركه وعرِّفه الواجبات (التي تجب) على الذي أخطأ

---

٢٥ – قارن مع: دكتور وليم سليمان قلادة، الدِّسقوليَّة – تعاليم الرُّسُل، مرجع سابق، (٤:٣٥) ص ١١١.

ليتأدَّب ... هكذا يجب أن نصنع بالذين يتوبون عن خطاياهم، أي نفصلهم زماناً معيَّناً كمقدار خطيئتهم، وبعد هذا إذا تابوا، نقبلهم إلينا، كما يقبل الآباء أبناءهم إليهم" (٢:١٦:١-٤)[٢٦].

وفي نفس الوقت تدعو الدِّسقوليَّة الأسقف ألاَّ يأخذ بالوجوه متغاضياً عمَّن يخطئ، ويتركه في شركة الكنيسة لسبب قبوله هدايا مملوءة ربحاً مرذولاً، فيكون سبباً لشك كثيرين. أو أن يقبل مشورة أناس قساة القلوب، يسعون لهلاك آخرين، بل لينظر إلى الله وحده. لأنه كيف للأسقف أن ينتهر أحداً، وهو يأخذ بالوجوه أو يقبل الهديَّة[٢٧].

وإنه لمن أبدع ما تقوله الدِّسقوليَّة العربيَّة في هذا الشَّأن إن الخاطئ إذا نظر إلى الجميع، ولم يجد عيباً في أحد، لا في الأسقف، ولا في شعبه، فإنه "يستحي بخجل ودموع، ويخرج بطريقة هادئة وهو حزين القلب، وتبقى الرَّعيَّة طاهرة، وأما ذاك فيبكي قدَّام الله ويتوب عن خطاياه، ويقتني له رجاءً، فإذا نظرت الرعيَّة كلها إلى دموع ذاك، اقتنت لها أدباً ومعرفة، لأن ذلك الذي أخطأ لا يهلك إذا تاب" (٢:١٠:٤)[٢٨].

وفي موضع آخر تقول الدِّسقوليَّة (في نصها الثَّاني ٣:٤٩، ٥٠): "ولكن إذا رأى الذي أخطأ الأسقف والشَّماس طاهرين بغير لوم، ورأى الرَّعيَّة طاهرة، فإنه أولاً لا يستجرئ أن يدخل إلى كنيسة الله وسريرته تطعنه. وإذا حسب العمل الشِّرير أنه لا شئ، ودخل، فليوبَّخ لوقته. وأيضاً فليعاقَب سريعاً. وإذا ما علَّمه الرَّاعي بوداعة فهو يردَّه إلى التَّوبة".

ويقول القدِّيس غريغوريوس الكبير (+ ٦٠٤م):

---

٢٦ - انظر أيضاً: الدِّسقوليَّة العربية في نصها الثَّاني (٤:٥-٨) ص ٩٩-١٠١

٢٧- انظر: الفصلين الثَّالث والرَّابع من الدِّسقوليَّة العربيَّة في نصها الثَّاني.

٢٨ - قارن مع: الدِّسقوليَّة العربية في نصها الثاني (٣:٥١) ص ٨٥

[يجب على المزمع أن يعطي العلاج المناسب، أن يفحص قبل كل شيء؛ أين الألم؟. ثمَّ يقدِّم للضَّعيف علاجاً ملائماً حتى لا يكون الطَّبيب بجهله منهج الطِّب، يصل بالعلاج إلى موضع آخر غير الموضع الذي فيه المرض][٢٩].

ومنذ القرن السَّابع الميلادي نعرف من القانون رقم (١٠٢) من قوانين مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م، ضرورة استخدام أب الاعتراف للدَّواء النَّافع لكل مرض على حدة، مراعياً الاعتدال، ليقود الإنسان المريض إلى الخلاص. مشيراً إلى أن أمراض الخطيئة هي أمراض مستعصية ومتعدِّدة الأنواع[٣٠].

من هو أب الاعتراف؟

أب الاعتراف هو الكاهن الشَّرعي الذي نال درجة كهنوتيَّة بوضع يد الأسقف عليه، ضمن صلوات ليتورجيَّة طقسيَّة من داخل خدمة الإفخارستيَّا، وهي صلوات الرِّسامات الكهنوتيَّة التي انتقلت إلى الكنيسة من جيل إلى جيل. فأب الاعتراف يلزم أن يكون كاهناً، أمَّا المرشد الرُّوحي فقد يكون أحد الأتقياء من الشَّعب، ذا قامة روحيَّة عالية، بحيث يمكنه أن يدلي بإرشادات روحيَّة للشَّباب. وفي هذه الحالة يكون خير معاون لأب الاعتراف.

ولكن قبل كل شيء، الأب الحقيقي هو الذي يفرح بنجاح ابنه، ولا

29- NPNF Ser. II, Vol. 12, *The Book of Pastoral Role of St. Gregory the Great*, Part III, Chapter 24.

٣٠- ورد نص هذا القانون في الحديث عن المراحل التَّاريخيَّة التي عبر عليها سرّ التَّوبة والاعتراف.

يغير منه أو يحسده، عندما يراه قد فاقه في القامة الرُّوحيَّة أو في المراتب الكنسيَّة أو في المواهب الرُّوحيَّة من أي نوع.

الأب الحقيقي هو الأب الذي ينكر ذاته، ويفرح بنجاح وتقدُّم أولاده، وظهور فضائلهم ومواهبهم الرُّوحيَّة. فمحك الأبوَّة الحقيقيَّة هنا هو في قول الأب عن ابنه الرُّوحي: ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص. وعند هذا الحد من الاختبار، لن يزيد الابن سوى حباً لأبيه، وافتخاراً به، وتفانياً من أجله. ولن ينقص الأب في شئ البتَّة.

إن حياة الإنسان الرُّوحيَّة قد تقتضي الانتقال من أب إلى أب آخر، بما تفرضه احتياجات كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان، كالانتقال من الحياة العلمانيَّة إلى الحياة الرَّهبانيَّة، أو من الحياة العلمانيَّة إلى خدمة الكهنوت. وإن الضَّرورة تقتضي ألاَّ يقبل أب الاعتراف الجديد المعترف الجديد بدون حصوله على إذن أدبي من الأب السَّابق. أي أن وحدة أب الاعتراف قابلة للمرونة بشرط توفُّر السَّبب الخالص والهدف المقدَّس لنمو التَّائب وخلاص نفسه.

ولقد أباحت الكنيسة للمؤمنين أن يبحث كل منهم عن كاهن خبير، وأب حاذق. وألاَّ يلجأ إلاَّ لمرشد ثقة يجد في قوله غناء، وفي علاجه شفاء. وقد اشترطت فيه أيضاً أن يكون وقوراً عارفاً بالشَّريعة، عالماً بأدواء النُّفوس. ويفضَّل أن يكون شيخاً متقدِّماً في السِّن. ومن حكمة يشوع بن سيراخ قوله: «ما أجمل القضاء للشَّيب، وحُسن المشورة للشُّيوخ. ما أجمل الحكمة للشُّيوخ، والرأي والمشورة لأرباب المجد. كثرة الخبرة إكليل الشُّيوخ، ومخافة الرَّب فخرهم» (سيراخ ٢٥:٧، ٨).

لا ينبغي على أب الاعتراف أن يتسلَّط على ابنه في الاعتراف ولا

يترك له إرادة ولا اختياراً لشئ، كأن يتخيَّر له مثلاً نوع الحياة التي يجب أن يعتادها، والزَّوجة التي يجب أن يتزوَّجها، ويراقب الصُّحف التي يطالعها، والكتب التي يقرأها، والأخبار التي يسمعها، والطَّعام الذي يأكله. وبالاختصار كل ما يتَّصل بحياته الماديَّة والعاطفيَّة والفكريَّة يجب أن يسير في المجرى الذي يريده ويخطه الأب. لأنه حتماً سيفقد هذا الابن النُّمو الطَّبيعي لتكوينه العقلي والإرادي، ويصبح شخصيَّة ضعيفة، جاهلاً بمعنى المسؤوليَّة، فأبوه الحنون هو الذي يفكِّر له، ويختار له، ويقرِّر له القرارات المصيريَّة، ويتحمَّل عنه كل المسؤوليَّة، وهو جالس كالمعتوه، يتلقَّى كل شئ من فم أبيه![٣١].

أب الاعتراف الحقيقي هو الذي يعرف أن مسؤوليَّته تنحصر في قبول اعتراف الخاطئ، وإعطائه النُّصح اللازم، والدَّواء النَّافع، وإعطائه الحَّل. ولكنه لا يطبع صورته الرُّوحيَّة وجهاداته على أولاده في الاعتراف لتكون صورة طبق الأصل منه. وإنما هو من يجعلهم يشعرون بحريَّة عمل النِّعمة فيهم وفق شخصيَّة كل منهم. هو يوجِّه فقط، ويترك لله أن يختار الطَّريق الملائم للخلاص، وليس لما يراه هو، أو لما يراه النَّاس من حوله ملائماً لابنه.

أب الاعتراف في طقس التَّوبة هو معلِّم يرشد بالإنجيل، ويتلمذ للمسيح. وهنا لا يصير لأب الاعتراف تلاميذ شخصيِّين أو أتباع حزبيِّين. بل يصيرون بفعل إرشاده وصلاته وإنكاره لذاته، تلاميذ للرَّاعي الواحد ربِّنا يسوع المسيح.

يخاطب القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) الرُّعاة والآباء

٣١- انظر: توفيق الحكيم، عودة الوعي، دار الشُّروق، ديسمبر ١٩٧٤م، الطَّبعة الثَّانية، ص ٨٤، ٨٥

الرُّوحيِّين قائلاً لهم:

[... إذا أكثرت الوداعة مع من يحتاج إلى قساوة عظيمة، ولم تتعمَّق في سبر الجرح العميق، فتكون قد قطعت جانباً من الجرح، وتركت منه جانباً ... فلهذا يجب أن يكون الرَّاعي ذا فطنة عظيمة. وأن تكون له ربوات من الأعين، ليلاحظ من كل جهة حالة النَّفس، لأنه كما أن كثيرين يصلون إلى درجة قطع الرَّجاء، ويسقطون في اليأس من خلاصهم لعدم إمكانهم احتمال العلاجات المُرَّة، هكذا كثيرون غيرهم إذا لم ينالوا تأديبات توازي خطاياهم، يسقطون في الاحتقار، ويصيرون شراً مما كانوا، ويتجرأون على خطايا أعظم.

فيجب إذاً على الكاهن ألاَّ يترك شيئاً بلا فحص، بل أن يفحص كل شئ بالتَّدقيق، ويعطي الموافق للعليل حتى لا يكون تعبه باطلاً، واهتمامه فارغاً] (في الكهنوت ٣:٥).

ويقول أنبا إشعياء الإسقيطي (٣٣٧-٤٤٧م) في تعليمه للمبتدئين:

[إذا سألك شيخ عن أفكارك فاكشفها له بصراحة متى تأكَّدت أن له أمانة، ويحفظ كلامك. ولا تنظر إلى كبر السِّن، بل اعتمد على من له علم وعمل وتجربة ومعرفة روحانيَّة، لئلا يزيدك سقماً بدلاً من أن يهبك شفاءً].

ويؤكِّد القدِّيس يوحنا كاسيان ما سبق أن قاله أنبا إشعياء الإسقيطي فيقول:

[إن أنبا موسي أوصانا بألاَّ نكتم أفكارنا، بل نكشفها لمشائخ روحانيين لهم معرفة وتمييز. وليس لمن طال عمره وشاب شعره. لأن كثيرين قصدوا أهل كبر السِّن، وكشفوا

لهم عن أفكارهم، وحيث أنه لم يكن عندهم معرفة، فعوض العلاج طرحوهم في اليأس].

ومن رسالة الأب صفرونيوس[٣٢] إلى تلميذه تادرس:

[أيها الأب المحبوب، بحكمة استمع واقبل كل من يقول إنه أخطأ. ولا تُرغم أحداً على الاعتراف، بل علِّمه المحبَّة والبذل. أمسك بيد كل معترف وانقله من عبوديَّة الخوف إلى حريَّة المحبَّة بالتَّعليم. سلِّمه شريعة الإفراز لكي يكون تلميذاً طاهراً من وسواس الخوف، ومن رعب جهنم، لأن رُعب الإنسان لا يقرِّبه من الله، ذاك الذي اقترب منَّا وصار كواحد مثلنا في كل شئ ما خلا الخطيئة][٣٣].

ولقد صار من التَّقليد المسلَّم به في الكنيسة ألاَّ يُسند حق مباشرة تقبُّل الاعترافات لكل كاهن، وإنما لمن تتوافر فيه هذه الأهليَّة فقط، حيث يُصدر له أسقف الإيبارشيَّة تخويلاً بذلك. إذ ليس من الضَّروري أن كل كاهن يصبح أباً للاعتراف، وليس كبر السِّن وحده مؤهِّل لأب الاعتراف، بل الخبرة والدِّراية الرُّوحيَّة والمعرفة الدِّينيَّة.

ولكن يبدو أنه مع الوقت تخلى الأسقف عن مسؤوليَّة تعيين أب الاعتراف أو عدم تعيينه. حيث يرد في نهاية صلوات رسامة الكاهن مباشرة نصاً يقول فيه الأسقف للكاهن المرسوم جديداً:

"... فلا بأس أن تقبل الاعتراف إذا جاء إليك أحدٌ معترفاً

٣٢- من آباء الرَّهبنة في أديرة جبل الطير جهة المنيا، وعاش ما بين القرن السَّادس والقرن العاشر للميلاد.

٣٣- مائة مقولة عن التَّوبة وعمل الرُّوح القُدُس في القلب، رسالة الأب صفرونيوس إلى تلميذه ثيؤدوروس (تادرس)، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ٣١

بخطيئته **إن كنت مدرَّباً بهذه الصِّناعة ...**".

ومن ثمّ فقد انتقلت هذه المسؤوليَّة من الأسقف إلى الكاهن نفسه، ليقرِّر هو بنفسه ولنفسه إن كان مدرَّباً بهذه الصِّناعة أم لا. إذ كيف يكون القس المرسوم حديثاً مدرَّباً بهذه الصِّناعة وهو لم يختبرها بعد. ولربما أن النَّص السَّابق ذكره لم يكن يُقال عقب مراسيم رسامة الكاهن مباشرة، بل بعد فترة كافية من رسامته. ولم أعثر حتى الآن على ما يثبت أن النَّص اللّيتورجي السَّابق ذكره لا يتعدى أربعة أو خمسة قرون سابقة على الأكثر.

ويذكر ابن العسَّال في القرن الثّالث عشر الميلادي عن شروط أب الاعتراف ما يلي:

-أن يكون كاهناً.

- أن يأمره بطريركه أو أسقفه بقبول الاعتراف.

- أن يكون له نشاط وقدرة على الصَّوم عمن يقبل اعترافاتهم، وطلب الاستغفار عنهم ليلاً ونهاراً، وفي كل قدَّاس.

- أن يكون كامل الخدمة في طب النُّفوس، وحفظ صحتها، ومعالجة المرضى بحسب طبيعة أبدانها واختلاف أحوالها مع مراعاة عوائد أربابها وملكاتهم، وما يطرأ عليهم من تجديد وتغيير.

- أن يطبِّب مريضه مجاناً.

- ألاّ يحابي من يطبِّبه، ولا يستحي منه.

أما الشَّرط الأساسي والجوهري الذي لم يذكره ابن العسَّال في شروط أب الاعتراف فهو كتمان سرّ المعترف، وعدم البوح بما سمعه منه تحت أي ظرف من الظُّروف. ومن التَّقاليد المستقرَّة في الكنيسة أن الكاهن الذي يبوح بأي سرّ من أسرار أحد المعترفين عنده، يقع تحت

طائلة العقوبة الكنسيَّة التي يمكن أن تصل إلى أقصى أنواع العقوبات الكنسيَّة بحسب ما يرى أسقف الإيبارشيَّة التي يتبعها الأب الكاهن.

ولقد قنَّنت الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة هذا الأمر في القانون الرَّابع من قوانين مجمع الزَّعفران الذي عُقد سنة ١١٥٦م، بأن الكاهن الذي يكشف سرّ المعترف سواء في حياته أو بعد موته يجرَّد من درجته الكهنوتيَّة، ويصير غريباً عن المسيحيَّة[٣٤].

والخلاصة هي أن أب الاعتراف هو كاهن جاهد حسناً، واختبر الإيمان عملياً، أي له خبرة حياتيَّة مع المسيح. وتشهد له أعماله التقويَّة، لا كلماته أو قوَّة حجَّته. يقيمه الأب الأسقف طبيباً للنُّفوس، ويأتمنه على أسرار التَّائبين المعترفين.

اسمع قارئي العزيز بماذا توصي الكنيسة الكاهن بعد رسامته:

"... ويجب أن تتَّخذ لك قبل ذلك أباً وشيخاً خبيراً بالمعالجة، مشهوراً بالنَّجاح، حتى يعلِّمك أن تضع الدَّواء والمرهم بما يلائم الوجع والجراح. كي لا تضع دواء العين على الرِّجل فلا ينتفع بذلك. وتتشدَّد على العضو التُّرابي المزمن فيصير هالكاً.

ولتسأل عن السِّن والعادة والموضع والزَّمان والطَّبع والمكان والإمكان والمزاج والتَّحصُّن، معتمداً في ذلك الرَّأفة على بنيك والتَّحنُّن. ولاطف كلاً مما ذكرناه بما يلائمه من الدَّواء حتى يعود العليل من مرضه إلى حالة الصحَّة والشفاء.

لتكن مركباً روحياً يحمل البركات إلى ميناء الخلاص. ومعلِّماً روحانياً نورانياً ترفع المتعلِّمين إلى درجات التَّكريس.

٣٤- المطران سويرس زكا عيواص، والأب الرَّبان اسحق ساكا، مرجع سابق، ص ١٢٤

لتستحق بهذه الحالة الأجر المتضاعف، ويسبغ الرَّب عليك الخير السَّمائي المترادف، بشفاعة والدة الإله العذراء الطّاهرة، والشُّهداء، والقدِّيسين. آمين".

الأب الروحي

الأب الروحي في التَّقليد الأرثوذكسي لا يلزم بالضَّرورة أن يكون متقدِّماً في السِّن، لكنه حكيم في خبرته بالحق الإلهي، ومبارَك بنعمة الأبوَّة الرُّوحيَّة، ذا موهبة في قيادة النُّفوس في طريق الخلاص. فما يقدِّمه لأولاده الرُّوحيِّين ليس في الأصل توجيهات أخلاقيَّة أو سلوكيَّات اجتماعيَّة، لكن ارتباط شخصي بالرَّب يسوع المسيح.

الأب الرُّوحي هو من يمتلئ قلبه بالسَّلام، وعنده يجد الألوف خلاصهم. وهو من أعطاه الرُّوح القُدُس موهبة التَّمييز والإفراز، والتي تمكّنه من معرفة أسرار قلوب النَّاس، كثمرة لصلاته وإنكاره لذاته. فهو يملك عطيَّة الشِّفاء الرُّوحي، أي القدرة على تجديد أرواح الآخرين، وإنعاشهم وإنهاضهم، وربما يتعدى الأمر أيضاً إلى شفاء أجسادهم.

هذا الشِّفاء الرُّوحي الذي يقدِّمه الأب لأولاده الرُّوحيِّين ليس من خلال نصائحه فقط، بل أيضاً من خلال صمته، وحضوره الشَّخصي، وصلاته الشَّفاعيَّة.

بصلاته يؤلّف بين قلوب أبنائه، يقبل أفراحهم وأطراحهم كما لو كانت لنفسه، ويحمل على عاتقه عبء آلامهم وهمومهم.

الأب الرُّوحي هو شخصيَّة نبويَّة، لا تعيَّن بوسائل رسميَّة، ولا بأي

سلطان فائق. ولكن الرُّوح القُدُس يتكلَّم مباشرة في قلـــوب الكـــثيرين، ويدفعها أن تحدِّد أن هذا أو ذاك الشَّخص هو مباركٌ من الـــرَّب بنعمـــة وقيادة نفوس الآخرين وشفائها.

وإن العلاقة بين الابن وأبيه الرُّوحي هي على قدر كبير من التَّنوُّع. فالبعض يزور الأب الرُّوحي ربما مرَّة أو مـــرَّتين في كـــل عمـــره وفي اللَّحظات المصيريَّة من حياته، بينما البعض الآخر في معايشة دائمة معه. وليس هناك من قوانين يمكن أن تزكي وضعاً على آخر(٣٥).

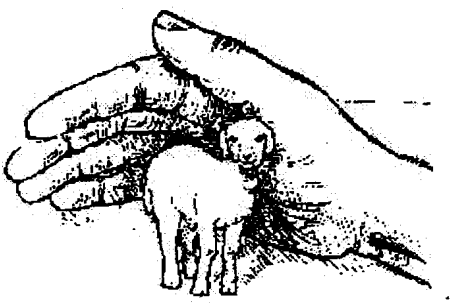

35- Kallistos ware, *The Orthodox way*, London, 1981, p. 126.

الفَصل الثَّاني

طقس سرّ التَّوبة والاعتراف

تمهيد

في هذا الفَصلِ نتحدَّث عن الأصول الأولى لطقس التَّوبة والاعتراف في العهد القديم. ثمّ نلقي نظرة سريعة عن طقس الاعتراف بالخطايا في الكنائس الشَّرقيَّة.

بين ذبيحة المسيح على الصَّليب وذبائح العهد القديم

تستمد طقوس سرّ التَّوبة والاعتراف في العهد الجديد أصولها الأولى من طقوس توبة الخاطئ في العهد الأوَّل، لكن مع فروق ظاهرة نأتي على شرحها في الحديث التَّالي. ونركّز على طقس ذبيحتي الخطيئة والإثم، كما يشرحها سفر اللاويين في الإصحاحين الرَّابع والخامس.

فذبيحة الخطيئة كانت تقدَّم عن أي خطيئة يخطئها الإنسان سهواً في أي شئ من جميع مناهي الرَّب التي لا ينبغي فعلها. أما ذبيحة الإثم فهي الذَّبيحة التي تُقدَّم عن الخطيئة التي يخطئها الإنسان سهواً ضد أقداس الرَّب أي بيته المقدَّس، أو ضد أخيه الإنسان، أو إذا تنجَّس إنسان بنجاسة خفيت عليه، ثمّ علم بالأمر فيما بعد، ومن ثمّ فهو مذنب، ويحتاج إلى تقديم هذا النَّوع من الذبائح، أي ذبيحة الإثم.

إذاً فذبيحة الخطيئة يقدِّمها الخاطئ الذي يخطئ في حق الله مباشرة، أو إذا خالف وصيَّة من وصاياه. أمَّا ذبيحة الإثم فيقدمها الخاطئ الذي يخطئ في حق بيت الرَّب ومقدَّساته، أو إن أخطأ خطايا سلوكيَّة ضد أي إنسان آخر.

وفي كل هذه الخطايا، تركّز الوصيَّة على أن الخطيئة التي يقترفها الإنسان هي عن طريق السَّهو، وليست عمداً.

أمَّا طقس المغفرة للخاطئ فكان يتلخَّص في أن الخاطئ:

- يقدِّم ذبيحة إلى باب خيمة الاجتماع أمام الرَّب.
- يضع يده على رأس الذَّبيحة.
- يقر بما أخطأ به.
- تُذبح الذَّبيحة أمام الرَّب بواسطة الكاهن.
- يأخذ الكاهن من دم الذَّبيحة، ويدخل به إلى خيمة الاجتماع، وينضح من الدَّم على حجاب القُدس، وعلى قرون مذبح البُخور. ويراق باقي الدَّم أسفل مذبح المحرقة.
- تُحرق كل الذَّبيحة خارج المحلّة.
- فيكفِّر الكاهن عن خطيئة الخاطئ، فيُصفح عنه.

والآن وبعد أن جاء المسيح له المجد، وقدَّم دمه الأزلي لأبيه فداء عنَّا على مذبح الصَّليب، ليطهِّر ضمائرنا وقلوبنا وحياتنا من أعمالنا الميتة لنخدم الله الحي، لم يعد مطلوباً من الخاطئ أن يبحث عن ذبيحة يقدِّمها عن خطاياه، لأن المسيح حمل كل خطايانا في جسده، وارتفع على الصَّليب كذبيحة خطيئة وذبيحة إثم عنَّا، مقدِّماً ذاته لأبيه ذبيحة دائمة حيَّة كل حين، فعلها لا يزول إلى الأبد.

فالرَّب صار ذبيحة خطيئة عنَّا كنبوة حزقيال النَّبي: «وفي يوم دخوله إلى القُدس إلى الدَّار الدَّاخليَّة ليخدم في القُدس، يقرِّب ذبيحته عن الخطيئة يقول السيِّد الرَّب» (حزقيال ٤٤:٢٧). وعن كون الرَّب قد صار ذبيحة إثم عنَّا تنبأ إشعياء النَّبي قائلاً: «أمَّا الرَّب فسُرَّ أن يسحقه بالحزن ... إن جعل نفسه ذبيحة إثم» (إشعياء ٥٣:١٠). وهكذا يجمل القدِّيس بولس

الرَّسول الأمر بقوله: «لأن فصحنا أيضاً المسيح، قد ذُبح لأجلنا» (١كورنثوس ٥:٧).

لقد كان تكرار تقديم الخاطئ ذبيحة في كل مرَّة يخطئ فيها، علامة عن عدم نفع هذه الذَّبيحة. وكانت هذه الذَّبائح المتكرِّرة غير قادرة البتَّة أن تنزع الخطيئة[١]. «لأن النَّاموس إذ له ظل الخيرات العتيدة، لا نفس صورة الأشياء، لا يقدر أبداً بنفس الذَّبائح كل سنة التي يقدِّمونها على الدَّوام أن يكمِّل الذين يتقدَّمون. وإلاَّ أفما زالت تُقدَّم ... لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا» (عبرانيين ١٠:١، ٤).

ولم تكن ذبائح العهد القديم الكثيرة قادرة على إراحة ضمير الخاطئ، وهو ما يشرحه سفر العبرانيين عندما يقول: «إن الخادمين[٢] وهم مطهَّرون مرَّة، (لا يجب أن) يكون لهم أيضاً ضمير خطايا، ولكن (تقديم الذَّبائح) فيها كل سنة ذِكر خطايا» (عبرانيين ١٠:٢، ٣).

أمَّا السؤال الآن فهو، هل صار فعل ذبيحة الصَّليب بديلاً عن فعل ذبائح العهد القديم فحسب؟ حاشا، لأن كل ذبائح العهد القديم على اختلافها لم تكن سوى رمزٌ لذبيحة الصَّليب. ذلك لأن دم ذبيحة العهد القديم كان يقدِّس ويطهِّر الجسد فقط، لكن لا يقدر أن يطهِّر ضمير الخاطئ وقلبه ونيَّاته وفكره. أمَّا دم ذبيحة العهد الجديد، ذبيحة المسيح، فهو يغسل ويطهِّر القلب والنَّفس والجسد والفكر وكل الإنسان داخلاً وخارجاً. فشكراً للرَّب الذي بدمه نزع من أعماقنا ضميراً مثقلاً

١- عبرانيين ١٠:١١

٢- كلمة "الخادمين" جاءت في اليونانيَّة τοὺς λατρεύοντας أي servants أو worshipers أي "عابدون أو عابدين". وكل التَّرجمات الإنجليزيَّة للعهد الجديد استخدمت المعنى الثَّاني فذكرت "إن العابدين ..."، أي الشَّعب الذي يقدِّم ذبيحة كنوع من العبادة لله.

بالخطيئة، ونفساً منكسرة تحت وطأة شهوات العالم وأهوائه.

فحين يتذلّل الخاطئ أمام الله بصوم وبكاء وإحناء رأس، لا يكون ذلك مدعاة لغفران خطاياه، لأن غفران الخطيئة لا يكون إلاّ بدم المسيح المسفوك عنّا على الصّليب. أما الصّوم والتّذلّل فتلتجئ إليه النّفس عندما تخطئ لتعبّر عن احتياجها للمسيح، وتعطّشها للخلاص والنّجاة به. والقلب المنكسر والمتواضع لا يرذله الله.

فشكراً للمسيح الإله الذي أبطل الخطيئة بذبيحة نفسه، إذ بعدما قدّم عن الخطايا ذبيحة واحدة، جلس إلى الأبد عن يمين الله. إذاً نحن أيها الإخوة مقدّسون بتقديم جسد يسوع مرّة واحدة، لأنه بقربان واحد قد أكمل إلى الأبد المقدّسين، كقول الإنجيل المقدّس.

كان على الخاطئ في العهد الأوّل عندما يخطئ أن يذهب ليبحث عن ذبيحة يقدّمها أمام الرّب عن خطيئته. أمّا في العهد الجديد فقد بادر المسيح وقدّم نفسه ذبيحة عنّا قبل أن ندرك احتياجنا لذبيحته، لأنه ونحن بعد خطاة مات المسيح لأجلنا[٣].

وهكذا لم يعد على الخاطئ إلاّ الالتجاء للاحتماء بدم المسيح، مؤمناً من كل قلبه أن دم المسيح يطهّره من كل خطيئة. ولا يبقى عليه سوى الاحتماء بالكنيسة، والاقتراب إلى المذبح بذات الإيمان عينه ليتناول هذا الدّم الكريم. لأن دم المسيح قائم دائماً على المذبح يطهّر ويغفر ويشفي كل الخطاة التّائبين المتقدّمين إليه بالإيمان. فيا لمحبّة الله التي لا يعبّر عنها، ويا لحنو المسيح الذي جُرح لأجل معاصينا، وتوجّع لأجل آثامنا، ويشفع كل حين فينا أمام الآب. فصار الدّيّان هو نفسه الشّفيع. ديّاناً للخطاة

٣- رومية ٥:٨

المرتبكين في أعمال برِّهم، وشفيعاً عن الخطاة الرَّاجين رحمته.

فإن التجأنا إلى ذواتنا لنتطهَّر من خطايانا بجهاداتنا، نضيف إلى خطايانا خطيئة برِّنا الذّاتي. فيتفاقم أمر شفائنا ويتعوَّق، حتى نعترف أنه ليس بأحد غيره الخلاص. إن أهميَّة جهاداتنا هي لكونها تعبير حب، أكثر من كونها وسيلة خلاص ونجاة.

فأي مؤمن يحيا بحسب الوصايا، ويعمل فعلاً روحياً معيناً، فليعتقد أنه قد سبق ونال قوَّة لهذه الفعل، لأنه قد نال في المعموديَّة نعمة الرُّوح القُدُس أصل كل صلاح وكل فضيلة. فلا يظن أي إنسان فاضل أنه يمكنه إتيان أي فعل صالح بقدراته الخاصة وحدها لأن «الإنسان الصَّالح من الكنز الصَّالح في القلب يخرج الصَّالحات» (مت ١٢:٣٥)؛ ليس من ذاته بل من الكنز الذي يعني به الرُّوح القُدُس المخفي في قلوب المؤمنين. وهذا هو قول الإنجيل المقدَّس: «لأن الله هو العامل فيكم، أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرَّة (الصَّالحة)» (فيلبي ٢:١٣). فالرَّسول يقصد بكلمة "المسرَّة الصَّالحة" أي أن بلوغ المسرَّة الصَّالحة بالفضائل يعتمد على حريَّة إرادتنا، أما ممارستها أو اقتلاع جذور الخطايا بدون الله فهذا أمر مستحيل. والرَّب نفسه يقول: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يوحنا ١٥:٥)[٤].

إذاً فقد صار طريق التَّوبة طريقاً سرياً إلى الله، وهروباً إليه لا منه كقولنا في صلوات الأجبية: "إذا ما تفطَّنتُ في كثرة أعمالي الرَّديئة، ويأتي على قلبي فكر تلك الدَّينونة الرَّهيبة، تأخذني رعدة، فأهرب إليك يا الله محب البشر. فلا تصرف وجهك عني متضرِّعاً إليك يا من أنت وحدك بلا خطيئة".

٤- من أقوال القدِّيس مرقس النَّاسك. انظر: مجلَّة مرقس، أكتوبر ٢٠٠٥م، ص ١٥

سرّ التّوبة والاعتراف في العهد الجديد

من البنود السّابق ذكرها في التّمهيد الفائت، يتبقى لنا من طقس التّوبة - وكما يجب أن نمارسه في العهد الجديد - البنود التّالية.

أولاً: الوقوف أمام الله.
ثانياً: وجود الكاهن كشاهد بين طرفين.
ثالثاً: الإقرار والاعتراف بالخطيئة أمام الله في حضور الكاهن.
رابعاً: التّحليل، فيُصفح عن الخاطئ.

أولاً: الوقوف أمام الله

إن أي خطيئة مهما كانت بسيطة هي ضد الله، لأن ذبيحة المسيح الواحدة قد حوت فيها كل ذبائح العهد الأوّل، بما فيها ذبيحتي الخطيئة والإثم. ومن هنا لو جرح إنسان مشاعر أخيه الإنسان، فإنه بذلك يخطئ إلى الله، وهذا هو تعبير الإنجيل نفسه: «وهكذا إذ تخطئون إلى الإخوة وتجرحون ضميرهم الضّعيف، تخطئون إلى المسيح» (١كورنثوس ٨:١٢).

لذلك يقول داود النّبي: «ابتدئوا للرّب بالاعتراف» (مزمور ١٤٦:٧). هنا يقف الخاطئ التّائب أمام الرّب في مخدعه وليس من رقيب قائلاً: «اعترف لك بخطيئتي، ولا أكتم إثمي. قلت أعترف للرّب بذنبي، وأنت رفعت آثام خطيئتي» (مزمور ٣٢:٥). أمّا ضمان وصيّة الإنجيل عن هذا الاعتراف فهو «إن اعترفنا بخطايانا، فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا، ويطهّرنا من كل إثم» (١يوحنا ١:٩). وهو الرّب نفسه الذي وعد قائلاً: «الذي يُقبل إليّ لا أخرجه خارجاً» (يوحنا ٦:٣٧).

إن الخلاص من الخطيئة هو في الإيمان باسم الرّب، والإيقان بقوّته ومعونته، والرّجاء الذي لا يخيب أبداً في رحمته. «لأنه ليس اسم آخر

تحت السَّماء قد أعطي بين النَّاس به ينبغي أن نخلص» (أعمال ١٢:٤).

يقول مار أفرآم السِّرياني (٣٠٦-٣٧٣م):

[انظر إلى النَّهار ما أسرع ذهابه، فاحرص على أن تذهب معه خطاياك. لا تغمض عينيك للرُّقاد حتى تفتح قلبك للصَّلاة. بالعشاء ابتعد عن خطاياك، وبالغداة أظهر خلاصك].

التَّوبة هي إدراك الله والتعرُّف على مشيئته، وهذا لا يكون إلاَّ بالصَّلاة. فيستحيل أن يبدأ الإنسان بالصَّلاة المنسحقة، ويتغيَّب الله عن الإنسان قط. لأن محبَّة الله لا تبالي بخطايا الإنسان التَّائب، ولا تجزع من نجاساته أو شكوكه، إذ لديها قوَّة غفران وتطهير لا نهائيَّة.

وإنما قبل كل شئ، الصَّلاة هي دعوة إلهيَّة، ونحن فقط نستجيب إليها. هي بمثابة توبة حقيقيَّة إلى الله، لأنها اتصال برحمته الغافرة لأشد الذُّنوب وأكثرها مرارة. والله دائماً قابل التَّائبين إليه، لأنه لا يشاء موت الخاطئ، بل يشاء حياته ورجوعه إليه.

التَّوبة الحقيقيَّة هي اقتناء الوعي الكامل بحضور الله، وهذا يكون بتواتر الصَّلاة. وهكذا يتطهَّر الضَّمير أولاً بأوَّل، وتحل بهجة المغفرة والخلاص عوض حزن الخطيئة ووجعها. فالصَّلاة شفاء للنَّفس.

صلاة التَّوبة والاستغفار لا تفتر عن طلب الرَّحمة والغفران من ينبوع لا ينضب للرَّحمة والغفران. فليس المهم كم مرَّة أخطأت؟ بل كم مرَّة طلبت الغفران في كل مرَّة تخطئ فيها؟ الله لا يحاسبني على عدد مرَّات خطاياي، بل على عدم طلبتي لغفرانها. «إن لطف الله إنما يقتادك إلى التَّوبة» (رومية ٤:٢).

الإنسان الذي يحب الله لا يخجل من كثرة خطاياه، لأن الله المحب لا يبخل بكثرة رحمته، لأنه كثير الرَّحمة جداً ورءوف. وإن رحمة الرَّب وغفرانه للإنسان هي بقدر ثقة الإنسان في هذه الرَّحمة واتكاله عليها. «فلتكن رحمتك علينا، بحسب اتكالنا عليك» (مزمور ٣٣:٢٢).

يقول مار أفرآم السِّرياني (٣٠٦-٣٧٣م) في صلاته:

[اشفني يارب فأبرأ، أيها الطَّبيب المتحنِّن ...

أتوسَّل إلى صلاحك، اشف جراحات نفسي ...

وماذا أقول الآن، فإن صلاتي ضعيفة، وآلامي قويَّة وعظيمة. وخطاياي وأمراضي تؤلمني. فيا من فتَّحت عيني الأعمى، افتح عيني ذهني لكيما أتأمَّل كل حين جمالك ...

ويا من وضعت لجماً للبحر بكلمة أمرك، ضع على قلبي لجماً بنعمتك، لكي لا يجنح يميناً أو يساراً عن جمالك.

ويا من أعطيت ماءً في القفر للشَّعب الذي لا يذعن، أعط نفسي تخشعاً وعيني دموعاً، فأبكي ليلاً ونهاراً على أيام حياتي ...

أعطني من زرع قداستك حتى أقدِّم ثماراً مملوءة خشوعاً، وأشكر صارخاً: المجد لك أيها المعطي.

اسمع يارب صلاة عبدك بشفاعة كل قدِّيسيك، يا من لم يزل مباركاً إلى الدَّهر. آمين].

إن صلاة الإنسان إلى الله، وإن كانت تستوجب وقفة في مخدع الصَّلاة معه مرَّتين في اليوم في الصَّباح والمساء، إلاَّ أنها يمكن أن ترقى إلى عشرات المرَّات أثناء النَّهار، وفي وسط العمل، برفع القلب إلى الله للحظات قليلة بين الحين والحين، بقلب يلهج ولسان صامت. لطلب

معونة سريعة على موقف عارض مفاجئ أو طلب صفح ومغفرة على تصرُّف خاطئ. وهكذا تظل الصِّلة مستمرة مع الرَّب طيلة اليَوم. وهو تدريب شيِّق حالما يتذوَّقه الإنسان، ويكتشف فيه أمانة الرَّب الذي يستجيب للتَّو واللّحظة، إلاّ ويتحوَّل فيه إلى سرّ حياة ملؤها العذوبة حتى في وسط أشد تيارات الحياة صعوبة.

طلب الرَّحمة والغفران من الرَّب لا يتطلّب طقوساً، وزماناً ومكاناً معينين، بل رفع لحظي للقلب في أي مكان وفي أي زمان. وعلى قدر ما يكون رفع القلب أميناً مخلصاً، على قدر ما يمتلئ القلب هدوءًا وفرحاً وسلاماً، عوض خطيئة دخلت حياة الإنسان عبر حواسه، أو كلماته، أو تصرُّفاته، فأقلقت سلامه وفرحه. ذلك السَّلام والفرح اللّذان هما أعظم عطيَّة وهبها المسيح لأولاده الأحباء، وكلُّكم أحباؤه.

وهكذا يظل الدَّاخل نقياً بهياً لا تتسرَّب إليه خطيئة خلسة مهما كانت بسيطة صغيرة، لتختبئ هناك في أعماق النَّفس، وتؤرق راحة الإنسان وضميره. والإنسان من كثرة مشاغله التي تبدأ مع أوَّل نهاره ولا تنتهي إلاّ في آخره، لا يحس بتراكم تلك الخطايا البسيطة الصَّغيرة في أعماقه، فيخبو رويداً رويداً النُّور الدَّاخلي الذي يكشف عن عيون القلب الدَّاخليَّة مسالك الخطيئة، وتلوُّن أشكالها. «خذوا لنا الثّعالب، الثّعالب الصِّغار المفسدة الكروم، لأن كرومنا قد أقعلت[٥]» (نشيد الأنشاد ٢:١٥). وأنت تعلم يا حبيبي أن "خميرة صغيرة تخمِّر العجين كله" (غلاطية ٥:٩).

نحن في أشد الحاجة إلى من يصلّي من أجلنا بحرارة الرُّوح ليكشف لنا الرُّوح خطايانا المخبوءة والمتخلّفة في قلوبنا، حتى تتحرَّك ضمائرنا

٥- أي: أزهرت. أي: شق البرعم غلافه ليُظهر زهره. أي: بدأ الزَّهر يتفتَّح.

بالنَّدم والتَّوبة، ونتنقى من ضعفاتنا أكثر فأكثر، لنكون أهلاً لحلول قـوَّة الله فينا.

صلوات الآخرين من أجلنا حينما تكون موجَّهة إلينا توجيهاً سليماً قوياً، تكون مبكِّتة جداً ومنبِّهة، كسهام مـنيرة ملتهبـة، تـنير ظلمـة ضمائرنا، وتلهب قلوبنا لطلب التَّوبة والنَّجاة.

وفي المقابل، حينما نهتم نحن بالآخرين ونصلِّي من أجلهم، يهتم الله بنا. وحينما نقصر السُّؤال والتَّوسُّل في صلاتنا من أجل الآخرين، يعطينا الله ما نحتاجه نحن أيضاً. «صلُّوا بعضكم لأجل بعض لكـي تشـفوا» (يعقوب ١٦:٥). فبالكيل الذي به نكيل يُكال لنا كقول الـرَّب. فـإن تقدُّمنا في الصَّلاة هو في الحقيقة هبة ممنوحة لنا من الله لحساب إخوتنـا الضُّعفاء والمتألمين والمحتاجين. ومن الطَّبيعي حينما يـدخل الإنسـان في شركة روحيَّة مع المسيح في الصَّلاة يطلب بلهفة في صلاته مـن أجـل الخطاة والمظلومين والضُّعفاء والفقراء، مهتماً في صـلاته باحتياجـات المعوزين، حتى ينسى ذاته في صلاته، ولا يعود يهتم بما لنفسه، بـل بمـا للآخرين. هنا معنى صلاة التَّشفُّع، وهنا مفهـوم شـفاعة القدِّيسـين. «فليرض كل واحد منَّا قريبه للخير لأجل البنيان» (رومية ٢:١٥). وأفضل خير نقدمه للقريب هو صلاتنا لأجله.

من هنا يتَّضح لنا أهميَّة الصَّلاة الجمهوريَّة وقوَّتها، حينمـا تـأتلف الكنيسة كلها حول المذبح بحضرة المسيح. الضَّعيف إلى جوار القـوي، ويشترك الكل معاً في الصَّلاة إلى الله قائلين "يارب ارحـم". عندئـذ تنسكب الرَّحمة على الجميع بلا تفريق. فيخرج الكل مبرَّراً. ومن أجـل ذلك صارت لصلاة الكنيسة مجتمعة قوَّة جبَّارة لا تقوى مئات الصَّلوات الفرديَّة أن ترقى إلى قوَّة انسكاب النِّعمة الكامنة فيها.

ثانياً: وجود الكاهن كشاهد بين طرفين

«وقال لهم: هكذا هو مكتوب، وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألّم ويقوم من الأموات في اليوم الثّالث. وأن يُكرَز باسمه بالتّوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدئاً من أورشليم. **وأنتم شهود لذلك**» (لوقا ٢٤:٤٦، ٤٧).

فمنذ القديم كان منوطاً بالكاهن أن يقف على خطايا شعبه، ليصلي عنهم، ويكفّر عن أخطائهم. وبناء عن تصريح الخاطئ بخطيئته، كان الكاهن يفرض عليه نوع الذّبيحة التي يقرّبها للرّب ليغفر له الله[٦].

وفي ذلك يقول الرّابي ابن عزرا: "الاعتراف لازم، وأنهم عندما يقدّمون الذّبيحة، إذا لم يتوجّعوا ويعترفوا اعترافاً مرثياً موضحاً الخطايا، لا تكون للذّبائح قوّة وفائدة لهم".

وجاء في التّلمود: "إنه يظهر من التّقليد أن الخاطئ يلزمه أن يوضّح في الاعتراف جميع أعماله".

وبحسب رأي العالم هامان A. Hamman كان الاعتراف بالخطايا، حسب التّقليد اليهودي، لا يعني تعداد كل الخطايا المقترفة، بل إقرارٌ من قِبَل الإنسان بأنه خاطئ[٧].

لقد اعترف عاخان بن كرمي بخطيئته للرّب على يد يشوع بن نون[٨]. واعترف شاول الملك على يد صموئيل النّبي وقال له: «أخطأت

٦- انظر: لاويين ٥:٤-١٠ ، عدد ٥:٦، ٧

7. A. Hamman, *Baptême et Confirmation*, Paris, 1969, p. 12.

٨- يشوع ٧:١٩، ٢٠

إذ تعديتُ أمر الرَّب، فاغفر الآن خطيئتي، وارجع معي فأسجد للـــرَّب» (١صموئيل ١٥:٢٣، ٢٥). واعترف داود الملك بخطيئته على يد ناثان النَّبي إذ قال له: «قد أخطأتُ إلى الرَّب، فقال ناثان لداود: إن الرَّب أيضاً قد نقل خطيئتك عنك، فلا تموت أنت» (٢صموئيل ١٢:٧-١٣).

أمَّا عن يوحنا المعمدان الكاهن بن الكاهن، فقـــد «خـــرج إليـــه أورشليم وكل اليهوديَّة وجميع الكورة المحيطة بالأردن، واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم» (متى ٣:٥).

وإن رجوع القدِّيس بولس الرَّسول إلى الإيمان الذي كان يضطهده قبلاً، كان عن طريق حنانيا أسقف دمشق، برغم أن الرَّب كان قد ظهر له في الطريق، وكان ممكناً أن يخبره بكل ما يريده منه، ولكنه قاله لـــه: «قم وادخل المدينة، فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل» (أعمال ٩:٦).

وكرنيليوس قائد المائة، الرَّجل البار الذي ظهر له ملاك الرَّب وأخبره أن صلواته وصدقاته صعدت تذكاراً أمام الرَّب، أخبره المـــلاك بقولـــه: «أرسل إلى يافا رجالاً واستدع سمعان الملقَّب بطرس ... هو يقول لـــك ماذا ينبغي أن تفعل» (أعمال ١٠:٦).

ولقد منح الرَّب سلطاناً للرُّسُل أن يغفروا ويحلُّوا خطايـــا الخطـــاة الرَّاجعين إلى الرَّب، ويربطوا خطايا الخطاة المعاندين له، كقـــول الـــرَّب لبطرس الرَّسول: «وأعطيك مفاتيح ملكوت السَّموات، فكل ما تربطـــه على الأرض يكون مربوطاً في السَّموات، وكل ما تحلـــه علـــى الأرض يكون محلولاً في السَّموات» (متى ١٦:١٩). وقوله للرُّســـل القدِّيســـين: «الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السَّماء، وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السَّماء» (متى ١٨:١٨).

فهذا السُّلطان استخدمه القدِّيس بطرس الرَّسول مع حنانيا وسفيرة اللّذين كذبا على الرُّوح القُدُس[٩]. واستخدمه أيضاً مع سيمون السَّاحر[١٠]. كما استخدمه القدِّيس بولس الرَّسول مع خاطئ كورنثوس[١١]. واستخدمه أيضاً مع عليم السَّاحر المُسمى بار يشوع[١٢]. ولكن في كل ذلك لم يكن استخدام الرُّسل لهذا السُّلطان من داخل خدمة ليتورجيَّة كما تدل الشَّواهد السَّابق ذكرها. إلاّ أنه هو نفس السُّلطان الذي انتقل من الآباء الرُّسُل إلى الآباء الأساقفة في الكنيسة، ومن الأساقفة انتقل بإذنهم إلى الآباء الكهنة المساعدين لهم في الخدمة، لتتميم سلطان الحل والرَّبط من داخل الخدمة اللّيتورجيَّة نفسها.

قد أعطى السيِّد المسيح للكنيسة سلطان غفران الخطايا لتقود أولادها بهذا السُّلطان الممنوح لها من الله إلى أبيهم السَّماوي، لكن بضمان واحد يحمي هذا السُّلطان من الشَّطط، ولا يجعله أداة في يد الكاهن لتحقيق غايات شخصيَّة أو أهواء ذاتيَّة لا تمجِّد الله ولا تشهد لنعمته، وبعيدة عن الهدف الواحد والوحيد وهو خلاص النُّفوس وشفائها. هذا الضَّمان هو في قول الرَّب قبل أن يمنح هذا السُّلطان مباشرة: «اقبلوا الرُّوح القُدُس». فكل كاهن قَبِل عمل الرُّوح القُدُس فيه، يغفر خطايا الخاطئ ليس بشخصه بل بالرُّوح القُدُس الذي يمنحه هذا السُّلطان. والرُّوح القُدُس لا يمكن أن يعمل عملاً لا يمجِّد المسيح، ولا يمكن أن يعمل عملاً لا يشهد للمسيح، ولا يمكن أن يعمل عملاً يسبِّب تشويشاً وعثرة للنَّفس. بل إن عمل الرُّوح القُدُس مملوءٌ سلاماً وفرحاً وبنياناً وخلاصاً، وفي ذات الوقت توبيخاً وتبكيتاً وتهذيباً وتشجيعاً.

٩- أعمال ٥:٥، ٦، ٩، ١٠
١٠- أعمال ٨:١٨-٢٣
١١- ١كورنثوس ٥:١-٥
١٢- أعمال ١٣:١٠

إذاً كيف يمكن لكاهن ليست له شركة فعليَّة مع الرُّوح القُدُس، وحياة صلاة داخليَّة حقيقيَّة أن يمارس هذا السُّلطان؟ ومن أجل هذا كانت الكنيسة واعية عندما لم تكن تسمح لأي كاهن أن يتقبَّل اعترافات الشَّعب إلاَّ بعد فترة يحدِّدها الأسقف بنفسه، يسمح بعدها للكاهن الذي يراه أهلاً لذلك أن يتقبَّل اعترافات التَّائبين. وحتى إذا لم يكن الأمر كذلك فالشَّعب لديه من الحاسة الرُّوحيَّة ما يجعله ينجذب نحو الكاهن الذي يحمل روح القسِّيسيَّة وليس شكلها فقط.

لقد تقبَّل الكاهن من الأسقف نفخة الرُّوح القُدُس يوم رسامته، ليمارس أسرار الكنيسة وطقوسها. أمَّا موهبة شفاء النُّفوس، فلم يفهمها آباء الكنيسة على أنها امتياز إلهي مكتسب، بل هي قوَّة يهبها الله بروحه لمن يريد، كأحد المواهب المتعدِّدة الأنواع التي يمنحها الرُّوح الواحد لبنيان الجماعة وعافيتها وسلامة أعضائها وشفائها.

ويقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) في كتابه "الكهنوت" عن الكهنة:

> [إن مثل هؤلاء المخلوقات (الكهنة) الذين يقيمون على الأرض، ويسرحون في هذا العالم، هم مدعوون لإتمام أسرار السَّماء. وقد نالوا سلطاناً لم يمنحه الله لا للملائكة، ولا لرؤساء الطَّغمات السَّمائيَّة. لأنه لم يقل لهؤلاء: مهما ربطتم على الأرض يكون مربوطاً في السَّماء. ومهما حللتم على الأرض يكون محلولاً في السَّماء].

إن عظماء هذا العالم يملكون سلطاناً على الآخرين، ولكن سلطانهم لا يتخطى حدود الجسد، والحياة التي هنا على الأرض. أمَّا هذا السُّلطان الذي يتحدَّث عنه ربُّنا يسوع المسيح فقد منحه للكهنة على أرواح

النّاس، بل يمتد صداه ورد فعله في السّماء. فما يقضي به الكاهن ههنا على الأرض، يختم عليه الله هناك في السّماء. والحُكم الذي يلفظه العبد هنا، يبرمه السيِّد هناك. ألم يعط الرَّب للكهنة جميع سلطات السّماء؟ ألم يقل لهم «من غفرتم خطاياه تُغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت؟» (يوحنا ٢٠:٢٢)، فأين هو السُّلطان الذي يفوق هذا السُّلطان؟. فأي سيرة إذاً يجب أن يكون عليها كاهن العهد الجديد؟.

وفي السُّطور التّالية سأشير في إيجاز إلى شكل الكنيسة المسيحيَّة النّاشئة وكيف ظهرت فيها الرُّتبة الكهنوتيَّة التي صار منوطاً بها قبول الاعتراف بالخطايا، وتميم خدمة سرّ الإفخارستيَّا.

فقد كان على الرُّسُل المتجوِّلين الذين تتحدَّث عنهم الدِّيداخي أن يتابعوا تجوالهم لتأسيس كنائس جديدة. فرسالتهم الأولى والأخيرة هي تأسيس جماعات مسيحيَّة جديدة وكنائس جديدة.

أمَّا عن خدمة الأنبياء في الجماعات المسيحيَّة المبكِّرة، فكانت في أساسها خدمة ليتورجيَّة بجانب خدمتهم النَّبويَّة. وكان هؤلاء الأنبياء يرأسون خدمة سرّ الإفخارستيَّا، ومن ثمّ فقد دُعوا بكل وضوح في الدِّيداخي "رؤساء كهنة ἀρχιερεῖς"، لذلك فهم يتقبَّلون الباكورات على منوال كهنة العهد القديم(١٣).

أمَّا خدمة التَّعليم والإرشاد فكان منوطاً بها المعلّمون διδάσκαλοι الذين صار دورهم مستقراً بين الجماعات المسيحية في حفظ التَّعليم وصونه من أي انحراف.

١٣- لتفصيلات أكثر يمكن الرُّجوع إلى كتاب: "الدِّيداخي أي تعليم الرُّسُل" للمؤلّف.

ومنذ أواخر القرن الأوّل الميلادي، وفي نفس زمن تأليف الدِّيداخي، اختفى دور الرُّسُل المتجوِّلين، وتضاءل أيضاً دور الأنبياء رويداً رويداً بين الجماعات المسيحيَّة، ومن ثمّ فقد نشأ وضع جديد حينما اختارت هذه الجماعات المبكِّرة من داخلها رؤساء عليها، فأقيم الأساقفة من أجل استمرار الخدمة اللّيتورجيَّة في يوم الرَّب. وأُسند إلى هؤلاء الرؤساء المحلِّيين قبول الاعتراف بالخطايا، إلى جانب الخدمة اللّيتورجيَّة.

ومع زمن الآباء الرَّسوليين عُرف المعلّمون في الجماعات المسيحيَّة باسم "آباء الكنيسة"، وصارت لهم مكانة فريدة في غضون القرنين الثّالث والرَّابع الميلاديين.

وإن اصطلاح ἐπίσκοπος καὶ διάκονος أي "الأسقف والشَّماس" الذي ورد في الدِّيداخي لم يكن له نفس المفهوم الذي صار معروفاً في القرن الثّاني الميلادي. أمَّا ظهور رتبة الكهنة أي القسوس πρεσβύτεροι بين الأساقفة والشَّمامسة فقد وردت في بعض رسائل القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥-١٠٧م)، وأيضاً في نص المراسيم الرَّسوليَّة (٧:٣١:١) في القرن الرَّابع الميلادي، وهو ما يدل على تطور لاحق لكنه سريع جداً في هذا الشَّأن[١٤].

وتخبرنا الدِّيداخي في الفصل الرَّابع عشر منها عن الخدمة اللّيتورجيَّة التي تُقام في يوم الرَّب أن "الاعتراف بالخطايا" كان يرافق دائماً "كسر الخبز والشُّكر". وهو ما سبق أن كرَّرته الدِّيداخي في الفصل الرَّابع

١٤- النُّصوص الآبائيَّة القديمة والقريبة من زمن أسفار العهد الجديد، مثل رسالة كليمندس الرُّوماني الأولى إلى كنيسة كورنثوس، وبعض أجزاء من رسائل القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي الشَّهيد، والتي هي قريبة العهد جداً من زمن تدوين الدِّيداخي، لم تذكر سوى الأساقفة والشَّمامسة.

منها، عندما تقول: "اعترف بزلاّتك في الكنيسة ولا تقرب صلاتك بضمير شرير" (١٤:٤). وهنا توضّح الدِّيداخي أن الاعتراف بالخطايا يجب أن يكون في الكنيسة. ويشير موقع الفعل اليوناني من الإعراب، والذي أوردته الدِّيداخي عن الاعتراف بالخطايا[١٥] أن هذا الاعتراف يكون قبل التّناول.

ولم يكن الاعتراف بالخطايا، بحسب الدِّيداخي، كافياً للتّناول من الأسرار المقدّسة، إذ أن نص الدِّيداخي يضع أمامنا بعض الوصايا التي لابد من تتميمها قبل التّقدُّم للتّناول؛ فيلزم أن يبتعد عن المشاركة في صلاة الجماعة كل من له ضمير شرير: "ولا تقرب صلاتك **بضمير شرير**" (فصل ١٤:٤). وأيضاً من له منازعة مع صاحبه يُفرَز ويُمنَع من الشَّركة: "لا يجتمع معكم من له منازعة مع صاحبه حتى يتصالحا، لئلا تتنجَّس ذبيحتكم" (فصل ١٤:٢). وفي ختام الصَّلوات الإفخارستيَّة: "من كان طاهراً فليتقدَّم ومن لم يكن كذلك فليتب" (فصل ١٠:٦).

وهذا يتوافق مع ما ذكره القدِّيس متى في بشارته (متى ٥:٢٣، ٢٤). «فإن قدَّمت قربانك على المذبح وهناك تذكّرت أن لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قربانك قدّام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك، وحينئذ تعال وقدم قربانك». ولكن يبقى هناك فرق بين نص الدِّيداخي ونص الإنجيل، فهذا الأخير يشير إلى نظام العبادة التي كانت في هيكل أورشليم، والتي انتقلت إلى وضع جديد لتطبَّق على اللّيتورجيَّة المسيحيَّة كما تشرح الدِّيداخي.

لقد حافظت الكنيسة المسيحيَّة منذ القدم على الاعتراف بالخطايا،

١٥- προσεξομολογησάμενοι = "بعد أن تكونوا قد اعترفتم". (اسم مفعول في زمن الماضي le participe aoriste).

فالقدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) يتحدَّث عن بعض النِّساء اللّواتي كن ساقطات في هرطقة الغنوسيِّين وكفرهم، لما رجعن إلى الكنيسة اعترفن بخطاياهن. وكيف أن أخريات لم يردن أن يدخلن في هذا الامتحان المقدَّس، فسقطن في اليأس[١٦].

لقد أسهب الآباء القدِّيسون في الحديث عن الاعتراف أمام الكاهن، وهو ما يخبرنا به القدِّيس كبريانوس الشهيد (+ ٢٥٨م) في رسالته العاشرة. وعند العلاّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) في حديثه عن المزمور (٥:٣٢)، وأيضاً في تفسيره لسفر اللاويين. وعند البابا أثناسيوس الرسولي (٣٢٨-٣٧٣م)، في حديثه ضد النواتيِّين. وعند القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) في قوانينه المختصرة، والجواب على السؤال رقم (٢٨٨). وعند القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) في الكهنوت. وعند القدِّيس كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) في حديثه عن لاكتانتيوس في التَّعاليم الإلهيَّة (٤:٣٠). وآخرون كثيرون[١٧].

وتتحدَّث الدِّسقوليَّة أي تعاليم الرُّسُل إلى الأسقف شارحة باستفاضة كيفية قبول الخاطئ، واستخدام سلطان الحل والرَّبط، فتقول له: "يجب أن تعطي مغفرة لمن يتوب ... واعرف رتبتك يا أسقف. أنك كما نلت سلطاناً أن تربط، هكذا نلت سلطاناً أن تحل".

ثالثاً: الإقرار والاعتراف بالخطيئة أمام الله في حضور الكاهن

النَّفس بطبيعتها بحاجة إلى الإفضاء بما في داخلها، والاعتراف بأخطائها، وهي ترتاح إلى ذلك. وإن الخطيئة التي تهين الله كرأس

١٦- ضد الهرطقات ١:٦:٣ ؛ ١٣:٥:٧

١٧- الأرشمندريت، جراسيموس مسره، الأنوار في الأسرار، بدون تاريخ، ص ١٩٦، ١٩٧

للكنيسة، تتعب الكنيسة كجسد المسيح الواحد، وتثقله بأحمال كثيرة، بل وتعوِّق حريَّة عمل الرُّوح القُدُس بين الجماعة[١٨]. فالإنسان عندما يخطئ إلى الله يخطئ إلى الكنيسة أيضاً، وهنا لا تكون الخطيئة موجَّهة إلى أيهما بل إلى كليهما معاً. فشاول الطَّرسوسي حينما كان يضطهد الكنيسة ويلقي أناساً من القدِّيسين في السُّجون، ويتسبَّب في قتلهم، قابله الرَّب على طريق دمشق، وخاطبه قائلاً: «شاول شاول لماذا تضطهدني؟» وإذ تحيَّر شاول من السؤال سأل مكلِّمه قائلاً: «من أنت يا سيِّد؟» قال له الرَّب بتأكيد جديد: «أنا يسوع الذي أنت تضطهده» (أعمال ٩:٦). فمن يضطهد الكنيسة يضطهد المسيح نفسه. ومن يخطئ إلى الله يخطئ إلى الكنيسة أيضاً.

والرَّب لم يفصل نفسه عن كنيسته أبداً. فحينما شفى الأبرص، رأى الأبرص أنه لم يعد محتاجاً إلى شئ بعد كمال تطهيره وشفائه، لكن الرَّب انتهره قائلاً: «انظر لا تقل لأحد شيئاً، بل اذهب أر نفسك للكاهن، وقدِّم عن تطهيرك ما أمر به موسى» (مرقس ١:٤٤)، على اعتبار أن الكاهن هو ممثِّل الكنيسة، ووكيل سرائرها ومقدَّساتها.

إذاً كل خطيئة ضد المسيح هي ضد الكنيسة، لأن الكنيسة هي جسد المسيح. ومن أجل ذلك فالتَّائب لا ينبغي أن يفصل بتاتاً بين الإقرار بالخطيئة أمام الله في مخدعه، والإقرار بها أمام الكنيسة بعد ذلك. فالذين آمنوا بالرَّب يسوع في العصر الرَّسولي، مارسوا الاعتراف أو الإقرار بالخطيئة علناً وسط الجماعة، وعلى مرأى من الكنيسة كلها. ومن ثمَّ كان الرَّب يضم كل يوم إلى الكنيسة الذين يخلصون.

١٨- انظر مثلاً كيف تسبَّبت خطيئة عخان بن كرمي في تكدير كل جماعة بني إسرائيل (يشوع ٧:١٣).

إن الخطيئة التي يخطئها الإنسان تفصله عن الجماعة، لهذا وجب اعترافه بها أمام الجماعة لتصفح عنه، وبعد أن يتقبَّل الحل في داخل الصَّلوات اللّيتورجيَّة من الكاهن الذي أُعطي له هذا السُّلطان من الله، يعود الإنسان إلى شركة الجماعة، ويصير له الحق أن يتناول جسد المسيح ودمه الأقدسين، لأنه صار عضواً في الجسد الواحد. ولما صار متعذراً على الكثيرين أن يعترفوا علناً بخطاياهم، تحوَّل الاعتراف سراً إلى من ينوب عن كل الجماعة أمام الله، وهو الأب الكاهن.

ونقرأ في القانون رقم (٢) من قوانين مجمع اللاذقيَّة (٣٤١-٣٨١م): "الذين وقعوا في زلاّت مختلفة وواظبوا على صلوات الاعتراف والتَّوبة بعد أن تحرروا من خطاياهم، يجب قبولهم ثانية في الشَّركة بعد قضائهم زمن التَّوبة". وهذه أوَّل إشارة في تاريخ الكنيسة ترد عن "صلوات الاعتراف" وهو اعتراف بالخطايا في الصَّلاة، قبل الاعتراف الرَّسمي على يد كاهن لنوال الحل، كما يقول هيفيليه وفان اسبن[١٩].

ونقرأ عن الاعتراف بالخطايا في القوانين الكنسيَّة التي وضعها مجمع قيصريَّة الجديدة سنة ٣١٥م[٢٠]. فيقول القانون رقم (٩) لهذا المجمع: "إذا اعترف قس بأنه قد زنى قبل رسامته، فلا يقدِّم الذَّبيحة قط، ويبقى في أعماله الكهنوتيَّة الأخرى، وإن لم يعترف بذلك (رغم شهادة شهود صادقين)[٢١] فليكن ضميره هو القاضي عليه".

ونقرأ في القوانين القديمة للكنيسة القبطيَّة عن الاعتراف بالإيمان، أو

١٩- الأرشيمندريت حنانيا كسَّاب، مجموعة الشَّرع الكنسي، منشورات النُّور، دمشق، ١٩٧٥م، ص ١٩٥، ١٩٦

٢٠- انظر القانون رقم (٩) من قوانين هذا المجمع.

٢١- ما بين القوسين مأخوذ من ترجمات أخرى للقانون، أو من تفسير علماء مختصِّين أمثال هيفيليه، برسيفال، فان اسبن، غراتيان، وآخرين.

الاعتراف بالثّالوث في المعموديَّة المقدَّسة. أمَّا أوَّل ذكر للاعتراف بالخطايا فنجده في القوانين الكنسيَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير، وهي قوانين تعود إلى غضون القرن السَّادس الميلادي.

ففي القانون رقم (٣٦) منها، نقرأ: "إن كانت واحدة قد توفي زوجها فلتعد من الأرامل. وإذا اعترفت أنها لا تقعد مع بعل آخر، وبعد ذلك تتزوَّج فإن لها خطيئة وعقوبة عظيمة، لأنها صارت سبباً في الازدراء بالاعتراف".

وفي القانون رقم (٩٣) من نفس القوانين السَّابقة: "إذا سقط واحد في خطيئة ويعترف بها وأنه متألِّم القلب، فليعن وليداوى من كبير الإكليروس أو من الأسقف، ويتعلَّم أن يتحفَّظ منها ويحزن على خطاياه الأولى".

إن الإقرار بالخطيئة في حد ذاته له فعل خلاصي، ليس لأن مجرَّد الاعتراف بالخطيئة هو الذي يمنح الغفران، بل لأن الاعتراف بالخطيئة كخطوة تمهيديَّة له هو علامة اتضاع حقيقي، ولا توبة مع الكبرياء. لأنه من المعروف أن ما يعوِّق الاعتراف بالخطيئة هو أحد أمرين، إمَّا الكبرياء أو الخجل. أمَّا عن الخجل فهو لازم، لأنه كيف أخجل من الإقرار بخطيَّتي أمام الله في حضرة الكاهن، في حين لم أخجل منها عندما اقترفتها أمام الله؟

يقول القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أسقف ميلان:

[حقاً إنه من المخجل أن يعترف الإنسان بخطاياه. ولكن هذا الخجل أشبه بعملية الحرث للأرض وإزالة العوسج منها، وتنقيتها من الأشواك. وبهذا تظهر الثِّمار التي كانت تُحسب عدماً].

ويقول العلاّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م):

[إليكم يا من لا تستحون من ارتكاب الخطيئة، بينما تخجلون من طلب العفو عنها. فإنني لا استخدم الخجل حينما انتفع بفقدانه، إذ يقول الخجل لي: لا تهتم بي، فخير لي أن أهلك بواسطتك عن أن أهلكك بسببي].

ويقول العلاّمة ترتليان أيضاً:

[إن كثيرين ينتبهون إلى الخجل أكثر من الخلاص، فيهربون من هذا العمل (الاعتراف) سُترة لهم، أو يؤخّرونه من يوم إلى يوم، كمن أصابه مرض في الأعضاء المستحى منها، فأخفى عن الأطباء مرضه، فيُباد بخجله ... فإذا أخفينا نفوسنا عن معرفة النّاس، هل تخفى على الله؟ وهل الأولى أن نهلك وذنوبنا مخفيَّة من أن تحل وهي مكشوفة في التّوبة؟] (في التّوبة فصل ٣:١٠).

ويقول القدّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م):

[فلنتشبَّه نحن بالمرأة السّامريَّة، ولا نخجل من أن نعترف بخطايانا. لأن الذي يستحي أن يعترف بخطاياه ليخلص، ففي ذلك اليوم ليس قدّام واحد تُشهر، بل قدام المسكونة كلها].

ويقول مار فيلوكسينوس المنبجي (+ ٥٢٣م):

[من يكون في قتال ويطيع أفكار الشّر، ولا يفضح أفكاره، ويكشفها أمام أبيه الرُّوحي، الذي يعرف صنعة الحروب المعقولة، فإن شيطان الكبرياء يستلمه في نهاية معركته، ويطرحه من إيمان الحق].

ويقول القدّيس أنبا موسى الأسود:

[الفكر الخاطئ يضعف بمجرد كشفه ... فبقوّة الاعتراف ينسحب أفعوان الدَّنس من كهفه المظلم الخفي. وأحياناً يظهر ويهرب مفتضحاً ... فالأفكار الشّيطانيَّة يكون لها سلطان علينا بمقدار ما تختبئ في قلوبنا].

ويقول القدّيس أنبا أنطونيوس:

[رأيتُ رهباناً كثيرين، بعد أن تعبوا كثيراً، وقعوا في دهشة عقل، لأنهم اتَّكلوا على معرفتهم فقط. إذ لم يصغوا إلى الوصيَّة القائلة: اسأل أباك فيخبرك، ومشايخك فيقولون لك].

وقال يوحنا كاسيان:

[من يكشف أفكاره لمرشده لا يمكن خداعه].

وقال أيضاً:

[إن الخطيئة تثبت طالما هي مخفيَّة في القلب. فمتى كُشفت زالت حتى من قبل أن يجيب الأب الرُّوحي عنها بشئ].

وليس هناك ثمة طقس محدَّد يتم بموجبه اعتراف الخاطئ على الكاهن بخطاياه. والوضع الأصيل هو قبول الكاهن اعتراف الخاطئ في الكنيسة وليس خارجها، ولكن في غير وقت الصَّلوات اللّيتورجيَّة. لأنه لا يجوز أن ينشغل المصلُّون بشئ آخر في الكنيسة أثناء صلواتها اللّيتورجيَّة سوى بالإصغاء إلى الكلمة، وانتباهة الصَّلاة. ولكن لا يوجد ما يمنع أن يتقبَّل الكاهن اعتراف الخاطئ في أي مكان آخر غير الكنيسة لظروف طارئه، أو حالات غير عاديَّة.

يجلس التَّائب أو يركع إلى جوار الكاهن أو عند قدميه، ويقر بخطاياه في انسحاق وخشوع، مراعياً أن يكون الاعتراف بالخطايا بدون إسهاب في التَّفصيلات، أو باختصار إلى حد الإخلال. والكاهن الرُّوحي لا يترك المعترف أن يستطرد في شرح أنواع معيَّنه من الخطايا، ولاسيَّما الخطايا الجنسيَّة، لكنه ما أن يلمح نيَّة الخاطئ الكاملة في التَّوبة والإقرار بالخطيئة حتى يطلب إليه أن يعبر عنها إلى الإقرار بغيرها.

وعلى المعترف عند ذكره لخطاياه أمام أب الاعتراف أن يقطع كل دالة في الحديث مع أبيه، حتى ولو أبدى الأب الكاهن ذلك. ولا يلتمس الخاطئ لنفسه الأعذار فيما أخطأ به، ولا يذكر أسماء آخرين في الاعتراف إلاَّ إذا كان ذلك يساعد على التَّوبة، لأنه يعترف عن خطايا نفسه هو وليس عن خطايا الآخرين.

ويلي ذلك صلاة التَّحليل.

رابعاً: التَّحليل

عند انتهاء الاعتراف يقف الكاهن ويركع المعترف على ركبتيه، ويضع الكاهن الصَّليب على رأس المعترف، ويرفع نظره إلى السَّماء ويصلِّي صلاة التَّحليل.

ووضع الكاهن للصَّليب على رأس المعترف هو تعبير ليتورجي عن إحناء المعترف لرأسه تحت يدي الرَّب نفسه، وهذا ما توضِّحه لنا صيغة صلاة التَّحليل الثَّانية التي بدايتها: "أنت يارب الذي طأطأت السَّموات ونزلت ..."، والتي فيها يقول الكاهن: "... **والذين أحنوا رؤوسهم تحت يدك**، ارفعهم في السِّيرة، زيِّنهم بالفضائل ... الخ". وهو ما أصبح

يقوله الكاهن على رأس المعترف بعد اعترافه "... **وعبدك الذي أحنى رأسه تحت يدك**، ارفعه في السِّيرة، زيِّنه بالفضائل ... الخ".

ويختم الكاهن صلاة التَّحليل الثَّالث الذي بدايته: "أيها السيِّد الرَّب يسوع المسيح الابن الوحيد، وكلمة الله الآب ..." بثلاثة رشومات بالصَّليب، فيرشم ذاته قائلاً: "باركنا"، ويرشم الخدَّام قائلاً: "طهِّرنا، حاللنا"، ويرشم الشَّعب قائلاً: "وحالل سائر شعبك".

ولكن في حالة ترديد الكاهن لصلاة التَّحليل هذه على رأس المعترف الفرد بعد اعترافه بخطاياه، أصبح يقول: "باركه، طهِّره، حاللـه". وحتى في هذا التَّعديل في النَّص اللِّيتورجي ليوافق الفرد بدلاً من الجماعة، استمر الخطاب هنا موجَّه من الكاهن إلى الله، لكي يكون الله نفسه هو الذي يبارك ويطهِّر ويحالل الخاطئ بفم الكاهن وصلاته. أمَّا الآباء الكهنة الحاذقون الذين يعرفون أن صلاة التَّحليل هي من أجلهم هم أيضاً كما أنها من أجل من يحاللونه، فقد تمسَّكوا بالنَّص اللِّيتورجي الأصيل لها، فلم يفرِّطوا في طلب البَركة من الله لأنفسهم، فصاروا يقولون: "باركنا وباركه، طهِّرنا وطهِّره، حاللنا وحالل عبدك (فلان)، املأنا من خوفك، وقوِّمنا إلى إرادتك المقدَّسة الصَّالحة ...".

وفي الممارسة العمليَّة الآن في صلاة التَّحليل على رأس المعترف، لا يُقال عادة التَّحليلان الأوليان[٢٢]. وهكذا تظل صلوات التَّحليل التي تُقال على الشَّعب في الكنيسة ومن داخل اللِّيتورجيَّا محافظة على أصالتها وشمولها، أكثر مما صارت إليه عقب الاعتراف السِّري على الكاهن.

22- Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies Observed in the Administration of her sacraments*, Publications de la Société d'Archéologie Copte. Textes et Documents, X, Le Caire, 1967, p. 127.

أما عن صيغة التَّحليل التي تُقال على رأس التَّائب في كل الكنائس الشَّرقيَّة فهي صيغة توسليَّة[٢٣]. أي صيغة يطلب فيها الكاهن من الله أن يسامح التَّائب ويحاللـه ويغفر له خطاياه.

ويوجد أشخاص يعترفون اعترافاً خاصاً دقيقاً، ويكرِّرون الاعتراف عدَّة مرَّات على نفس الأب، وعلى آباء آخرين، ولا يشعرون بالحِّل ولا بالرَّاحة والسَّلام الدَّاخلي، لأن إيمانهم بالحِّل ضعيف ومهلهل. وينتظرون أنه بمجرَّد أن يقول (الكاهن) الحِّل تأتيهم قوَّة ميكانيكيَّة تمنعهم من الخطيئة وتعطيهم السَّلام والرَّاحة. ولكن هذا ضعف في الإيمان، وفي الفكر الرُّوحي، وفي البناء النَّفسي. هؤلاء يحتاجون إلى تكوين فكر جديد وإيمان جديد بمدى استعداد عمل الذَّبيحة لكلِ من يؤمن ويعترف بقلبه ولسانه. فقوة الحِّل كائنة في الإيمان بالدَّم أولاً، وثانياً في الثِّقة بوعد الرَّب، وثالثاً في قوَّة النِّعمة الشَّافية.

كان التَّائب في العهد القديم يضع يده على رأس ذبيحته ليتبرأ من حكم الموت، الذي هو عقاب كل خطيئة. أمَّا في العهد الجديد فيضع الكاهن يده بالصَّليب على رأس التَّائب لينقل إليه فعل ذبيحة الصَّليب.

إننا نسمع غفران الرَّب لخطايانا من فم الكاهن: «الرَّب قد نقل خطيئتك عنك، لا تموت» (٢صموئيل ١٢:١٣). فهكذا قال ناثان النَّبي لداود الملك عندما اعترف بخطيئته.

والسُّؤال الآن هو: معروف أنه هناك أكثر من صلاة تحليل يقولها الكاهن من أجل الجماعة كلها في داخل صلوات القدَّاس الإلهي، فما هي إذاً علاقة صلاة التَّحليل التي يصليها الكاهن على رأس المعترف بعد اعترافه

23- *Ibid.*, p. 128.

بخطاياه بتلك التي يصليها من داخل الخدمة اللّيتورجيَّة نفسها؟. أو بصيغة أخرى: إن كانت صلاة التّحليل التي يقولها الكاهن على رأس المعترف، قد أتمت غفران خطاياه، فماذا تعني صلوات التّحليل التي تُقال في القدّاس الإلهي في الكنيسة؟.

إن تطوُّر ممارسة السِّر في الكنيسة عبر التّاريخ مع الاحتفاظ دائماً بالقديم كميراث لا يمكن التّفريط فيه – وهذا حق وعدل – هو الذي أنشأ هذا الوضع الذي نتحدّث عنه.

فالاعتراف العلني في الكنيسة قد ترك ممارسة كنسيَّة طقسيَّة لم تتغير مع انتقال أسلوب الاعتراف، من اعتراف علني أمام الجماعة كلها، إلى اعتراف سري أمام الكاهن كنائب عن الجماعة، إذ خلّف هذا الأخير – أي الاعتراف السِّري – ممارسة طقسيَّة تختص به، أُضيفت على الممارسة الأولى التي صاحبت الاعتراف العلني في الكنيسة.

فالتّحليل الذي يُقال على رأس المعترف بعد إقراره بخطاياه، لم يظهر كطقس تمارسه الكنيسة الجامعة إلاّ بعد عدَّة قرون من نشأتها. فلقد ظلّت الكنيسة تمارس الإقرار بالخطايا، إمَّا جهاراً في البداية، أو سراً فيما بعد، على أن يكون التّحليل في داخل اللّيتورجيَّا نفسها، لأن كل الحاضرين القدّاس الإلهي سيتناولون حتماً من الأسرار المقدَّسة، إذ كان لا يجوز حضور غير المؤمنين وغير المتناولين لصلوات القدّاس الإلهي، وهو ما تشرحه القوانين الكنسيَّة القديمة.

ولقد ظهر التّحليل الذي يعقب الاعتراف مباشرة في الغرب أولاً، وتقنَّن بعد ذلك في مجمع لاتيران الرَّابع سنة ١٢١٥م. وكان هذا المجمع المذكور يحاول علاج التّدهور الذي لحق بممارسة سرّ الاعتراف في

كنائس الغرب. فأمر المجمع كل مسيحي أن يعترف بخطاياه على الأقل مرَّة واحدة في السَّنة. أمَّا الطَّقس الجديد للتَّوبة في كنيسة روما، والذي قُنِّن مؤخراً في سنة ١٩٧٣م، فهو يحوي تحليلاً عاماً يُعطى للجماعة في بعض المناسبات، لا يلزم أن يسبقه بالضَّرورة اعتراف بالخطايا[٢٤].

فالذي أوجد هذا التَّداخل بين التَّحليل الذي يُقال على رأس المعترف بعد اعترافه بخطاياه، والتَّحليل الذي يُقال على رأسه – مع بقيَّة الشَّعب – مرَّة أخرى في صلوات القدَّاس الإلهي هو أن الاعتراف بالخطايا كان يسبق اللّيتورجيَّا مباشرة، كتمهيد حتمي للمصالحة بين أعضاء الكنيسة، قبل تقديم الذَّبيحة المقدَّسة. فارتبط الإقرار بالخطايا ارتباطاً مباشراً ببدء صلوات اللّيتورجيَّا.

ففي كتاب "الدِّيداخي" نعرف أن الإقرار بالخطايا كان يتم يوم الأحد (ديداخي ١٤:١): "عند اجتماعكم يوم الرَّب، اكسروا الخبز واشكروا بعد أن تكونوا اعترفتم بخطاياكم، لكي تكون ذبيحتكم طاهرة". فالتَّحليل الفردي آنئذ لم يكن معروفاً، إذ كان يتم في داخل اللّيتورجيَّا نفسها.

ويقول القانون رقم (١٣٢) من قوانين مجمع قرطاجنة السَّابع عشر (٣٤٥-٣٤٨م): "إذا قال أسقف أن شخصاً اعترف له وحده عن جريمة شخصيَّة، وأنكر الشَّخص ذلك، فلا يعتبر الأسقف أن عدم الاعتماد على شهادته إهانة له". فإلى هذا الحد كان الإقرار العلني بالخطايا له الأولويَّة في الكنيسة، وليس الاعتراف الشَّخصي.

أمَّا الكتاب الثَّامن من كتب "المراسيم الرَّسوليَّة" فهو يطلعنا على

24- ODCC, 2nd edition, p. 1059.

صورة مبدعة لممارسة اعتراف التّائبين بخطاياهم أمام الجماعة في النّصف الثّاني من القرن الرّابع الميلادي، وصلاة الكنيسة كلها من أجلهم، ثمّ صلاة الأسقف العامة عنهم، والتي هي بمثابة صلاة التّحليل لهم.

فنقرأ في المراسيم الرّسوليّة (٨:٩:١ – ٦) ما يلي:

"١ – وبعد هذا يقول (الشمّاس):

٢ – صلّوا أيها الذين هم في التّوبة، ولنطلب جميعاً بحرارة من الله الرّحيم من أجل إخوتنا الذين هم في التّوبة، لكي يُظهر لهم طريق التّوبة، ويقبل رجوعهم، واعترافهم، ويسحق الشيطان تحت أرجلهم سريعاً، ويحرّرهم من فخ إبليس، ومكيدة الشياطين، ويترع منهم كل كلمة بطّالة، وكل عمل في غير موضعه، وفكر ردئ.

٣ – ويصفح عن كل زلاّتهم التي فعلوها، سواء بإرادة أو بغير إرادة. ويمحو الصّك الذي عليهم، ويسجّلهم في سفر الحياة. ويطهّرهم من كل دنس الجسد والرُّوح، ويوحّدهم مع قطيعه المقدّس بعد رجوعهم.

٤ – لأنّه يعرف جبلتنا، فمن يفتخر بنقاوة قلبه؟ أو من يتجاسر فيقول: إنه طاهر من الخطيئة؟ لأننا جميعاً تحت التّأديبات.

٥ – فلنتوسّل من أجلهم بأكثر حرارة، لأنّه يكون فرح في السّماء بخاطئ واحد يتوب. لكي يرجعوا من كل عمل بطّال، ويلتصقوا بكل عمل صالح. ولكي يتقبّل الله محب البشر طلباتهم سريعاً وبرضى، ويردّهم إلى رتبتهم الأولى، ويمنحهم فرح الخلاص. ويثبّتهم بروح مدبّر، فلا تزل خطواتهم بعد. بل يصيرون مستحقّين أن يكونوا شركاء مقدّساته الطّاهرة، وشركاء الأسرار الإلهيّة، ليظهروا مستحقين التّبني، ونوال الحياة الأبديّة.

٦ – لنقل بحرارة من أجلهم: يارب ارحم، خلّصهم يا الله وأقمهم برحمتك. قفوا واحنوا رؤوسكم لله بمسيحه لتتباركوا".

وهكذا يصلّي كل الشّعب من أجل أعضائه التّائبين، وهنا يظهر مفهوم الشّفاعة في الكنيسة وغايته، صورته هنا شفاعة الأقوياء من أجل الضُّعفاء. أمّا صورته الأخرى فهي شفاعة المنتقلين من أجل الأحياء. وأمّا صورته العظمى فهي شفاعة دم المسيح الحاضرة كل حين أمام الآب من أجل الكنيسة.

وبعد ذلك نقرأ في نفس المراسيم الرّسوليّة بركة الأسقف للتّائبين قبل انصرافهم. ففي المراسيم الرّسوليّة (٨:٩:٧-١١) نقرأ:

"٧- عندئذ يصلّي الأسقف بهذه الكلمات:

٨- يا الله الأبدي، ضابط الكل، رب الكل، خالق الكائنات ومدبِّرها، الذي أظهر الإنسان بالمسيح زينةً للعالم، وأعطيته ناموساً طبيعياً، وناموساً مكتوباً، ليحيا حسب النّاموس كخليقة عاقلة. وعندما أخطأ أعطيته صلاحك عربوناً للتّوبة. اطّلع على أولئك الذين احنوا عنق نفوسهم وأجسادهم، لأنك لا تشاء موت الخاطئ بل توبته، لكي يرجع عن طريقه الرّديء ويحيا.

٩- يا من قبلت توبة أهل نينوى، ويا من تريد أن جميع النّاس يخلصون، وإلى معرفة الحق يقبلون. يا من قبلت بأحشاء أبويّة الابن الذي دمّر ثروته في حياة الخلاعة من أجل توبته. أنت الآن أيضاً، اقبل توبة طالبيك. لأنّه ليس أحد بلا خطيئة أمامك. لأنك إن كنت للآثام راصداً يارب، يارب من يثبت. لأن من عندك المغفرة.

١٠- ردّهم لكنيستك المقدّسة، ولرتبتهم وكرامتهم الأولتين بالمسيح إلهنا ومخلّصنا. الذي به لك المجد والسُّجود في الرُّوح القُدُس إلى الآباد آمين.

١١- يقول الشمّاس: امضوا أيها التّائبون".

ولما اختفى الإقرار العلني بالخطايا وحلّ محله الاعتراف الخاص أو السِّري، والذي هو الصُّورة الأضعف للاعتراف العلني[٢٥]، اقترن الاعتراف الخاص بصلاة التَّحليل، ولاسيَّما بعد أن أصبح هذا الاعتراف السِّري غير ملزم بأن يكون قبل اللّيتورجيًّا مباشرة، وأمام الجماعة. فأصبح من الممكن ممارسته في أي وقت يتقابل فيه المعترف مع أبيه الكاهن.

ومن ثمّ فقد صار هذا التَّحليل الذي يتقبَّله الخاطئ من الكاهن منفرداً، يعود فيتقبَّله مرَّة أخرى من فم ذات الكاهن أو ربما كاهن آخر في داخل اللّيتورجيًّا نفسها. وهنا نلاحظ أن صيغة التَّحليل التي تعقب الاعتراف السِّري لا زالت هي نفسها الصِّيغة التي تُقال في التَّحليل من داخل اللّيتورجيًّا، لكي يتَّضح لنا أن هذه الأخيرة هي الأقدم، وهي الأصل.

مما سبق ذكره يتَّضح لنا أنه لا غنى عن صلوات التَّحليل التي تُقال في داخل اللّيتورجيًّا للتأهيل للتَّناول من الأسرار المقدَّسة، فهي الأصل والأساس، ولأنها أيضاً يمكن أن تغني عن صلاة التَّحليل التي يصلّيها الكاهن على رأس المعترف بعد اعترافه مباشرة. وإن الدِّراية بمفهوم صلوات التَّحليل في داخل اللّيتورجيًّا نفسها هو الذي يطمئن ضمائر بعض النَّاس الذين يدورون يبحثون عن كاهن "يقرأ لهم التَّحليل" ولو قبل التَّناول بلحظات بسيطة.

إنه من اللازم أن يتركّز انتباهنا ليس على مجرَّد الاعتراف أمام الكاهن فحسب لقبول الغفران، بل أيضاً - وبالأولى جداً - على الذّبيحة المقدَّسة القائمة على المذبح، تلك التي تُعطى عنَّا خلاصاً **وغفراناً للخطايا**، وحياة أبديَّة لكل من يتناول منها. فهي ذبيحة مقدَّمة عن

25- V. Patachovsky & C. Vogel, *Sin in the Orthodox Church and in the Protestant Church*, Tournai, 1960, p. 20-23.

الخطاة التّائبين وليس عن الأبرار أو القدّيسين الذين لا يحتاجون إلى توبة.

طقس الاعتراف بالخطايا في الكنائس الشّرقيّة

إن طريقة مباشرة سرّ التّوبة والاعتراف تختلف من كنيسة إلى أخرى، ولا يمكن إرجاعها إلى فترة قديمة جداً.

فالطّقس السّرياني الغربي الذي تتبعه الكنيسة الأنطاكيّة قد وضع تعاليم لاهوتيّة ثابتة لسر التّوبة أهمها يُنسب إلى اللاهوتي الكبير الأسقف ديونيسيوس بن الصّليبي أسقف أمد[٢٦] في القرن الثّاني عشر، وهو المعاصر للبطريرك ميخائيل الكبير (١١٦٦-١١٦٩م). ويرجع إلى هذا الأسقف العالم الفضل في التّنظيم النهائي للخولاجي السّرياني سنة ١١٧٠م. ويحوي هذا الخولاجي وصفاً دقيقاً لطقس الاعتراف؛ فيذكر أولاً واجب المعرِّف بعدم إفشاء أي شئ مما يعرفه، وألاّ يُشعر التّائب بشئ منه فيما بعد، وأن يتنبّه لكي لا يجعل التّائب ييأس، وأخيراً ألاّ يحابي أحداً.

وقد فرضت الكنيسة السّريانيّة الأنطاكيّة على أبنائها ضرورة الاعتراف، حيث يقول القانون الثّاني من قوانين مجمع الزّعفران الذي عُقد في دير الزّعفران سنة ١١٥٦م ما يلي: "على كافة المؤمنين بطريركاً

٢٦- "أمد" هي حالياً المعروفة باسم "ديار بكر" وهي مدينة تركية على نهر دجلة، شرقي الأناضول.
انظر: المنجد في اللّغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م ص ٦٨، ٢٥٢
أقام البطريرك الأنطاكي أثناسيوس السّابع (١١٣٩-١١٦٦م) ابن الصّليبي أسقفاً على مرعش. وكان نابغة وعلاّمة فريد في عصره، ومن أشهر أساقفة زمانه علماً وفضلاً. وقد نقل البطريرك ميخائيل الكبير ابن الصّليبي إلى أسقفيّة أمد سنة ١١٦٦م وبقى بها حتى يوم وفاته التي كانت سنة ١١٧١م.
الأنبا إيسيذوروس، الخريدة النّفيسة في علوم الكنيسة، الجزء الثّاني، طبعة ١٩٦٤م، ص ٥٦٩

وأساقفة وقسوساً وشمامسة وعلمانيين، أن يعترفوا ثلاث مرّات في السّنة على الأقل وذلك في صوم الميلاد وفي الصّوم الكبير وفي صوم الرُّسُل. وهي الأصوام الثّلاثة التي تقدّم لسر الثّالوث الأقدس"[٢٧].

أمّا عن مكان الاعتراف نفسه، فيجب أن يتم على باب الكنيسة أو الهيكل، ويكون التّائب ساجداً مكشوف الرأس، مطأطئ الوجه نحو الأرض، ضاماً يديه، ويقر بخطاياه للكاهن الجالس بجواره. ثمّ يلي الإقرار بالخطايا بعضاً من التّراتيل والمزامير والصّلوات بقصد تحريك الندامة.

وتملك الكنيسة السّريانيّة عدّة صلوات استرحاميّة بحسب أنواع الخطايا المختلفة. وقد احتفظت للحل بصلاة مصحوبة بوضع الأيدي، والنّفخ في الوجه إلى جانب رشم مثلّث للصّليب.

ومن بين الصّلوات التي يقولها الكاهن على التّائب بعد أن يسمع اعترافه، الصّلاة التّالية: "فليرحمك الرّب الإله ويقودك إلى الحياة الأبديّة بقوّة سلطان الكهنوت الشّريف الذي سلّمه سيّدنا يسوع المسيح لرُسله القدّيسين، والرُّسُل سلّموه إلى خلفائهم حتى وصل إلى ضعفي، أُحلّك من جميع خطاياك التي اعترفت بها وأنت نادم عليها، ومن كل ما لم يخطر عل بالك لتُسامَح وتُقدّس باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس آمين"[٢٨].

أما الطّقس السّرياني الشّرقي الذي تتبعه الكنيسة النّسطوريّة أو الآشوريّة فلا يعترف سوى بطقس المصالحة فقط، أي طقس قبول الرّاجعين إلى الكنيسة بعد توبة علنيّة أثناء اللّيتورجيّا الإفخارستيّة، وقبل التّناول. وكانت الصّلاة المنسوبة إلى البطريرك إيشوعاب الثّالث Ishoyab

---

٢٧- المطران سويرس زكا عيواص، والأب الرّبان اسحق ساكا، مرجع سابق، ص ١١٩
٢٨- نفس المرجع، ص ١١٥، ١١٦

مخصَّصة لأجل مصالحة الجاحدين والهراطقة – بحسب معتقدهم هم – إذ كان لا يجوز استعمالها للخطاة الذين يعلنون خطاياهم جهاراً.

أما طقس التَّوبة القديم والذي ظل سارياً في هذه الكنيسة مدَّة طويلة فهو أن التَّائب يظل جالساً لمدة ثلاثة أيام في المسوح والرَّماد أمام باب الهيكل، عاري الرأس، حافي القدمين، والمنطقة حول عنقه. وبعد تلاوة الصَّلاة الرَّبيَّة وترتيل المزمورين ١٢٢، ١٢٩ وبعض الأنتيفونات والأناشيد، يضع الكاهن يديه على رأس التَّائب، ويصلّي صلاة المصالحة (التَّحليل). ويوجد لهذه الصَّلاة عدَّة نماذج. وفي نهايتها يرشم الكاهن رأس التَّائب. وفي بعض الحالات يصحب ذلك المسح بالزَّيت.

أمَّا الطَّقس البيزنطي، والكنائس التي تتبعه على اختلافها، سواء كانت أرثوذكسيَّة أو كاثوليكيَّة، فلديها كتاب خدمة الأسرار من نفس النَّوع، ويقول بوضوح: إن كل الصَّلوات التي تسبق الاعتراف بالخطايا، يجب أن يتلوها جمهور التَّائبين الذين يتقدَّمون بعد ذلك واحداً فواحداً إلى الكاهن الجالس أو الواقف بالقرب من أيقونة من أيقونات الكنيسة، وغالباً أمام الحجاب.

أمَّا العادة عند السّلافيين، كما في كنيسة روسيا الأرثوذكسيَّة، فهي أن يقف التَّائب بالقرب من الكاهن الذي يضع البطرشيل على رأسه على الأقل أثناء تلاوة الحل. ولكن الإقرار بالخطايا يمكن أن يتم والتَّائب جالس بمواجهة الكاهن كما يفعل اليونانيون في الغالب حالياً.

ويختار الكاهن إحدى صور التَّحليل العديدة. أمَّا السّلافيون فيستعملون صورة تصريحيَّة كاللاتين. أمَّا لدى اليونانيين الأرثوذكس، فالكاهن المعرِّف له الحق في تأليف صورة الحل بنفسه.

ويبدو أن الأرمن قد استعملوا منذ زمن مبكر طقساً أقصر وأبسط يُنسب للمنظّم الكبير البطريرك مشدوتز Machdotz الذي عاش في القرن التّاسع الميلادي. حيث يجثو فيه التّائب بالقرب من المعرِّف، ويصف أو يتلو أولاً صلاة للاعتراف العام، ثمّ يقر بخطاياه. أمّا الكاهن فيقول باسطاً يده: "ليهبك الله العظيم الرَّحمة، وليمنحك غفران كل خطاياك ... الخ".

وقد توطّدت في الكنيسة الأرمينيَّة عادة الاعتراف الجماعي على الأقل للأطفال. فبعد الصَّلوات الاستعداديَّة يتلو الكاهن قائمة طويلة من الخطايا، ويقرع كل طفل صدره سراً إذا كان قد اقترفها[٢٩].

وفي الكنائس اللاتينيَّة يوجد لديهم ما يُسمى "كرسي الاعتراف"، وهو يحتل أي مكان في كنائس اليَّوم، حيث يخصَّص له مكان في الكنيسة يحجب المعرِّف والتَّائب عن الجماعة، ويحفظ سريَّة الإقرار. وقد فرضه المجمع التريدنتيني كمكان ملزم فيقول: "... يعني الرؤساء المحليَّون بنصب كرسي في الكنيسة للمعرِّف، يجلس عليه عند سماع الاعتراف، بحيث يكون مكانه مكشوفاً ظاهراً، موافقاً لهذا الصَّنيع. ولابد بين الكاهن والتَّائب من حاجز على شكل تشبيكة"[٣٠].

٢٩- الأب هنري داليس الدومينكي، الطُّقوس الشرقيَّة، تعريب الشمَّاس كامل وليم، المعهد الكاثوليكي، المعادي، ١٩٧٨م، ص ١٢٤-١٢٦

٣٠- الأب يوحنا تابت وآخرون، الأسرار، منشورات قسم اللّيتورجيَّا في جامعة الرُّوح القُدُس، الكسليك، لبنان، ١٩٨٧م، ص ٤٥

البَاب الثَّاني

المراحل التَّاريخيَّة التي عبر عليها سرّ التَّوبة والاعتراف

الفَصل الأوَّل

كنيســـة الـــرُّسُل

تمهيد

يختلف سرّ التّوبة والاعتراف في تطوره الطّقسي - وليس الإيماني - عن سائر أسرار الكنيسة الأخرى. فالفارق بين ماضيه وحاضره في كل كنيسة من كنائس العالم المسيحي أوسع بكثير مما هو عليه في بقيّة الأسرار الكنسيَّة الأخرى. ولم تتكوَّن الملامح الطّقسيَّة للسِّر كما نراها اليوم إلاّ ببطء شديد، حيث استغرقت قروناً عديدة. أمَّا موضوع غفران الخطايا فقد عبر هو الآخر على مراحل تاريخيَّة في الكنيسة الجامعة.

ونظراً للصّعوبة التي تقابل الباحث في تاريخ تطوُّر هذا السِّر حتى وصل إلى شكله كما نراه اليَوم، فسأحاولُ قدر الجهد، وبمعونة الرَّب، أن أقسِّم مراحل هذا التَّطوُّر إلى أقسام ربما يحتل أحدها عدَّة قرون متتابعة.

ففي كنيسة الرُّسُل وهي الفترة التي تنتهي مع نهاية القرن الأوَّل الميلادي تقريباً، نجد أن موضوع "غفران الخطايا" يحتل جانباً أساسياً في تعليم العهد الجديد، وفي كنيسة الرُّسُل. بل إن واحدة من أهداف مجيء المسيح نفسه إلينا على الأرض كان من أجل هذا السَّبب عينه.

ركائز غفران الخطايا

لقد استقر في فكر كنيسة العهد القديم وكنيسة العهد الجديد أيضاً ثلاث ركائز أساسيَّة بخصوص "غفران الخطايا":

الرَّكيزة الأولى: أنه لا يغفر الخطايا إلاَّ الله وحده[١].

ويشهد القدِّيس بطرس الرَّسول مع بقيَّة الرُّسُل أمام مجمع اليهود قائلين: «إله آبائنا أقام يسوع الذي أنتم قتلتموه معلِّقين إياه على خشبة، هذا رفَّعه الله بيمينه رئيساً **ومخلِّصاً**، ليعطي إسرائيل التَّوبة وغفران الخطايا» (أعمال ٥:٣٠، ٣١).

ويكرِّر القدِّيس بطرس الرَّسول نفس المعنى في قيصريَّة في بيت كرنيليوس قائد المائة عندما كان يشهد ليسوع الذي من النَّاصرة، كيف مسحه الله بالرُّوح القُدُس والقوَّة. فيقول: «له يشهد جميع الأنبياء أن **كل من يؤمن به ينال باسمه غفران الخطايا**» (أعمال ١٠:٤٣).

وعندما كان القدِّيس بولس ذاهباً إلى دمشق ليضطَّهد الكنيسة هناك، قابله يسوع على الطَّريق مشرقاً عليه بنور أبهى من لمعان الشَّمس في نصف النَّهار، وقال له: «أنا يسوع ... ظهرتُ لك لانتخبك خادماً وشاهداً بما رأيت وبما سأُظهر لك به منقذاً إياك من الشَّعب ومن الأمم الذين أنا الآن أرسلك إليهم، لتفتح عيونهم كي يرجعوا من ظُلمات إلى نور، ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بي غفران الخطايا، ونصيباً مع المقدَّسين» (أعمال ٢٦:١٥-١٨).

وبالاختصار يقول الكتاب المقدَّس: «ليس بأحد غيره الخلاص. لأن ليس اسم آخر تحت السَّماء قد أُعطي بين النَّاس به ينبغي أن نخلص» (أعمال ٤:١٢).

هذه هي الرَّكيزة الأولى عن غفران الخطايا لنوال الخلاص.

١- مرقس ٢:٧ ؛ لوقا ٥:٢١

الرَّكيزة الثّانية: إنه بدون سفك دم لا تحصل مغفرة[٢]

وهو ما قاله الرَّب نفسه لتلاميذه بعد قيامته المقدَّسة، عندما فتح ذهنهم ليفهموا الكُتُب، حيث نقرأ في إنجيل معلّمنا لوقا البشير: «وقال لهم: هكذا هو مكتوب، وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألّم ويقوم من الأموات في اليَوم الثّالث. وأن يُكرَز باسمه بالتَّوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم، مبتدئاً من أورشليم. وأنتم شهود لذلك» (لوقا ٢٤:٤٦-٤٨).

وهو ما أكّده القدِّيس بولس الرَّسول غير مرَّة: «الذي فيه لنا **الفداء بدمه** غفران الخطايا حسب غنى نعمته» (أفسس ١:٧ ؛ ١كورنثوس ١:١٤).

لقد كانت هاتان الرَّكيزتان السَّابق ذكرهما منفصلتان عن بعضهما البعض في العهد القديم. فالله يغفر خطايا شعبه، ولكن يلزم تقديم ذبيحة حيوانيَّة بريئة من الخطيئة ليُسفك دمها نيابة عن الخاطئ. أمَّا في كنيسة العهد الجديد فقد اتَّحدت هاتان الرَّكيزتان في شخص السيِّد المسيح له المجد الذي صار لنا فداءً وخلاصاً وبراً وقداسة. فصار هو بذاته غافر خطايانا بدمه الكريم. وهذا هو ما كرز به القدِّيس بولس الرَّسول في مجمع أنطاكية بيسيديَّة عندما كان يكلّمهم عن المسيح الذي مات وقام بحسب الموعد الذي كان للآباء، فيقول: «وأقوال الأنبياء التي تُقرأ كل سبت، تمّموها إذ حكموا عليه. ومع أنهم لم يجدوا علّة واحدة للموت، طلبوا من بيلاطس أن يُقتل. وبعد أن تمّموا كل ما كُتب عنه أنزلوه عن الخشبة ووضعوه في قبر. ولكن الله أقامه من الأموات ... فليكن معلوماً عندكم أيها الرِّجال الإخوة إنه بهذا ينادى لكم بغفران الخطايا، وبهذا يتبرَّر كل من يؤمن من كل ما لم تقدروا أن تتبرَّروا منه بناموس موسى» (أعمال ١٣:٢٧-٢٩، ٣٨، ٣٩).

٢- عبرانيين ٩:٢٢

الرَّكيزة الثَّالثة: إقرار الخاطئ بخطيئته

كان إقرار الخاطئ بخطيئته عنصراً أساسياً في العهد القديم لتكميل غفران خطيئة الخاطئ الذي ينتمي إلى شعب الله، والذي اختتن في جسده لتكميل عهد الختان بينه وبين يهوه إله إسرائيل. وهي نفس الرَّكيزة التي لم تتغيَّر في كنيسة الرُّسُل - وإن كان الإقرار بالخطيئة قد أخذ أشكالاً متغيِّرة في كنيسة العهد الجديد كما سنرى فيما بعد — وصار من اللازم أولاً لهذا الخاطئ في كنيسة العهد الجديد الإيمان بالمسيح كمخلِّص وغافر للخطايا، وقبول معموديَّة الماء والرُّوح.

ويشرح كتاب العهد الجديد أهميَّة الاعتراف بالخطايا لغفرانها، فنقرأ في الأصحاح الثَّالث من إنجيل القدِّيس متى البشير: «في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهوديَّة قائلاً: توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السَّموات ... حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهوديَّة وجميع الكورة المحيطة بالأردن، واعتمدوا منه في الأردن **معترفين بخطاياهم**» (متى ٣:١، ٥).

وهو نفس ما نقرأه في الأصحاح الثَّاني من سفر أعمال الرُّسُل عندما قال النَّاس لبطرس ولسائر الرُّسُل: «ماذا نصنع أيها الرِّجال الإخوة؟ فقال لهم بطرس توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا، فتقبلوا عطيَّة الرُّوح القُدُس» (أعمال ٢:٣٧، ٣٨). وأيضاً: «وكان كثيرون من الذين آمنوا يأتون مقرِّين ومخبرين بأفعالهم» (أعمال ١٩:١٨).

وهذا الإقرار بالخطايا أو الاعتراف بها هو ما نقرأه أيضاً عند القدِّيس يعقوب الرَّسول: «اعترفوا بعضكم لبعض بالزَّلات، وصلُّوا بعضكم لأجل بعض لكي تُشفوا» (يعقوب ٥:١٦).

ويؤكِّد القدِّيس يوحنا الحبيب نفس المعنى بقوله: «إن اعترفنا

بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهّرنا من كل إثم» (١يوحنا ١:٩).

وبرغم ما سبق ذكره من آيات تتحدَّث عن الإقرار بالخطايا في كنيسة الرُّسُل، إلاّ أننا لا نستطيع أن نحدِّد تماماً كيف كان يتم الإقرار بالخطايا والاعتراف بها. ولكن ما هو أكيد لدينا أن الخاطئ كان يقر بخطاياه أمام الله وأمام الكنيسة أيضاً.

فإقرار الخاطئ بخطيئته أمام الله واعترافه بها أمامه كان بلا شك شرطاً أساسياً لا غنى عنه لغفرانها. وشعور الإنسان في قلبه براحة وسلام داخلي بإيمان بسيط واثق من وعد الرَّب أن كل من يأتي إليه لا يخرجه خارجاً، وأنه هو الشَّافي والمخلِّص والغافر. ولكن هذا لم يكن يعفي الخاطئ من ضرورة سماع صوت الرَّب بالغفران والحل من الكنيسة. فالرب نفسه قد استودع كنيسته هذا السِّر عندما سلّمه لتلاميذه القدِّيسين، وهم بدورهم نقلوه إلى الأساقفة خلفاء الرُّسُل، أو من ينوب عنهم من الكهنة بسماح وتصريح منهم.

فيقول الرَّب لبطرس: «أنت بطرس ... فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السَّموات، وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السَّموات» (متى ١٦:١٨، ١٩).

ومرَّة أخرى في حديث الرَّب مع تلاميذه قال لهم: «الحق أقول لكم، كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السَّماء. وكل ما تحلُّونه على الأرض يكون محلولاً في السَّماء» (متى ١٨:١٨).

ومما يؤكّد أن هذا السُّلطان الذي منحه الرَّب لتلاميذه وللرُّسُل من بعدهم هو سلطان خاص وليس لكل النَّاس، هو ما يذكره القدِّيس يوحنا

الحبيب في ظهور الرَّب عشيَّة قيامته للتَّلاميذ في العليَّة والأبواب مغلَّقة. «فقال لهم يسوع أيضاً سلام لكم. كما أرسلني الآب أرسلكم أنا. ولما قال هذا نفخ وقال لهم: اقبلوا الرُّوح القُدُس. من غفرتم خطاياه تغفر له، ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت» (يوحنا ٢٠:٢١، ٢٢). وهذه هي نفس نفخة الرُّوح القُدُس التي تنتقل من جيل إلى جيل في سرّ الكهنوت المقدَّس في الكنيسة المقدَّسة، ليصبح لكاهن العهد الجديد هذا السُّلطان الخاص والذي لا يخص عامة النَّاس. على أن الكاهن يغفر الخطايا، أو يمسكها ليس باسمه، بل باسم المسيح.

ولقد مارس الآباء الرُّسُل بالفعل هذا السُّلطان المعطى لهم من الرَّب[٣]. وهو ما نقرأه في قصَّة حنانيا وسفيرة مع بطرس الرَّسُول[٤]. وفي قصَّة سيمون السَّاحر مع بطرس الرَّسول[٥]. وكذلك في قصَّة الرَّجل الكورنثي الذي زنا بامرأة أبيه، وكيف ربطه القدِّيس بولس[٦]، ثمَّ عاد فحاللـه مرَّة أخرى[٧].

ويتبقَّى أمامنا نقطة أخيرة هامة تكمِّل موضوع غفران الخطايا، قد تعلمناها من المسيح نفسه له المجد. فقد عرفنا أن المسيح هو الذي يغفر الخطايا، ويعلن لنا هذا الغفران على فم الكنيسة ممثَّلة في الأسقف أو الكاهن فيها. ولكن الرَّب وضع شرطاً لهذا الغفران بدونه لا يقدر هو أن يغفر الخطايا، برغم أن رغبته هي أن جميع النَّاس يخلصون وإلى معرفة

٣- وهو ما أشرتُ إليه في الفَصل السَّابق مباشرة. و لم يكن عمل الرُّسل هو قبول اعترافات الخطاة والتَّائبين، بل الكرازة بالإنجيل للخليقة كلها.وما أذكره هنا هو استخدام سلطان الحل والرَّبط الممنوح لهم من المسيح في كرازتهم باسمه.

٤- أعمال ٥:٥، ٦، ٨، ١٠

٥- أعمال ٨:١٨-٢٣

٦- ١كورنثوس ٥:١-٥

٧- ٢كورنثوس ٢:٦-١١

الحق يقبلون. هذا الشَّرط الوحيد هو ما قاله الرَّب في عظته على الجبل عندما سلَّمنا الصَّلاة الرَّبانيَّة التي نخاطبه بها قائلين: «واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا» (متى ٦:١٢ ؛ لوقا ١١:٤).

حيث يعقّب الرَّب على هذا العنصر بالذّات من دون عناصر الصَّلاة الرَّبانيَّة كلها فيقول: «إن غفرتم للنَّاس زلاّتهم يغفر لكم أيضاً أبوكم السَّماوي. وإن لم تغفروا للنَّاس زلاّتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم» (متى ٦:١٤). ويعود الرَّب يربط بين غفرانه لخطايانا، وصلاتنا التي نصليها إليه غافرين لمن أساء إلينا، فيقول: «ومتى وقفتكم تصلُّون فاغفروا إن كان لكم على أحد شئ، لكي يغفر لكم أيضاً أبوكم الذي في السَّموات زلاتكم. وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السَّموات زلاتكم» (مرقس ١١:٢٥). ويكرِّر الرَّب نفس المعنى بقوله: «اغفروا يُغفر لكم» (لوقا ٦:٣٧).

إذاً عندما نغفر للآخرين زلاّتهم التي أساءوا بها إلينا لا نكون في ذلك ممارسين لفضيلة، بل نمارس خلاصنا.

هلمُّوا بنا نترك مباحثات اللاهوتيِّين في كيفيَّة تتميم غفران الخطايا، والخطوات اللازمة لنوال الغفران، وتاريخ طقس غفران الخطايا ... الخ، وننتبه إلى أمر واحد وحيد هو أن غفران خطايانا يلزمه جداً وبالضَّرورة أن نغفر نحن أيضاً للآخرين. فهنا وهنا فقط يكمن سرّ الغفران. انظر لن ينفعك الله نفسه، ولن تفيدك الكنيسة شيئاً لتنال الغفران إن لم تغفر أنت لأخيك.

لقد تقدَّم الرَّسول بطرس وقال للرَّب: «يارب كم مرَّة يخطئ إليَّ أخي وأنا أغفر له، هل إلى سبع مرَّات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى

سبع مرَّات، بل إلى سبعين مرَّة سبع مرَّات» (متى ١٨: ٢١، ٢٢).

وضرب الرَّب مثلاً بالملك الذي أراد محاسبة عبيده، وإذ ترك لواحد من العبيد دَينه الذي عليه، وكان عشرة آلاف وزنة[٨] لما طلب إليه العبد ذلك، إلاَّ أن ذلك العبد لم يرحم رفيقه الآخر الذي كان مديوناً له بمائة دينار[٩] فقط. اسمع ماذا قال له يسوع على فم ذلك الملك: «فدعاه حينئذ سيِّده وقال له: أيها العبد الشِّرير. كل ذلك الدَين تركته لك لأنك طلبت إليَّ. أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا. وغضب سيِّده وسلَّمه إلى المعذِّبين حتى يوفي كل ما كان له عليه. فهكذا أبي السَّماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته» (متى ١٨: ٣٢-٣٥).

ومن له أذنان للسَّمع فليسمع.

٨- الوزنة تساوي تقريباً ٦٠٠٠ درهم. والدِّرهم حوالي خمسة قروش مصريَّة ونصف القرش. فالوزنة تساوي تقريباً ٣٣٠ جنيهاً مصرياً. والعشرة آلاف وزنة تساوي تقريباً ٣،٣ مليون جنيه مصري.

٩- أي حوالي ١٥٠ جنيهاً مصرياً.

Heb *sauirah*

الفَصل الثَّاني

بدءًا من القرن الثَّاني الميلادي

وحتى منشور ميلان سنة ٣١٢م

ملامح ممارسة سرّ التّوبة في القرن الثّاني الميلادي

إن صعوبة البحث عن الأصول الأولى في ممارسة هذا السِّـــر - إذا قورن بما نعرفه في هذه الفترة عينها عن سري المعموديَّة والإفخارستيَّا - هو بسبب تأجُّج جذوة الحرارة الرُّوحيَّة التي عاشتها الكنيســـة في هـــذا الوَقت المبكِّر من تاريخها، وحقيقة حياة القداسة المستمرة والعميقة الـــتي كانت تبدأ عقب المعموديَّة مباشرة وتمتد حتى نهاية العمر.

ففترة الإعداد للمعموديَّة هي فترة التَّوبة. أما ما بعد المعموديَّة فهي حياة القداسة والالتزام بعيش حياة جديدة في الإيمـــان، وأعمـــال الـــبر والتَّقوى، مع تجنُّب كامل للخطيئة. فكان مفهوم التَّوبة إذاً هو الاستمرار في الحالة التي حصل عليها المؤمن في المعموديَّة.

وفي مطلع القرن الثّاني الميلادي أي زمن ما بعـــد الآبـــاء الرُّسُـــل القدِّيسين مباشرة، نستطيع أن نتعرَّف على بعض الملامح البسيطة لممارسة سرّ التَّوبة من خلال كتابات الآباء الرَّسوليِّين؛ كليمنـــدس الرُّومـــاني، إغناطيوس الأنطاكي، رسالة برنابا، الدِّيداخي (تعليم الرُّسُـــل)، رســـالة بوليكاربوس، وكتاب "الرَّاعي هرماس".

فلقد ظلَّ الاعتراف بالخطايا في الثَّلاثة قرون الأولى علـــى الأقـــل اعترافاً علنياً أمام الكنيسة، لكي يمكن للتَّائب الذي ســـقط في إحـــدى الخطايا أن يعود إلى شركة الكنيسة مرَّة أخرى، وإلى حضنها.

في الدِّيداخي أي تعليم الرُّسُل

فأوَّل إشارة تصل إلينا عن ضرورة الاعتراف بالخطايا قبل التَّقدُّم لتناول الإفخارستيَّا نقرأ عنها في الدِّيداخي: "عند اجتماعكم يوم الرَّب، اكسروا الخبز واشكروا بعد أن تكونوا اعترفتم بخطاياكم، لكي تكون ذبيحتكم طاهرة" (ديداخي ١٤:١). وأيضاً: "اعترف بزلاّتك في الكنيسة، ولا تقرب صلاتك بضمير شرير" (ديداخي ٤:١٤).

وإن الخطايا التي تشير إليها الدِّيداخي هي على وجه الخصوص الخطايا التي ضد روح المحبَّة الأخويَّة، فتقول: "لا يجتمع معكم كل من له منازعة مع صاحبه حتى يتصالحا، لئلا تتنجَّس ذبيحتكم" (ديداخي ١٤:٢). وأيضاً: "وبِّخوا بعضكم بعضاً، لا بغضب بل بمودَّة، بحسب الإنجيل. وإذا أهان أحدٌ قريبه، فلا تكلِّموه أو تصغوا إليه حتى يتوب" (ديداخي ١٥:٣).

في رسالة برنابا

وتؤكِّد رسالة برنابا على نفس المعنى السَّابق، وهي من مدوَّنات النِّصف الأوَّل من القرن الثَّاني الميلادي[1]، فتقول: "لا تكن سبباً للشِّقاق. وطِّد السَّلامة بين المتخاصمين. اعترف بخطاياك. لا تذهب إلى الصَّلاة بضمير شرير. هذا هو طريق النُّور" (رسالة برنابا ١٩:١٢).

في رسائل القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي

أمَّا القدِّيس إغناطيوس الأنطاكي (٣٥-١٠٧م) حامل الإله وأسقف

١- وهي أوَّل كتابات معروفة لدينا حتى الآن تصدر من كنيسة الإسكندريَّة. أي أنها أوَّل كتابات مصريَّة الأصل.

أنطاكية، فيذكر في رسالته إلى أهل فيلادلفيا أن التّوبة تكتمل في وجود الأسقف أي في الكنيسة، ولكن الله هو الذي يغفر الخطايا، فيقول:

[الله يغفر لكل التّائبين بشرط أن تقودهم توبتهم إلى الله وإلى مجلس الأسقف. أؤمن بنعمة يسوع المسيح الذي يحلّكم جميعاً من كل قيد] (فيلادلفيا ٨:١).

إلاّ أن الشّهيد إغناطيوس لا يشير في رسائله إلى أسلوب إعلان الخاطئ عن توبته في الكنيسة واعترافه بخطاياه.

في رسالة كليمندس الرُّوماني

أمّا رسالة كليمندس الرُّوماني إلى أهل كورنثوس، وهي من مدوّنات أواخر القرن الأوّل الميلادي، فتشير إلى ضرورة الاعتراف بالخطايا، بدون أن توضّح هي الأخرى نظام هذا الاعتراف، وبدون أن تتوقّف عند مظهره الكنسي الطّقسي، فتقول: "أيها الإخوة إن معلّم المسكونة مجرّد من المنافع. إنه لا يطلب شيئاً من أحد إلاّ الاعتراف بخطاياه"[٢].

وتقول أيضاً: "من الأفضل أن يعترف الرَّجُل بخطاياه من أن يقسّي قلبه، كما تقسى قلب الذين ثاروا ضد موسى خادم الله. وكان العقاب مثيراً، أنهم نزلوا أحياء إلى الجحيم، فرعاهم الموت (مزمور ٤٨:١٥)"[٣].

ومع منتصف القرن الثّاني الميلادي سرعان ما ساد في الكنيسة جوٌّ من القلق والحيرة عن مصير الخطاة الذين يخطئون بعد المعموديَّة. وكان الفكر السّائد آنئذ يميل إلى عدم تجديد التّوبة على اعتبار أن المسيحي قد

2- *1Clem.* 52:1.
3- *Ibid.*, p. 51:3.

استنار وتنقى من خطاياه في المعموديَّة، فلا يجوز له بعد ذلك أن يسقط في الخطيئة. وإذا حدث أن وقع أحدهم في الخطيئة، فعليه أن ينتظر حكم الله ورحمته في الأبديَّة، إذ لا مجال للتَّوبة لمن تنقى ونال نعمة الاستنارة، وهو التَّعليم الذي وجد مشايعوه ما يؤيِّد رأيهم من رسالة العبرانيين. وهو ما سأعرض له تفصيلاً في السُّطور التَّالية.

تقسيم الخطايا وتصنيفها كتابياً وعند آباء الكنيسة

إن الجذور الأولى لتقسيم الخطايا إلى خطايا كبيرة وأخرى صغيرة، أو خطايا مميتة وأخرى غير مميتة، نجدها في سفر التَّكوين: «ثُمَّ دعا أبيمالك إبراهيم وقال له: ماذا فعلتَ بنا؟ وبماذا أخطأتُ إليك حتى جلبت عليَّ وعلى مملكتي **خطيئة عظيمة**» (تكوين ٢٠:٩).

وفي موضع آخر من نفس السِّفر نقرأ: «وقال الرَّب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر **وخطيئتهم قد عظمت جداً**» (تكوين ١٨:٢٠).

ويقول الرَّب في سفر إرميا النَّبي: «لأنه هكذا قال الرَّب كسرُكِ عديم الجبر، وجُرحك عضال. ليس من يقضي حاجتك للعصْر، ليس لكِ عقاقير رفادَه[٤]. قد نسيك كل محبيك. إيَّاك لم يطلبوا، لأني ضربتك ضربة عدو، تأديب قاسٍ، لأن إثمك قد كثر، **وخطاياك تعاظمت**. ما بالك تصرخين بسبب كسرِكِ. جرحك عديم البرء، لأن إثمك قد كثر **وخطاياك تعاظمت**. قد صنعتُ هذه بك» (إرميا ٣٠:١٢-١٥).

ويجعل السيِّد المسيح نفسه من خطيئة التَّجديف على الرُّوح القُدُس

٤- قطعة قماش يُعصب بها الجرح.

خطيئة غير قابلة للغفران فيقول: «لذلك أقول لكم، كل خطيئة وتجديف يُغفر للنَّاس. وأما التَّجديف على الرُّوح القُدُس فلن يُغفر للنَّاس. ومن قال كلمة على ابن الإنسان **يُغفر له**، وأما من قال على الرُّوح القُدُس، **فلن يُغفر له** لا في هذا العالم، ولا في الآتي» (متى ١٢:٣١، ٣٢).

ولستُ الآن بصدد شرح أو تفسير لهذه الآية السَّابقة، إذ لم يترك القدِّيس أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) اجتهاداً لأحد في تفسير معنى التَّجديف على الرُّوح القُدُس بعد أن شرحه شرحاً ملهماً في رسالته إلى القدِّيس سرابيون أسقف تمويس، ولكنني أعرض هنا للجذور الأولى التي قُسِّمت الخطايا بموجبها إلى خطايا قابلة للغفران، وأخرى غير قابلة للغفران.

ونقرأ عند القدِّيس يوحنا الحبيب بكل وضوح تقسيم الخطايا إلى خطايا مميتة، وأخرى غير مميتة. فيقول: «إن رأى أحد أخاه يخطئ خطيئة ليست للموت يطلب فيعطيه حياة للذين يخطئون ليس للموت. **توجد خطيئة للموت**، ليس لأجل هذه أقول أن يُطلب. كل إثم هو خطيئة. **وتوجد خطيئة ليست للموت**» (١يوحنا ٥:١٦، ١٧).

ولقد ورد في رسالة العبرانيين ثلاثة نصوص استغرقت من الكنيسة وآبائها جدلاً طويلاً، وهذه النُّصوص هي:

النَّص الأوَّل: «لأن الذين استنيروا مرَّة وذاقوا الموهبة السَّمائيَّة وصاروا شركاء الرُّوح القُدُس وذاقوا كلمة الله الصَّالحة وقوَّات الدَّهر الآتي وسقطوا، لا يمكن تجديدهم أيضاً للتَّوبة إذ هم يصلبون لأنفسهم ابن الله ثانية ويشهرونه. لأن أرضاً قد شربت المطر الآتي عليها مراراً كثيرة، وأنتجت عُشباً صالحاً للذين فُلِّحت من أجلهم تنال بركة من الله. ولكن إن أخرجت شوكاً وحسكاً فهي مرفوضة وقريبة من اللَّعنة التي نهايتها للحريق» (عبرانيين ٦:٤-٨).

النَّص الثَّاني: «فإنه إن أخطأنا باختيارنا بعدما أخذنا معرفة الحق، لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا، بل قبول دينونة مخيف، وغيرة نار عتيدة أن تأكل المضادين» (عبرانيين ١٠:٢٦-٢٨).

النَّص الثَّالث: «لئلا يكون أحد زانياً أو مستبيحاً كعيسو الذي لأجل أكلة واحدة باع بكوريَّته. فإنكم تعلمون أنه أيضاً بعد ذلك لمَّا أراد أن يرث البركة رُفض، إذ لم يجد للتَّوبة مكاناً، مع أنه طلبها بدموع» (عبرانيين ١٢:١٦، ١٧).

فيتَّضح هنا أن الرِّسالة إلى العبرانيين تتحدَّث عن الخطايا التي ليست لها مغفرة. وهو تعليم ظلَّ شائعاً في الكنيسة بقوَّة حتى ظهر كتاب "الرَّاعي هرماس"[٥]، وانتشر انتشاراً واسعاً، فدعَّم هذا الاتجاه، وهو ما سيرد شرحه بعد قليل.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن النُّصوص السَّابقة ليس فيها ما يؤكِّد أن الخطايا الكبيرة فقط هي الموجبة للموت، كما رأي بعض اللاهوتيِّين[٦]. لأنه عندما تحدَّث القدِّيس يعقوب الرَّسول في رسالته عن خطيئة المحاباة، اعتبر أن أي خطيئة هي تعدي النَّاموس، فيقول: «ولكن إن كنتم تحابون تفعلون خطيئة موبَّخين من النَّاموس كمتعدِّين. لأن من حفظ كل النَّاموس وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكُل» (يعقوب ٢:٩، ١٠).

والقدِّيس بولس الرَّسول نفسه لم يكن عنده تقسيم للخطايا بعضها كبير وبعضها الآخر صغير. فخطيئة الشَّتيمة مثلاً تتساوى عنده مع

5- Patachovsky & C. Vogel, *op. cit.*, p. 17.
6- *Ibid.*, p. 15-17.

خطيئة الزِّنا، كما أن الطّمع يوازي عبادة الأوثان[٧].

و لم يكن الرَّسول بولس هو أوَّل من قال بذلك؛ لأن خطيئة الشَّتيمة التي تظهر للكثيرين أنها خطيئة صغيرة كان عقابها في العهد القديم الموت إن وُجِّهت إلى الوالدين: «من شتم أباه أو أمه يُقتل» (خروج ٢١:٧). ويعود السيِّد المسيح في العهد الجديد ليذكِّر بنفس الوصيَّة قائلاً: «إن الله أوصى قائلاً: أكرم أباك وأمك. ومن يشتم أباً أو أماً فليمت موتاً» (متى ١٥:٤، ٥).

بل إن خطيئة الخوف أي عدم الإيمان والثِّقة في الرَّب، وهي من أخطر الخطايا التي يتعرَّض لها أولاد الله في حروبهم مع الشياطين، قد أُدرجت ضمن خطايا القتل والزِّنا. «وأما **الخائفون** وغير المؤمنين، والرَّجسون والقاتلون، والزُّناة والسَّحَرة وعبدة الأوثان، وجميع الكذبة فنصيبهم في البحيرة المتَّقدة بنار وكبريت، الذي هو الموت الثّاني» (رؤيا ٢١:٨).

وفي الحقيقة فإن قصَّة خاطئ مدينة كورنثوس تدل على أنه حتى الخطايا المميتة والخطيرة يمكن أن تُغفر. والسيِّد المسيح غفر خطيئة بطرس الذي أنكر معلّمه. ولا ننسى أن القدِّيس بطرس الرَّسول دعا اليهود إلى التَّوبة وهم أنفسهم الذين صلبوا الرَّب يسوع المسيح[٨].

ولستُ الآن بصدد إيراد كم هائل من آيات الكتاب المقدَّس تؤكِّد أن كل الخطايا تُغفر للنَّاس، لأن دم يسوع المسيح على الصَّليب يطهِّرنا من **كل خطيئة**[٩]، لأنني أحصر كلامي الآن عن المراحل التَّاريخيَّة التي عبر عليها موضوع "غفران الخطايا" في فكر الكنيسة، وعلى مدى تاريخها.

٧- ١كورنثوس ٥:١١ ؛ ١كورنثوس ٦:١٠
٨- أعمال ٢:٣٧
٩- ١يوحنا ١:٧

من كتاب الرَّاعي هرماس The Shepherd of Hermas

كان السُّقوط في الخطيئة بعد المعموديَّة في العصور الأولى للمسيحيَّة أمراً مُريباً إلى حد عدم السَّماح به كما رأينا في النَّصين الأوَّل والثَّاني من رسالة العبرانيِّين السَّابق ذكرهما. فقد كانت الكنيسة تنتظر من أعضائها التزاماً إيمانياً عميقاً، وانضباطاً دقيقاً كقول القدِّيس يوحنا الرَّسول: «نعلم أن كل من وُلد من الله لا يخطئ، بل المولود من الله يحفظ نفسه، والشِّرير لا يمسه» (يوحنا ١٨:٥).

ومن بين الكُتُب التي طرحت هذه المسألة بكل أبعادها كتاب "الرَّاعي هرماس The Shepherd of Hermas" – وهو من مدوَّنات منتصف القرن الثَّاني الميلادي – وهو أوسع ما وصل إلينا من كتابات الآباء الرَّسوليِّين. وبرغم أن الكتاب من جهة "تعاليمه" لا يلقى اليوم نفس الاهتمام القديم إلاَّ أنه ذات أهميَّة كبيرة لدراسة موضوع التَّوبة وغفران الخطايا في عصورها المبكِّرة. لأن ما أورده الكتاب عن سرّ التَّوبة قد أثَّر على ممارسات الكنيسة الشَّرقيَّة لهذا السِّر، وعلى امتداد بضع مئات تالية من السِّنين، إذ قد انتشرت تعاليمه في الشَّرق انتشاراً واسعاً. وإنه من الغريب حقاً أن الغرب المسيحي لم يعرف عن هذا الكتاب إلاَّ قليلاً برغم أنه كتاب قد تمَّ تأليفه في الغرب. ومع حلول القرن الرَّابع الميلادي نُسي الكتاب تماماً في الغرب كما يشهد بذلك القدِّيس إيرونيموس[١٠].

إن محور الكتاب يدور حول الخطر الذي يحدق بالكنيسة بسبب استفحال الخطيئة. ويدعو إلى التَّوبة لأن النهاية قريبة. وبرغم أن "هرماس" يكرز بالتَّوبة، إلاَّ أن عنده بعض التَّشدُّد إزاء تتميمها. وهو يرى أن التَّوبة لا تكون إلاَّ في المعموديَّة، لأن بالمعموديَّة ننال مغفرة

10- *De Vir.*, il.10.

خطايانا السّابقة. وفي الحقيقة إن من يطالع هذا الكتاب جيداً يجد أن نظرته للمعموديَّة هي نظرة لا تتعدى كثيراً غفران الخطايا. وهي نظرة غير شاملة لمفهوم المعموديَّة كولادة جديدة من الله وفي الله. ثمّ يسمح الكتاب بصورة استثنائيَّة لتوبة واحدة فقط بعد المعموديَّة[١١].

وإليك جانباً مما ورد في هذا الكتاب:

"أيمكنُني يا سيِّدي أن أسألك سؤالاً آخر؟ قال: قل. قلتُ: سمعتُ بعض المعلّمين يقولون إنه لا توبة إلاّ التّوبة التي نلناها بعد المعموديَّة، حيث نلنا مغفرة الخطايا. قال: صحيح ما سمعت. وهذه هي الحقيقة بعينها. لا يجوز لمن غُفر له أن يخطئ. عليه أن يبقى في النَّقاوة. لكن ما دمتَ تحب أن تتحقّق من كل شئ فاسمع ما أقول لك.

لا تفسح المجال للذين آمنوا الآن وسيؤمنون. لأن الذين آمنوا الآن وسيؤمنون قد غُفرت لهم خطاياهم السَّابقة التي قبل المعموديَّة. المعموديَّة تغفر الخطايا، والمخلّص وضع التّوبة للذين آمنوا قبل هذه الأيام، لأنه وهو العارف خفايا القلوب، والمالئ الكل، رأى الضَّعف البشري، ورأى أحابيل الشيطان والشِّباك التي يحاول أن يوقع فيها خليقته. لذا تحنَّن برحمته وأوجد التّوبة، وأُعطيت لي سلطتها.

إني أقولُ لك: إن الإنسان يخطئ خطيئة كُبرى إذا وقع في التَّجربة بعد تلك الدَّعوة العظيمة الشَّريفة. للإنسان توبة واحدة. أمَّا إذا أخطأ ثانية وتاب فتوبته باطلة، ومن الصَّعب أن يجد الحياة"[١٢].

ويقول في موضع آخر: "لقد حلف الرَّب بمجده أنه إذا استمر مختاروه بعد اليوم في خطيئتهم، فلن يكون لهم خلاص. للتّوبة نهاية عند

١١- الوصيَّة ٤:٣

١٢- الوصيَّة الرَّابعة ٣:١-٦

الصدِّيقين. يوم التَّوبة للصدِّيقين تقترب نهايته، أمَّا توبة الأمم فتستمر حتى اليوم الأخير"[١٣].

"حلف الرَّب بابنه أن الذين ينكرون المخلِّص بعد الآن يتجاهلهم، ويُحرمون من الحياة. أمَّا الذين أنكروه قبلاً فالمجال أمامهم مفتوح. والله يستقبلهم برحمته إذا ما ندموا وتابوا"[١٤].

ويتَّفق العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م) مع الرَّاعي هرماس على أنه ليست هناك سوى توبة واحدة بعد المعموديَّة، فيقول:

[إن الله برحمته العظيمة قد أغدق على الذين حصلوا على الإيمان ووقعوا في الخطيئة، بتوبة ثانية][١٥].

ومع كل ذلك يبدو أن "الرَّاعي هرماس" في سماحه بتوبة واحدة بعد المعموديَّة كان يعني في ذلك التَّوبة عن الخطايا الكبيرة فقط، لأنه في مواضع أخرى من الكتاب يشير إلى إمكانيَّة تكرار التَّوبة غير مرَّة. فيقول في ذلك: "أولئك الذين تردَّدوا في توبتهم، وسبَّبوا شقاقات، فالتَّوبة تبقى قائمة بالنِّسبة لهم، لأنهم كانوا دائماً صالحين"[١٦].

ويقول أيضاً: "كل من يتوب قلبياً، وينقِّي ذاته من الخطايا التي سبق وأشرت إليها، ويبتعد عن فعل الخطيئة، ينال الشِّفاء من الرَّب ويحيا في الله إذا طبَّق وصاياه بدون تردُّد. أما الذين يضاعفون خطاياهم

١٣- الرؤيا الثَّانية ٤:٥

١٤- الرؤيا الثَّانية ١:٨

15- Quasten J., *Initiation aux Pères de l'Eglise*, t. 1, Trad. par J. Laporte, Cerf, Paris, 1955, p. 45.

١٦- المثل الثَّامن ١٠:٢

ويستمرون في شهواتهم فسيُحكم عليهم بالموت"[١٧].

ويرى كتاب "الرّاعي هرماس" أن التّوبة هي الحياة. وأن عدم التّوبة هو الموت[١٨]. والذين لا يتوبون فموتاً يموتون[١٩].

ويقول أيضاً: "إنك تعرف هذه الوصايا، فاسلك وفقاً لها وعلّم الآخرين أن يسلكوا كذلك. وأطلب أن تكون توبتهم طوال حياتهم نقيَّة خالصة"[٢٠].

ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نغفل أنه برغم أن قائمة الخطايا الكبيرة في "الرّاعي هرماس" تتضمّن الزّنا والقتل والارتداد والفسق وإدمان الخمر والسّرقة والغش وشهادة الزّور والتّجديف والرّياء[٢١]، إلاّ أنه يقول صراحة: "إننا إذا تمنّعنا عن فعل الخير فإننا نرتكب خطيئة كُبرى". ثمّ يورد قائمة بالشّرور التي يجب أن نعف عنها. ويضع خطايا الاغتياب والحقد والشّتيمة والطّمع والمجد الباطل والتّعالي والكبرياء والكذب جنباً إلى جنب مع خطايا الزّنا والفجور والعربدة ... الخ[٢٢]. بل إن النيّة الشّريرة قد حُسبت في كتاب "الرّاعي هرماس" خطيئة كبيرة[٢٣]. مما يجعلنا لا نستطيع القطع بأنواع الخطايا التي كان لا يُسمح أن يقدم عنها توبة إلاّ مرّة واحدة، والخطايا الأخرى التي كان يمكن أن تقدّم عنها توبة متكرّرة.

ويرى هرماس أن التّائب لا تُغفر خطاياه في الحال، ولكن يلزمه أن

١٧- المثل الثّامن ٣:١٤
١٨- المثل الثّامن ٦:٦
١٩- المثل الثّامن ٣:٧
٢٠- الوصيّة ٢:٣:١٢

21- Patachovsky & C. Vogel, *op. cit.*, p. 22, 23.

٢٢- الوصيّة الثامنة ٣-٥
٢٣- الرؤيا الأولى ٨:١

يمارس أعمال إماتات كثيرة، فيقول: "... أتعتقد أن خطايا التَّائبين تُغفر فوراً؟ على التَّائب أن يفرض الألم على نفسه، وأن يكون متواضعاً في أعماله، وأن يتألَّم آلاماً متعدِّدة، فإذا تحمَّل بصبر العذاب الذي يصيبه، فخالق الكون يرأف به، ويشفيه من كل شروره. لأنه يعرف مكنونات القلوب، وينظر إليه ويتفحَّص نقاوته. فمن صالحك أن تتعذَّب أنت وأهل بيتك ... عليك أن تشكر الله لأنه بآلامك هذه نبَّهك وعلَّمك"[٢٤].

وفي موضع آخر يقول: "إن الخاطئ يتعقَّل عندما يدرك أنه فعل شراً أمام الله، فيذكر العمل الشِّرير الذي صعد إلى قلبه ويتوب، ويمتنع عن عمل الشَّر، وليس هذا فقط، بل يفعل الخير ويضع نفسه، ويعذِّبها لأنها أخطأت"[٢٥]. ولا ينبغي أن نغفل أن الكتاب هو تأليف غربي.

خلاف فكري حول الخطايا التي تُغفر والتي لا تُغفر

لقد ظلَّ موضوع تقسيم الخطايا إلى خطايا مميتة وأخرى غير مميتة، وخطايا يمكن غفرانها وخطايا لا تُغفر، يُشغل فكر الكنيسة حتى إلى ما بعد القرن الثَّالث الميلادي. وكان هناك من يقول إن خطايا "الارتداد والقتل والزِّنا" هي خطايا لا يمكن غفرانها، وكان من بين هؤلاء العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)، وهيبوليتس الرُّوماني الذي عاصر العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م). وفي المقابل كان هناك رأي آخر يعارض ذلك، ومن بين هؤلاء العلاَّمة أوريجانوس، والبابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٥م). وما اعتبره العلاَّمة ترتليان خطايا غير قابلة للغفران، اعتبره العلامة أوريجانوس خطايا يمكن أن تُغفر. وهذا الجدل بين هؤلاء وأولئك استغرق من الكنيسة جهداً وزمناً طويلَين.

٢٤- المثل السابع، ٤، ٥

٢٥- الوصيَّة الرابعة ٢:٢

ويستمرون في شهواتهم فسيُحكم عليهم بالموت"[١٧].

ويرى كتاب "الرَّاعي هرماس" أن التّوبة هي الحياة. وأن عدم التّوبة هو الموت[١٨]. والذين لا يتوبون فموتاً يموتون[١٩].

ويقول أيضاً: "إنك تعرف هذه الوصايا، فاسلك وفقاً لها وعلّم الآخرين أن يسلكوا كذلك. وأطلب أن تكون توبتهم طوال حياتهم نقيَّة خالصة"[٢٠].

ولكننا مع ذلك لا يمكننا أن نغفل أنه برغم أن قائمة الخطايا الكبيرة في "الرَّاعي هرماس" تتضمَّن الزِّنا والقتل والارتداد والفسق وإدمان الخمر والسَّرقة والغش وشهادة الزُّور والتَّجديف والرِّياء[٢١]، إلاّ أنه يقول صراحة: "إننا إذا تمنَّعنا عن فعل الخير فإننا نرتكب خطيئة كُبرى". ثمّ يورد قائمة بالشُّرور التي يجب أن نعف عنها. ويضع خطايا الاغتياب والحقد والشَّتيمة والطَّمع والمجد الباطل والتَّعالي والكبرياء والكذب جنباً إلى جنب مع خطايا الزِّنا والفجور والعربدة ... الخ[٢٢]. بل إن النيَّة الشِّريرة قد حُسبت في كتاب "الرَّاعي هرماس" خطيئة كبيرة[٢٣]. مما يجعلنا لا نستطيع القطع بأنواع الخطايا التي كان لا يُسمح أن يقدم عنها توبة إلاّ مرَّة واحدة، والخطايا الأخرى التي كان يمكن أن تقدَّم عنها توبة متكرِّرة.

ويرى هرماس أن التَّائب لا تُغفر خطاياه في الحال، ولكن يلزمه أن

١٧- المثل الثّامن ٣:١٤
١٨- المثل الثّامن ٦:٦
١٩- المثل الثّامن ٣:٧
٢٠- الوصيَّة ٢:٣:١٢
21- Patachovsky & C. Vogel, *op. cit.*, p. 22, 23.
٢٢- الوصيَّة الثامنة ٣-٥
٢٣- الرؤيا الأولى ٨:١

يمارس أعمال إماتات كثيرة، فيقول: "... أتعتقد أن خطايا التَّائبين تُغفر فوراً؟ على التَّائب أن يفرض الألم على نفسه، وأن يكون متواضعاً في أعماله، وأن يتألَّم آلاماً متعدِّدة، فإذا تحمَّل بصبر العذاب الذي يصيبه، فخالق الكون يرأف به، ويشفيه من كل شروره. لأنه يعرف مكنونات القلوب، وينظر إليه ويتفحَّص نقاوته. فمن صالحك أن تتعذَّب أنت وأهل بيتك ... عليك أن تشكر الله لأنه بآلامك هذه نبَّهك وعلَّمك"(٢٤).

وفي موضع آخر يقول: "إن الخاطئ يتعقَّل عندما يدرك أنه فعل شراً أمام الله، فيذكر العمل الشِّرير الذي صعد إلى قلبه ويتوب، ويمتنع عن عمل الشَّر، وليس هذا فقط، بل يفعل الخير ويضع نفسه، ويعذِّبها لأنها أخطأت"(٢٥). ولا ينبغي أن نغفل أن الكتاب هو تأليف غربي.

خلاف فكري حول الخطايا التي تُغفر والتي لا تُغفر

لقد ظلَّ موضوع تقسيم الخطايا إلى خطايا مميتة وأخرى غير مميتة، وخطايا يمكن غفرانها وخطايا لا تُغفر، يُشغل فكر الكنيسة حتى إلى ما بعد القرن الثَّالث الميلادي. وكان هناك من يقول إن خطايا "الارتداد والقتل والزِّنا" هي خطايا لا يمكن غفرانها، وكان من بين هؤلاء العلاَّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م)، وهيبوليتس الرُّوماني الذي عاصر العلاَّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م). وفي المقابل كان هناك رأي آخر يعارض ذلك، ومن بين هؤلاء العلاَّمة أوريجانوس، والبابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٥م). وما اعتبره العلاَّمة ترتليان خطايا غير قابلة للغفران، اعتبره العلامة أوريجانوس خطايا يمكن أن تُغفر. وهذا الجدل بين هؤلاء وأولئك استغرق من الكنيسة جهداً وزمناً طويلَين.

٢٤- المثل السابع، ٤، ٥

٢٥- الوصيَّة الرابعة ٢:٢

فالعلامة ترتليان يقسِّم الخطايا إلى مجموعتين[٢٦]:

خطايا يوميَّة يمكن أن تُغفر بواسطة الكنيسة، وينال الخاطئ الصَّفح عنها بواسطة الأسقف، وهي الغضب، الاشتراك في الحرب، اللّعن، القسَم، الكذب، سباق الخيل، الاشتراك في المصارعات.

وخطايا أخرى لا يمكن أن تُغفر، ويُترك الحُكم فيها لله وهي: القتل، عبادة الأصنام، السَّرقة، الارتداد، التَّجديف، الفسق، الدَّعارة، الزِّنا، الفجور، شهادة الزُّور.

وفي الحقيقية فإن قائمة العلاّمة ترتليان في تصنيف الخطايا، لم تستوعب كل الخطايا. ولكن ما يهمنا الإشارة إليه هو أن سر التَّوبة في زمن ترتليان، أي في النِّصف الثّاني من القرن الثّاني وأوائل الثّالث، كان كثير الاستخدام، وأصبح نظاماً كنسياً. فيشرح العلاّمة ترتليان (١٦٠-٢٢٥م) كيف ينال الخاطئ الحل من الكنيسة بعد اعترافه بخطاياه، جالساً على الرَّماد، ولابساً المسوح، ويكون طعامه الخبز والماء فقط.

أمَّا العلاّمة أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م) أي في النِّصف الأوَّل من القرن الثّالث الميلادي فقد ميَّز بين الخطايا الرَّئيسيَّة الثّلاث؛ عبادة الأوثان، الزِّنا، الدَّعارة، وهي الخطايا التي يمكن غفرانها مرَّة واحدة في الحياة. وبين الخطايا العرضيَّة التي يمكن أن تُمحى بسهولة بواسطة الصَّلاة والصَّوم[٢٧]. وكان أوريجانوس يجيز للخاطئ أن يقر بخطاياه أمام الأسقف على مرأى من الجماعة، بشرط أن يمضي وقتاً في الصَّوم والصَّلاة والتقشُّف يحدِّده الأسقف بنفسه.

26- *De Paenit*, VII, 10

27- Cayre A.A., *Précis de patrologie*, t. 1, *Descleé et cie*, 1927, p. 206.

غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩-٣٨٩م) في دحض هذا الرأي:

[إذا كان الأمر كذلك، إذاً لرُفضت توبة داود ونُزعت عنه نعمة النبوَّة، ورُفضت أيضاً توبة بطرس ولَما عاد إلى رتبته الأولى][٢٩].

وفيما بعد قال ابن العبري (١٢٢٥-١٢٨٦م) أيضاً في ذلك: "لو كان غفران الخطايا محصوراً بالمعموديَّة وحدها، لكان اعتراضكم صحيحاً، والحال أن الأمر ليس كذلك، فإن غفران الخطايا ليس محصوراً بالمعموديَّة، بل بوسائل أخرى كالدُّموع والآلام والأصوام والصَّلوات وما أشبه. وأفضل الطُّرق جميعاً الاستشهاد".

ويرى الأسقف الأنطاكي ابن العبري (١٢٢٥-١٢٨٦م) "أن خطيئة الموت هي التي يموت بسببها الإنسان بدون أن يتوب. أما غفران الخطايا الذي نحن بصدده فيجب أن يكون مقروناً بالتَّوبة التي تُعتبر شرطاً أساسياً له"[٣٠].

وعلى الرَّغم من أن الرأي المعتدل الذي رفض القول بوجود خطايا لا يمكن غفرانها هو الذي ساد أخيراً، إلاَّ أن الجدل الذي ثار بسبب هذا الموضوع ترك آثاره واضحة على الأحكام المتشدِّدة والصَّعبة في قبول توبة الرَّاجعين إلى الإيمان، والذين كانوا قد ارتدوا تحت ضغط التَّعذيب، كما نقرأ ذلك على سبيل المثال في قوانين مجمع قرطاجنة سنة ٢١٢م.

ومع مرور القرون المتتابعة، ومع حلول القرون الوُسطى، بدأ الحديث عن أنواع الخطايا، وتقسيمها إلى خطايا كبيرة وأخرى صغيرة،

٢٩- نفس المرجع، ص ١١١

٣٠- المطران سويرس زكا عيواص، والأب الرَّبان اسحق ساكا، مرجع سابق، ص ١١٣

يتوارى في الشَّرق المسيحي حتى توقّف تماماً، إذ لم يكن منبت هذا التَّقسيم نابعاً من الشَّرق أصلاً، ولكنه ظلّ حتى اليَوم في الكنيسة الغربيَّة الكاثوليكيَّة، التي لا زالت تقسِّم الخطايا إلى خطايا مميتة أو ثقيلة، وخطايا عرضيَّة[٣١].

فبحسب تعليم الكنيسة الكاثوليكيَّة، فإن **الخطيئة المميتة** هي كل خطيئة مادتها ثقيلة، ويرتكبها الإنسان بكامل وعيه، وبقصد صادر عن رويَّة. والمادة الثَّقيلة توضِّحها الوصايا العشر بحسب جواب يسوع للشَّاب الغني: «لا تقتل، لا تزن، لا تشهد بالزُّور، لا تتعد على أحد، أكرم أباك وأمك» (مرقس ١٠:١٩). والخطيئة متفاوتة في جسامتها: فالقتل أعظم من السَّرقة. وصفة الأشخاص الذين لحق بهم الأذى تُحسب أيضاً: فممارسة العنف على الأقرباء هي بحد ذاتها جسيمة أكثر منها على الغرباء.

أمَّا **الخطيئة العرضيَّة** فهي تُضعف المحبَّة. إنها تعني تعلُّقاً منحرفاً بالخيرات المخلوقة، وتمنع تقدُّم النَّفس في ممارسة الفضائل والصَّلاح الأخلاقي. فتستأهل عقوبات زمنيَّة. والخطيئة العرضيَّة لا تقطع العهد مع الله، وهي قابلة للإصلاح بنعمة الله.

ولكن تعود الكنيسة الكاثوليكيَّة فتقول: ما من خطيئة، مهما كانت ثقيلة إلاَّ وتستطيع الكنيسة مسامحتها[٣٢].

ملامح ممارسة سرّ التَّوبة والاعتراف في القرن الثَّالث وما بعده

لدينا شهادة غالية القيمة أوردها يوسابيوس القيصري (٢٦٠-٣٤٠م)

٣١- التَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة، مرجع سابق، ص ٥٤٦-٥٤٨

٣٢- نفس المرجع، ص ٣٠٤

في تاريخه الكنسي (٦:٤٣:١٠) عن أحد الآباء الأساقفة البسطاء الـذي غُرِّر به حتى قام برسامة مزيَّفة لواحد من الهراطقة مقطوع بمجمع كنسي في روما، هو نوفاتوس الهرطوقي. وكيف أن اعتراف الأسقف كان علنياً في الكنيسة أمام الشَّعب كله. فيقول يوسابيوس:

[... وبعد ذلك بوقت قصير عاد إلى الكنيسة أحد هؤلاء الأساقفة باكياً ومعترفاً بتعديه. ونحن تحدَّثنا معه كما إلى أحد العلمانيِّين. وتشفَّع من أجله كل الشَّعب الحاضرين ...].

ويروي يوسابيوس قصَّة أخرى عن الإمبراطور فيليب قيصر، وكان مسيحياً، وكان قد ارتكب جرائم كثيرة، فيقول عنه يوسابيوس:

[... وأراد أن يشترك مع الشَّعب في الصَّلاة بالكنيسة ليلة عيد الفصح. فلم يسمح له رئيس الكنيسة وقتئذ بالدُّخول إلاَّ بعد أن يعترف ويعتبر نفسه ضمن الخطاة الذين يقفون موقف التَّائبين. ولو لم يفعل هذا لما كان قد قبله بسبب الجرائم الكثيرة التي ارتكبها. ويُقال إنه أطاع في الحال، مظهراً بمسلكه خوفاً حقيقياً نقياً لله][٣٣].

إن الخاطئ الذي يبغي دخول الكنيسة والاشتراك في سرّ الرَّحمة لا يولي التفاتاً لرأي النَّاس، فهو مثل بارتيماوس الأعمى، يظل يصرخ بملء صوته: «يا يسوع بن داود ارحمني» (مرقس ١٠:٤٦). وكلَّما زجره الكثيرون ليسكت، يزداد صراخاً: يا ابن داود ارحمني. ولما كان صراخه في طلب الرَّحمة محصوراً في رغبته بأن يبصر، قال له يسوع: «اذهب إيمانك خلَّصك، فللوقت أبصر وتبعه في الطَّريق». فإيمانه هو الذي خلَّصه وليس صراخه، أمَّا صراخه فكان تعبير إيمانه.

٣٣- تاريخ الكنيسة ليوسابيوس، مرجع سابق، ٦:٣٤:٢-٤

وهكذا الخاطئ الذي تعيقه الخطيئة عن نور النِّعمة، عندما يصرخ طالباً الرَّحمة، لا يكف عن الصُّراخ حتى يشرق على قلبه نور يسوع. وإذ يبصر نور الحياة يتبع يسوع، الطَّريق الحقيقي للحياة.

وعموماً يمكننا القول أن طقس التَّوبة في القرن الثَّالث الميلادي قد استمر بأسلوب الاعتراف العلني أمام الجماعة بالخطايا الكبيرة. واستبعد الإقرار العلني عن الخطايا اليوميَّة الصَّغيرة[٣٤]. ومن أجل ذلك لا نعدم أدلَّة تاريخيَّة في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة تشير إلى أن الاعتراف بالخطايا في كنيسة شمال أفريقيا لم يكن علنياً فقط، بل كان هناك أيضاً اعتراف بالخطايا على الكاهن. وفي ذلك يقول القدِّيس كبريانوس الشَّهيد (+ ٢٥٨م) أسقف قرطاجنة:

> [كم هو حي ذلك الإيمان في الذين جاءوا بكل سذاجة وتوجُّع قلب، فاعترفوا بخطيئتهم إلى كهنة الله، وكشفوا لهم ضمائرهم، وألقوا ثقلها على أقدامهم، والتمسوا دواء خلاصياً لجراحاتهم].

لقد كان الاعتراف العلني في الكنيسة الأولى بين الجماعة وأمام الشُّيوخ أي أمام الكنيسة هو التَّعبير عن التَّوبة. فالإفصاح عن الخطايا كان يتم أمام الجماعة كلها، لأن الإنسان يتوب أمام الله وأمام الإخوة. ومع فتور الحياة المشتركة بين الجماعة الكنسيَّة رويداً رويداً، وتفكُّك مفهوم وحدة الرَّعيَّة، وبالتَّالي تسرُّب الضَّعف الرُّوحي بينها، توقَّف الاعتراف العلني في الكنيسة.

وما لبث أن انحصر مفهوم التَّوبة بعد ذلك في قبول المرتدِّين عن

34- Patachovsky & C. Vogel, *op. cit.*, p. 24-25.

الإيمان في زمن الاضطهاد. ولم تكن هذه القضيَّة سهلة هيِّنة في اتخاذ قرار واحد بشأنها، لأنها أقلقت الكنيسة الجامعة زمناً ليس بقصير. فقد كان هناك من يرفض قبول من خان المسيح وجحد الإيمان خوفاً من الموت، مثل نوفاتوس الهرطوقي الذي كان يعلّم بأنه لم يعد لهؤلاء أي رجاء في الخلاص، حتى ولو عملوا كل ما يتَّصل بالتَّجديد الحقيقي النَّقي[٣٥]. وكان آخرون مثل البابا الإسكندري ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٥م) البطريرك الرَّابع عشر من بطاركة الكنيسة القبطيَّة، والقدِّيس كبريانوس الشَّهيد (+ ٢٥٨م) أسقف قرطاجنة يشدِّدون على أن الكنيسة لم تعرف منذ زمن الرُّسُل خطايا لا تُمحى، فكانوا يحثون المسيحيِّين الذين سقطوا تحت وطأة الاضطهاد أو التَّهديد به، يحثونهم على التَّوبة ليقبلوهم من جديد في شركة الكنيسة.

ويقول البابا ديونيسيوس الكبير (٢٤٨-٢٦٥م) في ذلك:

[... وهؤلاء الشُّهداء المباركون الذين بيننا، الجالسون مع المسيح الآن، شركاء ملكوته، وشركاء في الدَّينونة، ويدينون معه، قد قبلوا بعض الإخوة الذين سقطوا، واهتموا بجريمة الذَّبح للأوثان. فلمَّا أدركوا أن تجديدهم وتوبتهم كافيان ليُقبلا أمام ذاك الذي لا يشاء موت الخاطئ قط، بل توبته، اختبروهم فقلبوهم ثانية. وأعادوهم والتقوا بهم واشتركوا معهم في الصَّلوات والولائم.

فأيَّة نصيحة تقدِّمونها إلينا أيها الإخوة عن مثل هؤلاء الأشخاص؟ ماذا نفعل؟ هل نعطي نفس الحُكم الذي أعطوه، ونراعي قرارهم ومحبَّتهم، ونظهر الرَّحمة لمن أشفقوا عليهم؟ أم نعلن بأن قرارهم ظالم، ونقيم أنفسنا كقضاة لرأيهم، ونتحدَّى

٣٥- تاريخ الكنيسة ليوسابيوس، مرجع سابق، ٦:٤٣:١

الرَّحمة ونقلب النِّظام؟][٣٦].

ومن أجل ذلك نقرأ في قانون الرُّسل رقم (٥٢): "أي أسقف أو قسِّيس أو شماس لم يرد أن يقبل من يرجع عن خطيئته، فليُقطع لأنه آلم قلب الرَّب القائل إنه يكون فرح في السَّماء بخاطئ واحد يتوب"[٣٧].

لقد كان يُطلب من هؤلاء الذين ارتدّوا على الإيمان أو الذين قدَّموا شهادات كاذبة تفيد بأنهم ضحّوا للأصنام، أن يخضعوا لتأديبات كنسيَّة قبل قبولهم في الكنيسة تنحصر في صوم وصلاة وميطانيات وتضرُّعات وصدقات، وهو ما كان يُفرض على من ارتكب إحدى الخطايا الثّلاث الكُبرى؛ القتل والزِّنا والارتداد إلى الوثنيَّة.

إن مفهوم التَّوبة في أصوله الأولى هو سرّ المصالحة مع الكنيسة، والعودة إلى شركة الجماعة وإلى حياتها. فالتَّوبة هي لكل أعضاء الجسد الواحد، ومن هذا المنطلق صارت مطلوبة من المرتدين عن الإيمان، الذين عزلوا أنفسهم عن شركة الكنيسة.

وتعد رسالة القدِّيس غريغوريوس العجائبي (٢١٣-٢٧٠م) القانونيَّة من أهم المصادر القديمة في القرن الثالث الميلادي لفهم موضوع التَّوبة. فقد حظي غريغوريوس العجائبي بمكانة كبيرة عند القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)، والقدِّيس غريغوريوس النيسي (٣٣٥-٣٩٥م)، والقدِّيس غريغوريوس النزيتري (٣٢٩-٣٨٩م) المعروف باللاهوتي. ويعتبر القدِّيس غريغوريوس العجائبي تلميذاً وفياً مخلصاً لأستاذه العلاَّمة المصري أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م).

٣٦- نفس المرجع السَّابق، ٦:٤٢:٥، ٦

٣٧- وهو يقابل القانون رقم (٣٦:٢) من قوانين الرُّسل، بحسب التَّقليد القبطي.

ولقد حضر القدّيس غريغوريوس العجائبي مجمع أنطاكية المكاني (٣٤١م) والذي عُقد ضد بولس السّاموساطي، وكان معاصراً للبابا ديونيسيوس الكبير. فرسالته القانونيَّة Επιστολὴ κανονικὴ غزيرة في مادتها فيما يختص بتعليم التَّوبة في الكنيسة الأولى[٣٨]. وكان قد كتبها سنة ٢٦٢م، وقُسِّمت هذه الرِّسالة إلى اثني عشر قانوناً، وهي تختص بالذين أكلوا من ذبائح الأصنام، وسقطوا في خطايا متنوِّعة أثناء هجوم البرابرة الغوطيين على منطقة البنطس عند البحر الأسود.

أما القانون رقم (١٢) والذي يُظن أنه إضافة لأحد النُّسَّاخ على قوانين القدِّيس غريغوريوس العجائبي، فمأخوذ من القانون رقم (٧٥) من قوانين القدِّيس باسيليوس الكبير، حيث يورد القانون المذكور خمس درجات في الكنيسة يتدرَّج فيها التَّائبون حتى يمكنهم الاشتراك مرَّة أخرى في الأسرار المقدَّسة، وهي درجات: الباكين على خطاياهم خارج أبواب الكنيسة. والسَّامعين داخل مكان الصَّلاة في الرواق مع الموعوظين. والرَّاكعين داخل باب الكنيسة. والمشاركين في الصَّلاة مع الذين يتناولون الأسرار المقدَّسة بدون أن يتناولوا. ثمّ أخيراً المشتركين في الأسرار المقدَّسة[٣٩].

من سيرة البابا ديمتريوس الكرَّام

ومن سيرة ديمتريوس الكرَّام (١٨٩-٢٣١م) الـ ١٢ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة نقرأ: "أنه إذا كمَّل القدَّاس ومن قبل أن يقرِّب أحداً من الشَّعب ينظر السيِّد المسيح يدفع القربان بيده فإذا تقدَّم إنسان لا يستحق أن يتناول السَّرائر أظهر له السيِّد المسيح ذنبه ولا يقرِّبه فيعترف بخطيئته ويؤنِّبه عليها ويقول له تنحَّ عن خطيئتك التي تفعلها وحينئذ تأتي لتأخذ

38- ODCC, 2nd edition, p. 601.

٣٩- حنانيا كساب، مجموعة الشَّرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٨٧٧

السَّرائر المقدَّسة وأقام على هذا مدَّة طويلة حتى أن المؤمنين كانوا بالإسكندريَّة لا يخطئون خوفاً من هذا البطرك لئلا يفضحهم ...“[٤٠].

40- Seybold, C.F., *Severus Ben El-Moqaffa, Historia Patriacharum Alexandrinorum*, 1,1, CSCO, vol. 52, Scriptorum Arabici, Tomus 8, Louvain, 1962, p. 26.

الفَصل الثَّالث

بعد منشور ميلان سنة ٣١٢م

وحتى نـــهاية القرن السَّادس الميلادي

تمهيد

بدأت حدَّة التَّشديدات والتَّأديبات التي كانت تُفرض على التَّائبين تخف قليلاً عن ذي قبل، ولكنها مقارنة بالقرون التَّالية كانت لا تزال صارمة. فنقرأ في القانون رقم (١١) لمجمع نيقية المسكوني الأوَّل سنة ٣٢٥م ما يفيد بأن الكنيسة كانت تعامل بالشَّفقة الذين سقطوا تحت وطأة الإكراه أو سلب أموالهم، أو التعرُّض للخطر من كل نوع في اضطهاد ليكينيوس إمبراطور الغرب[1]، وزوج قسطنديه أخت قسطنطين الكبير. فيقول القانون المذكور:

"... أمَّا الذين سقطوا دون إكراه وبدون سلب أموالهم، ومن غير أن يتعرَّضوا لخطر أو ضيق أثناء اضطهاد ليكينيوس، فالمجمع يعلن أنهم وإن كانوا لا يستحقون الشَّفقة، فيجب أن يعاملوا بلطف. فالذين يتوبون ممن كانوا من المؤمنين سابقاً توبة صادقة، يُفرض عليهم ثلاث سنوات مع السَّامعين، وسبع سنوات مع الرَّاكعين، وسنتان مع المشتركين في الصَّلوات بدون أن يحق لهم الشَّركة في القربان المقدَّس".

أي أن عقوبتهم في مجملها هي اثنتي عشرة سنة لا يشتركون في أثنائها في تناول القُربان المقدَّس. وهو ما يشير إليه القانون "المعاملة بلطف"، مما يوضِّح لنا ما يمكننا قراءته من بين السُّطور، أنه في الماضي لم يكن هؤلاء الذين جحدوا الإيمان يستحقون أي شفقة من الكنيسة على

١- يصف يوسابيوس القيصري في تاريخه الكنسي (٨:١٠) شروره واضطهاده للكنيسة اضطهاداً عنيفاً، حيث هرب بموجبه المسيحيُّون، حتى غصَّت بهم الحقول والصَّحارى والجبال والغابات.

اعتبار أن جحد الإيمان هو واحد من الخطايا الكبيرة.

وإن ما يلفت النَّظر في القانون السَّابق ذكره هو عبارة "فالذين يتوبون ممن كانوا من المؤمنين سابقاً توبة صادقة ... الخ"، بدون أن يحدِّد أسلوب التَّوبة أو نظامها، والذي كان يتَّبعه المؤمنون الذين أخطأوا.

ولعل القانون الثَّاني من قوانين مجمع اللاذقيَّة (٣٤١-٣٨١م) الذي عُقد بعد حوالي أربعين سنة من انعقاد مجمع نيقية المسكوني الأوَّل يفسِّر لنا تلك العبارة حيث يقول:

"إن الذين وقعوا في زلاَّت مختلفة، وواظبوا على صلوات الاعتراف والتَّوبة بعد أن تحرَّروا من خطاياهم تماماً، يجب قبولهم ثانية في الشَّركة حسب مراحم الله وصلاحه، بعد قضائهم الوقت المعين للتَّوبة حسب أنواع المخالفات".

ويقول العالم هيفيليه Hefele (١٨٠٩-١٨٩٣م) إن العالم فان إسبن Van Espen (١٦٤٥-١٧٢٨م) قد أصاب في تفسيره لعبارة "صلوات الاعتراف والتَّوبة" على أنها صلوات اعتراف وتوبة أمام الله في حضور الشَّعب بما ارتكبه الخاطئ من خطايا[٢]. أي اعتراف وتوبة علنيَّة في الكنيسة.

نموذج مصري قديم لصلاة اعتراف وتوبة

وإن واحدة من صيغ صلوات الاعتراف والتَّوبة الذي يذكرها القانون السَّابق نقرأ عنها بوضوح في خولاجي القدِّيس سرابيون في نفس الوقت الذي صدر فيه القانون المذكور، فتقول الصَّلاة: "نعترف بك يا الله محب البشر ... ونطرح أمامك ضعفاتنا، ونتوسَّل إليك أن تكون

٢- حنانيا كساب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ص ١٩٥، ١٩٦

أنت قوّتنا. اغفر خطايانا الماضية، واصفح عن كل زلّاتنا السّابقة، وصيِّرنا خليقة جديدة، واجعلنا أيضاً عبيداً أوفياء وأنقياء، مكرِّسين أنفسنا لك، اقبلنا إليك يا إله الحق ...»[٣].

التّوبة والاعتراف عند البابا أثناسيوس الرّسولي

ويشير القدِّيس أثناسيوس الرّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) في كتاباته إلى أن الاعتراف للرّب بالخطيئة مهم من أجل غفرانها. ففي مقالته عن البتوليَّة، يخاطب العذراء التي كرّست نفسها للرّب قائلاً لها[٤]:

[صلّي وابتدئي أن تقولي المزمور الخمسين كلّه حتى تنتهي منه ... وبعد كل مزمور أكملي صلاة، واصنعي ركوعاً. اعترفي للرّب بخطاياك بدموع متضرِّعة، لكي يغفرها لك].

وفي تفسيره للمزمور (٣١:٥، ٦) «اعترف بذنبي ولا أخفي إثمي. قلتُ اعترف بإثمي قدّام الرّب، وأنت تغفر لي نفاق قلبي»، يقول البابا أثناسيوس الرّسولي معقّباً على ذلك:

[أعطى علامته لمثال اعترافه].

وفي تعقيبه على الآية من المزامير (٣١:٧) «وعلى هذه يصلي إليك كل القدِّيسين في زمان مستقيم» يقول:

[كل واحد من القدِّيسين يصلّي عن خطيئتي التي غُفرت لي. وأظهر (داود) بهذا الكلام أحد أمرين: إمّا أن يكون علامة للتّوبة، أو نبوّة من وجه داود بأنّ جميع الأمم يعترفون

٣- خولاجي سرابيون ١:٥-٣

4- Ath., *Virg.*, 12. Cf. Lamp, G.W.H., D.D., *A Patristic Greek Lexicon*, Oxford, 1961, p. 499.

بذنوبهم في زمانهم].

وفي تفسيره للمزمور رقم (١١٧) «اعترفوا للرَّب لأنَّه صالح، وأنَّ إلى الأبد رحمته ...» يقول:

[من قبل أن يبتدئ (داود) في الاعتراف يأمر الذين دعوا (أولاً) ببشارة الإنجيل (أن يبدأوا هم في الاعتراف)].

وفي نهاية المزمور (١١٧:٢٨) «أنت هو إلهي اعترفُ لك. أنت هو إلهي أرفعك. اعترفُ لك يارب لأنك سمعتني وصرتَ لي مخلِّصاً»، يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:

[يعلِّمنا أن نرسل هذه التَّسبحة إلى فوق، إلى مخلِّصنا يسوع المسيح].

وفي تفسيره للمزمور رقم (١١٨:٧) «اعترف لك يارب باعتدال قلبي»، يقول:

[... لأن الاعتراف هو رأس الخلاص][٥].

واضح هنا أن البابا أثناسيوس الرَّسولي يتحدَّث عن ضرورة الاعتراف بالخطايا أمام الرَّب في الصَّلاة، مشيراً إلى أن الاعتراف بالخطيئة هو رأس الخلاص. وقد أورد إشارة في أقواله تشرح كيف كان يتم

٥- تفسير المزامير للقدِّيس أثناسيوس الرَّسولي، لم يُنشر بعد. وهو عن مخطوط رقم (٢٧ك.م) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار. وقد قوبل المخطوط المذكور مع مخطوط آخر مطابق له تماماً محفوظ في مكتبة ميلانو Bib. Ambrosiana تحت رقم (J 20121)، له صورة بالميكروفيلم محفوظة في مكتبة الدَّير المذكور. كما أن تفسير المزامير للبابا أثناسيوس محفوظ أيضاً في نسخ سريانيَّة موجودة الآن بالمتحف البريطاني تحت رقم B.M. Add. 12168 وتم نشرها في سنة ١٩٧٧م، في مجموعة COR. SCR. OR., Vol. 387 . وقد قام أحد رهبان دير القدِّيس أنبا مقار بترجمة وتحقيق هذا التَّفسير.

تكميل هذا الاعتراف في الكنيسة في زمانه، وكيفية ممارسته ضمن إطار كنسي، فيقول:

[كما أن الإنسان الذي عمَّده الكاهن يستنير بنعمة الرُّوح القُدُس، هكذا بواسطة الاعتراف المصحوب بالتَّوبة على يدي كاهن ينال المغفرة بنعمة المسيح][٦].

ومن هذا يظهر أمامنا بكل جلاء أن الاعتراف بالخطيئة على يد الكاهن في الكنيسة هو عقيدة كنسيَّة تأصَّلت في كنيسة مصر في زمن البابا أثناسيوس الرَّسولي. وكان أوَّل من تكلَّم عنها في كنيسة مصر هو العلاَّمة المصري أوريجانوس (١٨٥-٢٥٤م).

رأي البابا أثناسيوس الرَّسولي عن اقتراف الخطيئة بعد المعموديَّة

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي في موضوع اقتراف الخطيئة بعد المعمودية حينما كان يعقِّب على الآية «كل خطيئة وتجديف يُغفر، أما التَّجديف على الرُّوح القُدُس فلا مغفرة له، لا في هذا الدَّهر، ولا في الآتي أيضاً»، فيقول:

[... لو كان حميم الميلاد الثَّاني قد أُعطي باسم الرُّوح القُدُس فقط، لكان من المعقول أن نقول أن الذي عُمِّد إذا أخطأ بعد المعموديَّة، يخطئ ضد الرُّوح القُدُس وحده. ولكن لأن المعموديَّة تُعطى باسم الآب والابن والرُّوح القُدُس، فكل معمَّد يقبل المعموديَّة باسم الثَّالوث، وبذلك يصبح واضحاً أن كل من يجدف بعد المعموديَّة قد جدَّف على الثَّالوث الأقدس، وهذا هو التَّعليم الحقيقي الذي يجب أن نقبله ...

6- NPNF., p. LXXIX, Bingham VIII, Ch. 6. p. 79.

الرَّب لم يكن يتكلّم مع أناس ارتدوا وجدَّفوا على الرُّوح القُدُس، لأننا إذا تذكرنا، لم يكن هؤلاء النَّاس – أي الفريسيِّين – معمَّدين، بل حتى معموديَّة يوحنا احتقروها ورفضوها[٧]. فكيف يمكن اتهامهم بالتَّجديف على الرُّوح القُدُس وهم لم يحصلوا عليه بعد؟ ولذلك لم ينطق الرَّب بهذه الكلمات لكي يعلّم عن الخطيئة بعد المعموديَّة، كما أنه لم يكن كذلك يهدِّد بعقوبة أولئك الذين سيخطئون في المستقبل بعد المعموديَّة، بل قال هذه الكلمات بطريقة مباشرة وصريحة ضد الفريسيِّين، لأنهم أذنبوا فعلاً وسقطوا في هذا التَّجديف الفظيع ....

وزيادة على ذلك، لو كانت هذه الكلمات موجَّهة ضد الذين يخطئون بعد المعموديَّة، وهؤلاء لا مغفرة لهم، فكيف أظهر الرَّسول محبَّة نحو التَّائب في كنيسة كورنثوس[٨]؟ وماذا عن الغلاطيِّين الذين ارتدوا[٩]، والذين تألم الرَّسول لكي يولدوا ويتكوَّن المسيح فيهم مرَّة ثانية؟[١٠]... وحتى كلمات الرِّسالة إلى العبرانيِّين (٦:٤-٦) لا تمنع توبة الخطاة، بل تشير إلى أن معموديَّة الكنيسة الجامعة تعطى مرَّة واحدة، ولا يمكن أن تتكرَّر، ويجب أن نلاحظ أن للعبرانيِّين بالذَّات كتب الرَّسول هذه الكلمات لأنه خاف عليهم من التَّظاهر بالتَّوبة، وأنهم بسبب تمسُّكهم الشَّديد بالنَّاموس الموسوي وشريعة التَّطهير سيظنون أنه توجد فرصة لمعموديَّات يوميَّة متكرِّرة

٧- مت ٢١:١٥-٢٧
٨- ٢كورنثوس ٢:٨
٩- غلاطية ٤:٩
١٠- غلاطية ٤:١٩

كما في (مرقس ٧:٣-٤). ولذلك يشجعهم على التّوبة، ويعلن أن التّجديد في المعموديَّة هو تجديد فريد لا يُعاد. وفي رسالة أخرى يقول: «إيمان واحد، معموديَّة واحدة[١١]». وهو لا يقول إنه من المستحيل أن يتوب السَّاقط، بل من المستحيل أن نصنع نحن تجديداً لأنفسنا بالتَّوبة، والفرق كبير. لأن من يتوب يكف عن الخطيئة، ولكن آثار جروحه تظل ظاهرة، بعكس من يعتمد، يخلع العتيق ويتجدَّد[١٢]، بل ويولد مرَّة ثانية بنعمة الرُّوح القُدُس[١٣]][١٤].

(الرِّسالة الرابعة عن الرُّوح القُدُس ١٢، ١٣)

وأما عن السُّلوك الواجب على الذين قبلوا المعموديَّة، فقد أشارت إليه المراسيم الرَّسوليَّة في كثير من فصولها. ولنحصر تركيزنا في فصلين منها على وجه الخصوص، وردا في الكتابين الثّاني[١٥]، والثّالث[١٦].

"وهذا اعلموه أيها الأحباء، أن الذين اعتمدوا في موت الرَّب يسوع، يجب عليهم ألاَّ يخطئوا بعد. لأنه كما أن كل الذين ماتوا ليس لهم قدرة أن يخطئوا، هكذا الذين ماتوا في المسيح لا يليقون للخطيئة πρακτοι πρὸς ἁμαρτίαν لذلك فلسنا نصدِّق أيها الإخوة، أن الذي استحم بماء الحياة، يمارس نجاسات المخالفين، أما الذي أخطأ بعد

١١- أفسس ٤:٥

١٢- كولوسي ٣:٩-١٠

١٣- يوحنا ٣:٣

١٤- مركز دراسات الآباء، نصوص الآباء ٢١، الرَّسائل عن الرُّوح القُدُس إلى الأسقف سرابيون، للقديس أثناسيوس الرَّسولي، ترجمها عن اليونانية د/ موريس تاوضروس، د/ نصحي عبد الشَّهيد، القاهرة، مايو ١٩٩٤م، ص ١٣٥-١٣٧

١٥ - انظر: المراسيم الرسولية (٢:٧).

١٦ - انظر: المراسيم الرسولية (٣:١٨:١).

المعموديَّة، فإذا لم يندم ويترك خطاياه، يُدان في جهنم[١٧]" (١:٧:٢، ٢).

"والذي يتعمَّد يكون بعيداً عن كل نفاق ἀσεβείας[١٨] ولا يعمل شيئاً من الخطيئة، ويكون صديقاً لله، وعدواً لإبليس، وارثاً للآب، شريكاً لابنه في الميراث، جاحداً للشيطان وأبالسته وحيله. ويكون طاهراً بلا دنس، مقدَّساً، محباً لله، مصلياً بالابن للآب[١٩]" (٣:١٨:١).

التَّوبة والاعتراف عند البابا كيرلس الكبير

وفي زمن البابا كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م) نتبيَّن أن هذا التَّقليد ظلَّ سارياً بقوَّة في كنيسة الإسكندريَّة، فيقول القدِّيس كيرلس عامود الدِّين:

> [إن المتوشِّحين بالرُّوح القُدُس (الكهنة) يتركون خطايا أو يمسكونها على نوعين كما أرى. إمَّا أنهم يدعون إلى المعموديَّة الذين اقتضى نيلهم إياها حسن سلوكهم وخبرتهم بالإيمان. وإما بأنهم يمنعون البعض ويحجبونهم عن النِّعمة الإلهيَّة، لأنهم لم يصيروا بعد مستحقين لها. أو على وجه آخر أيضاً يتركون الخطايا ويمسكونها، وذلك إمَّا لقصاصهم أبناء الكنيسة عندما يخطئون، وإما بمسامحتهم إياهم عندما يندمون][٢٠].

التَّوبة والاعتراف عند القدِّيس غريغوريوس النيسي

تحدَّث القدِّيس غريغوريوس النيسي (٣٣٥-٣٩٥م)، شقيق القدِّيس

---

١٧ - S.C. 329, p. 219 انظر أيضاً: الدِّسقوليَّة العربيَّة في نصها الثَّاني (٣:٤١) ص ٨٠

١٨- هذه الكلمة اليونانيَّة تُترجم حرفياً إلى "عدم تقوى".

19 - Cf. S.C. 329, p. 159

٢٠- تفسيره لإنجيل يوحنا ٢٠:٢٣

باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) - وقد أُقيم أسقفاً على نيسه سنة ٣٧٨م أي قبل نياحة أخيه بسنة واحدة — عن موضوع التَّوبة والاعتراف، فيذكر أنه كان يمكن للأسقف أن يزيد مدَّة العقوبة على المخطئ، أو يخفض مدَّة التَّوبة إذا اقتنع بإخلاص التَّائب[٢١]. فقد كان الاعتراف الطَّوعي بالخطيئة مع ما يظهره الخاطئ من ندامة صادقة وتوبة، تُقصِّر مدَّة العقوبة المفروضة عليه. ولقد ترك القدِّيس غريغوريوس النيسي مؤلَّفات عديدة تحدَّثت عن التَّوبة ومعاملة التَّائبين، وقوانين قبولهم في الكنيسة. ويظهر فيها الميل إلى الاعتراف بالخطيئة على الكاهن، وليس الاعتراف العلني بها.

فعلى سبيل المثال يتكلَّم في رسالته إلى ليتويس أسقف ملاطية يقول: إن قطَّاع الطُّرق عند رجوعهم إلى الكنيسة يعاملون كالقتلة، وكانت عقوبة القاتلون عمداً عنده شديدة للغاية وصلت إلى ٢٧ سنة، وكان يمكن إنقاصها إلى ١٥ سنة إذا أظهر التَّائب ثمار التَّوبة. ثمَّ يسترسل في رسالته فيقول: إن الذين يسرقون ثمَّ يعترفون للكاهن يُحكم عليهم برد المسروق، والإحسان بسخاء للفقراء، وإن لم يكن لديهم مال لرد ما سلبوه فيجب أن يشتغلوا ويعوِّضوا من كسب أيديهم[٢٢].

التَّوبة والاعتراف عند القدِّيس غريغوريوس اللاهوتي

أمَّا القدِّيس غريغوريوس اللاهوتي (٣٢٩-٣٨٩م) والذي كان أسقفاً على زاسيما Sasima ثمَّ صار رئيساً لأساقفة القسطنطينيَّة بعد ذلك، فيطلب من التَّائبين الذين يتقدَّمون إليه طالبين التَّوبة:

- توبة صادقة.

٢١- انظر القانونين رقمي (٥٤، ٧٤) من قوانين القدِّيس باسيليوس.
انظر: حنانيا كسَّاب، مجموعة الشرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٨٩٤، ٨٩٧
٢٢- نفس المرجع، ص ٩٠٣

- تغييراً للحياة.
- انفصالاً عن جماعة الكنيسة فترة من الزَّمن كتأديب.
- إقراراً بالخطايا واعترافاً بها[٢٣].

التَّوبة والاعتراف عند القدِّيس يوحنا ذهبي الفم

ومع القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) كان الانتقال الكبير في موضوع التَّوبة في حياة الكنيسة. فقبله كانت العقوبات التي تفرضها الكنيسة على الخطاة شديدة. ولقد عرضتُ جانباً بسيطاً منها. أمَّا في زمانه فكان يتطلَّع إلى الاستعداد الدَّاخلي للتَّائب لاقتناعه بأن التَّوبة هي رجوع يومي إلى الله قبل كل شئ. وهذا ما حمله على قبول التَّائبين كل مرَّة كانوا يتقدَّمون فيها من هذا السِّر بغض النَّظر عن نوع الخطايا التي اقترفها الخاطئ كبيرة كانت أم صغيرة.

وإذا أخذنا مثالاً تطبيقياً لذلك، فلنأخذه من عظته الثَّامنة على التَّوبة. حيث يقول:

> [إن التَّوبة تسبِّب خوفاً وضيقاً للخاطئ، ولكنها ترياق صالح تعالج فيه علل الخطايا. وهي تفديه من آثامه ... أأنتم خطاة؟ لا تيأسوا، فأنا أصر على أن أقدِّم لكم الرَّجاء كدواء، وكأفضل علاج لضعفكم ... لن أكف عن أن أكرِّر لكم إنه إن أخطأتم لا تيأسوا. إن أخطأتم كل يوم فتوبوا كل يوم][٢٤].

إن القدِّيس يوحنا ذهبي الفم كان هو أوَّل من نادى من آباء

23- Patachovsky & C. Vogel, *op. cit.*, p. 26.

24- Chrysostomo, J., *La conversion, Coll. les pères dans la foi*, Paris, 1978, p. 61.

الكنيسة بأن تكرار الوقوع في الخطيئة من أي نوع ينبغي ألاّ يمنع الخاطئ من تكرار توبته مرّات كثيرة، بل قد وصل الأمر إلى أنه اعتبر أن الـزّاني والذي لم يكن يُسمح له من قبل سوى بتوبة واحدة، يمكنه أن يتوب عن زناه ربوات من المرّات، ليس عن استهتار بل بسبب ضعف، فيقول:

[تخيَّلوا حطّاباً يتناول بلطة ليقطع بها جذور بلوطة. فإن لم تقع الشّجرة من الضّربة الأولى، فهو لن يتردَّد في ضربها ثانية وثالثة ورابعة وعاشرة إن احتاج الأمر. فافعلوا أنتم بالمثل. إن بلوطتكم لهي شجرة عقيمة، وثمارها لا تخدع إلاّ الحيوانـات الغبيَّة، تلك الشّجرة هي الزّانية، إنها قد تأصّلت منذ وقـت طويل داخل أفكاركم، وغلّفت ضمائركم بجبائلها.

وكلماتي تشبه البلطة، ولقد استمعتم إليها مـرّة. ولكـن أتظنون أن الشيء الذي تأصّل منذ وقت بعيد يمكن أن يسقط بضربة واحدة؟. أتجدونه أمراً غريباً أن يسقط في المرّة الثّانية أو الثّالثة، أو المرّة العشرين، أو حتى بعد ربوات من المرّات؟ إطلاقاً.

لماذا هذا الخلط في الأمور؟ في لحظة ارتكاب الفعل الأثيم لا تُظهرون أي خجل، والآن وأنتم على وشك أن تُعالجوا من الخطيئة تخجلون؟ هل تخجلون من التّحرر من الخطيئة؟ وكان يجب أن يكون هذا هو سلوككم وأنتم تخطئون؟ هل انتظـرتم حتى وقت التّبرير لتحمرّوا خجلاً، بينما أن ذلـك لم يكـن حالكم وأنتم تخطئون؟ ...

لا تعودوا تحتجُّون بقولكم، لقد أخطأت مرّات كـثيرة، فكيف يمكنني أن أخلص؟ لأن ما لا تستطيعون أن تعملوه فالله يستطيع، وقدرته قادرة حتى إلى محو كل خطاياكم].

ويتحدَّث القدِّيس يوحنا ذهبي الفم في مواضع كثيرة مـن كتاباتـه

الغزيرة عن ضرورة التَّوبة والاعتراف قبل نوال المعموديَّة لأولئك الذين لم يقبلوا الإيمان بعد. وضرورة التَّوبة والاعتراف للمؤمنين الذين يبغون التقدُّم للتَّناول من الأسرار المقدَّسة.

ففي شرحه لإنجيل القدِّيس متى (٥:٣) «حينئذ خرج إليه أورشليم وكل اليهوديَّة، وجميع الكورة المحيطة بالأردن، واعتمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم»، فيقول:

[... لأنه في الحقيقة هو وقت الاعتراف لكل من المقبلين على المعموديَّة، وللذين اعتمدوا. لأنه لهؤلاء هو بمثابة توبة لينالوا الأسرار المقدَّسة، ولأولئك وهم الذين اغتسلوا من نجاساتهم بعد المعموديَّة هو اقتراب إلى مائدة الإفخارستيَّا بضمير طاهر][٢٥].

وفي عظته (٨:٣٧) على إنجيل القدِّيس متى (١١:٢١-٢٤) يشير بوضوح إلى أن غفران الخطيئة يكون بالتَّوبة والاعتراف فيقول:

[إن كثيرين عند رجوعهم من القبور قد اعتادوا أن يغتسلوا في الحال، ولكنهم عند رجوعهم من المسارح لا يتأوهون ولا يذرفون الدُّموع مدراراً.

ففي الحقيقة الإنسان الميت ليس بغير طاهر، إنما الخطيئة هي التي تسبِّب مثل هذه الوصمة. وعشرة آلاف نبع ماء لا يمكن أن تطهِّرها، ولكنها تطهَّر بالدُّموع وحدها والاعتراف][٢٦].

ويرى القدِّيس يوحنا ذهبي الفم أن صمت الإنسان وسكوته مقابل

25- Chryst., *hom. 10.6 in Mt.*, Cf. NPNF., 1st ser., Vol. X, p. 65.
26- *Ibid.*, p. 248.

من يشتمه ويسبّه، يُحسب له بمثابة توبة واعتراف، لأنه عندما لا يدافع عن نفسه إزاء الشَّتائم التي توجَّه إليه، فذلك هو بمثابة اعتراف وإقرار بها. وأورد مثلاً لذلك في قصَّة شمعي بن جيرا عندما صار يسب داود بلعنات بلا عدد، فحنق عليه الرَّئيس الذي كان مع داود بشدَّة فقال له داود: «دعوه يسب لأن الرَّب قال له سب داود. ومن يقول لماذا تفعل هكذا» (٢صموئيل ١٦:٩). ويعقّب ذهبي الفم على ذلك بقوله:

[... لأن داود كان ذا قلب نادم ومتواضع، وهذا ما غسل خطاياه، لأنه حُسب له اعتراف وتوبة][٢٧].

وعند ذهبي الفم لا ينحصر مفهوم الاعتراف بالخطيئة كوسيلة للتَّوبة ومغفرة الخطايا بطريقة ميكانيكيَّة فحسب، ولكن على الخاطئ أن يجتاز بأعمال توبة قبل اعترافه تؤكّد صدق نيته، سواء كانت بكاء أو صوم أو أعمال اتضاع، أو أعمال رحمة، مع صلاة واعتراف أمام الله بخطيئته. والصَّوم الأربعيني المقدَّس هو زمان التَّوبة.

ففي كلامه عن الاستعداد لعيد القيامة يقول في إحدى مقالاته:

[إن الآباء لمعرفتهم أننا نقع في الخطيئة طوال العام، أعدوا لنا الصَّوم الأربعيني لكي نطهِّر ذواتنا من الخطيئة بالصَّلاة وبعمل الرَّحمة والصَّوم والبكاء والاعتراف، وبكل ما نقدر عليه حتى نتقدَّم إلى عيد القيامة بضمير طاهر][٢٨].

إن القدِّيس يوحنا ذهبي الفم لم يتكلّم فقط عن الاعتراف بالخطايا أمام الكاهن، بل أيضاً ذكر ضرورة الاعتراف بها أمام الله أولاً. بل إنه لم يغفل أهميَّة الصَّوم الأربعيني وأعمال الرَّحمة، والصَّلاة، في غفران الخطايا.

27- Chryst., *hom. 4.6 in 2Cor.*, Cf. NPNF., 1st ser., Vol. XII, p. 299.
28- PG 48, 867.

لأننا عندما نقارن النَّص السَّابق ذكره مباشرة مع عظته الرَّابعة على "إقامة لعازر"، والتي من المحتمل أن تكون قد أُلقيت في الصَّوم الكبير يمكننا أن نرى أي نوع من الاعتراف يقصده ذهبي الفم. فيقول:

[لماذا تخجل من الاعتراف بخطاياك؟ هل ستخبر بها إنساناً يعيِّرك بها؟ هل ستعترف بها أمام خادم مثلك قد يخبر الآخرين بأفعالك؟ أنت ستعترف للرَّب المدبِّر، صديق الإنسان، الطبيب الذي ستكشف له جراحاتك ... يقول الرَّب أخبرني أنا وحدي بخطاياك سراً حتى أشفيك من جراحك، وأخلِّصك من أمراضك][٢٩].

وفي عبارة شهيرة للقدِّيس غريغوريوس النِّيسي (٣٣٥-٣٩٥م) يخاطب بها التَّائبين، ويحضَّهم على اتخاذ أب اعتراف لهم، فيقول:

[اسكبوا قدامي دموعاً حارة وغزيرة، وأنا أعمل معكم هذا العمل بعينه. خذوا خادم الكنيسة شريكاً أميناً لكم في حزنكم، وأباً روحياً ... فينبغي إذاً أن تعتبروا الذي ولدكم بالله أعلى من الذين ولدوكم بالجسد. فاكشفوا له أسراركم بجسارة أعظم. اكشفوا له أسرار نفوسكم كما يكشف المريض جراحه الخفيَّة للطبيب، فتنالون شفاء].

التَّوبة والاعتراف في القوانين الكنسيَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير

تخبرنا الدِّراسات الآبائيَّة أن قوانين القدِّيس باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) هي من مدوَّنات القرن الخامس أو السَّادس الميلادي، وهي منسوبة إلى القدِّيس باسيليوس لتنال شهرتها وديمومتها، ولكن اختلفت

29- PG 48, 1012 ; Cf. Patachovsky & C. Vogel, *op. cit.*, p. 42, 43.

الآراء فيما إن كانت هي قوانين مصريَّة أم غير مصريَّة(٣٠).

وفي القانون رقم (٣٤) من هذه القوانين نقرأ: "إذا ارتكبت امرأة الزِّنا فأنَّبها ضميرها واعترفت بزلّتها يُفرض عليها عقاب الزَّانية، وتُمنع المدَّة المعيَّنة من الشَّركة بدون أن يُعلن أمرها لئلا تتعرَّض لخطر القتل".

ويشير القانون رقم (٥٨) إلى أن عقاب الزَّاني هو أربع سنوات مع النَّائحين، وخمس سنوات في السَّامعين، وأربع سنوات مع الرَّاكعين، واثنتان مع المؤمنين، وفي نهاية الخمس عشرة سنة يُقبل في الشَّركة(٣١).

وفي القانون رقم (٩٣) منها نقرأ: "إذا سقط واحد في خطيئة ويعترف بها وأنه متألّم القلب، فليعن وليداوى من كبير الإكليروس أو من الأسقف، ويتعلّم أن يتحفّظ منها، ويحزن على خطاياه الأولى".

وما يلفت النَّظر هنا هو شدَّة العقوبات الموقّعة على مرتكبي الخطايا الكبيرة. فالزَّاني يُحرم من الشَّركة من الأسرار المقدَّسة خمس عشرة سنة. والزَّانية سبع سنوات مع محافظتها أثناء ذلك على العفّة (القانون رقم ٤٤). والقاتل عمداً عشرين سنة (القانون ٥٦)، وشاهد الزُّور عشر سنوات (القانون ٦٤). أما من يُرغم على شهادة الزُّور فعقابه ست سنوات محروماً من الشَّركة (القانون ٨٢). والذين ارتدوا عن الإيمان بعد تعرُّضهم لعذابات طويلة إحدى عشرة سنة (القانون ٨١). ووصلت القوانين في تشدُّدها إلى أن من ينكر المسيح، ثمّ يعترف بخطيئته ويتوب، يبقى نائحاً مدَّة حياته، حيث يُسمح له بتناول الأسرار المقدَّسة ساعة موته (القانون ٧٣).

وإن الاتجاه إلى قصر الاعتراف على الكاهن أو الأسقف اعترافاً سرياً

٣٠- انظر للمؤلّف كتاب: "القوانين الكنسيَّة المنسوبة للقدِّيس باسيليوس الكبير".
٣١- حنانيا كساب، مجموعة الشَّرع الكنسي، مرجع سابق، ص ٨٩٥

حتى في الخطايا الكبيرة فقد بات هو الأكثر شيوعاً، ولكن في تدرُّج بطئ. ولقد ظلَّ تعبير "الخطيئة المميتة" قائماً حتى زمن قوانين القدِّيس باسيليوس الكبير، فيقول القانون رقم (٣٢): "الإكليريكي الذي يُعزل لارتكابه **خطيئة مميتة** لا يُقطع من الشَّركة، إذ لا يجوز أن يُفرض عقابان على خطيئة واحدة"(٣٢).

التَّوبة والاعتراف في القرنين الخامس والسَّادس في الإسكندريَّة

وإن عُدنا إلى كنيسة الإسكندريَّة في غضون القرن الخامس أو السَّادس للميلاد نعرف أنه من بواكير الكتابات الآبائيَّة التي تحدَّثت عن الاعتراف السِّري هو ما يذكره ديوناسيوس الأريوباغي في القرن الخامس(٣٣): "إن صلوات القدِّيسين تنفع جداً، وكذا من تقدَّم إلى رجل بار واعترف له بآثامه، فإنه ينال صفحاً كأنه من الله ...".

ومن قوانين هيبوليتس القبطيَّة في القرن السَّادس الميلادي نعرف أن الكنيسة في مصر لم تكن تفرِّق بين أنواع الخطايا، لكنها كانت توقِّع العقوبة على المخطئ على مقدار خطيئته، وذلك بالقطع من الكنيسة حتى يتوب. فخطايا الزِّنا والكلام الخبيث، والسِّحر، والتَّنجيم، ومحبَّة العالم، ومن يحلف، أو من يشتكي النَّاس، أو يزدري بهم ... الخ، كان لا يُسمح لهؤلاء بالمعموديَّة. ويقول القانون رقم (٣:١٥) في ذلك: "... وإذا وُجدوا من بعد المعموديَّة في مثل هذه الرَّذائل، فليخرجوا من الكنيسة

٣٢- نفس المرجع، ص ٨٩١

٣٣- أثبتت الدِّراسات الآبائيَّة الحديثة أن الأقوال المنسوبة لديونيسيوس الأريوباغي هي كتابات تعود إلى حوالي القرن الخامس الميلادي، حيث دوِّنت في سوريا حوالي سنة ٥٠٠م. وقد استعار منها القدِّيس ساويرس الأنطاكي (٤٦٥-٥٣٨م) في كتاباته.
Cf. ODCC, 2nd edition, p. 406.

حتى يتوبوا ببكاء وصوم ورحمة".

أما قوانين الرُّسل - أو قوانين المجامع المسكونيَّة أو المكانيَّة التي تعترف بها الكنيسة القبطيَّة - فلم تشر إلى الاعتراف السِّري على الكاهن. وكانت أوَّل إشارة وصلت إلينا عنه هي القانون رقم (١٠٢) من قوانين مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م.

التّوبة والاعتراف عند القدِّيس أغسطينوس وفي الغرب

أمَّا القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) فبعد أن صنَّف مختلف أنواع الخطايا أشار إلى الطُّرُق التي بموجبها تُغفر كل مجموعة منها. فالمجموعة الأولى يسميها الخطايا البسيطة أو الزَّلات أو الهفوات، وهي تشمل خطايا النَّظَر والسَّمع واللِّسان، كالكلمات القاسية والضَّحك الذي يتجاوز الحدود، والإفراط في الأكل والشُّرب، أو عدم الاعتدال في الزَّواج. وهذه الخطايا تتطهَّر وتُغفر بواسطة تلاوة المزمور الخمسين وأعمال الرَّحمة والصَّدقة[٣٤] مع الصَّوم.

فعند القدِّيس أغسطينوس عمل الرَّحمة أي الصَّدقة يجب أن يقترن بالصَّلاة والصَّوم، وبحياة روحيَّة صحيحة كاملة. والقدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أسقف ميلان له أيضاً نفس الرأي.

وهناك مجموعة خطايا أخرى بحسب رأي القدِّيس أغسطينوس يلزم أن تخضع للعقوبة الكنسيَّة، وهي تشمل: عبادة الأصنام، التَّنجيم، أعمال الشِّفاء باستخدام السِّحر، الانقسام، القتل، الزِّنا، الدَّعارة، السَّرقة، النَّهب، شهادة الزُّور، تدنيس المقدَّسات، السُّكر، محبَّة المال (البُخل)،

٣٤- «الماء يطفئ النَّار الملتهبة، والصَّدقة تقاوم الخطيئة» (سيراخ ٣:٣٣).

الغش، والافتراء.

فهذه الخطايا تُغفر بواسطة الكنيسة بعد أن تُفرض على الخاطئ أنواع من التَّأديبات الكنسيَّة، ثمَّ ينال الخاطئ الحل من الأسقف الذي أُعطي سلطان الحل والرَّبط. وهذه المصالحة كانت تجري مرَّة واحدة فقط. ومن يسقط في واحدة من هذه الخطايا الكبيرة مرَّة أخرى، كان يُفرز من الجماعة بقيَّة أيام حياته[٣٥].

أمَّا طقس المصالحة لقبول الخاطئ في شركة الكنيسة، فكان يتم على نوعين، إمَّا سرياً بعد توبة سريَّة أمام الكاهن وذلك للخطايا التي ارتُكبت سراً. وإما علناً إن كانت العلنيَّة ضروريَّة، وذلك في الخطايا العلنيَّة. وهذه الحالة الأخيرة كانت تُطبَّق فقط على خطايا عدم العفَّة، والزِّنا، وعبادة الأصنام، والقتل[٣٦].

ويقول القدِّيس أغسطينوس:

[من يستطيع أن يغفر الخطايا إلاَّ الله وحده، والذين أعطاهم هو هذا السُّلطان] (جزء ١٣:٥).

فعن طريق أفكار القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) نشأ في الغرب مفهوم "الخطايا المميتة" التي تحرم الإنسان من النِّعمة والتي تتطلَّب حلاً سرائرياً، و"الخطايا العرضيَّة" التي لا تؤثِّر في عمل النِّعمة، والتي يكفيها عمل النَّدامة والتَّوبة. ولكن هذا الفكر الأوغسطيني لم يدم طويلاً في الغرب. إذ ظهر في أيرلندا طريقة جديدة لممارسة سرّ التَّوبة على يد القدِّيس باتريك أسقف أيرلندا (٣٧٧-٤٦٠م). ففي الأديرة كان الرُّهبان الشُّيوخ يقودون المبتدئين بفضائلهم الرُّوحيَّة. فطبَّق باتريك هذه الطَّريقة

٣٥- رسالة ١٦٢:٧

36- Patachovsky & C. Vogel, *op. cit.*, p. 47, 48.

حتى يتوبوا ببكاء وصوم ورحمة".

أما قوانين الرُّسل - أو قوانين المجامع المسكونيَّة أو المكانيَّة التي تعترف بها الكنيسة القبطيَّة - فلم تشر إلى الاعتراف السِّري على الكاهن. وكانت أوَّل إشارة وصلت إلينا عنه هي القانون رقم (١٠٢) من قوانين مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م.

التّوبة والاعتراف عند القدِّيس أغسطينوس وفي الغرب

أمَّا القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) فبعد أن صنَّف مختلف أنواع الخطايا أشار إلى الطُّرُق التي بموجبها تُغفر كل مجموعة منها. فالمجموعة الأولى يسميها الخطايا البسيطة أو الزَّلات أو الهفوات، وهي تشمل خطايا النَّظَر والسَّمع واللِّسان، كالكلمات القاسية والضَّحك الذي يتجاوز الحدود، والإفراط في الأكل والشُّرب، أو عدم الاعتدال في الزَّواج. وهذه الخطايا تتطهَّر وتُغفر بواسطة تلاوة المزمور الخمسين وأعمال الرَّحمة والصَّدقة[٣٤] مع الصَّوم.

فعند القدِّيس أغسطينوس عمل الرَّحمة أي الصَّدقة يجب أن يقترن بالصَّلاة والصَّوم، وبحياة روحيَّة صحيحة كاملة. والقدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) أسقف ميلان له أيضاً نفس الرأي.

وهناك مجموعة خطايا أخرى بحسب رأي القدِّيس أغسطينوس يلزم أن تخضع للعقوبة الكنسيَّة، وهي تشمل: عبادة الأصنام، التَّنجيم، أعمال الشِّفاء باستخدام السِّحر، الانقسام، القتل، الزِّنا، الدَّعارة، السَّرقة، النَّهب، شهادة الزُّور، تدنيس المقدَّسات، السُّكر، محبَّة المال (البُخل)،

٣٤- «الماء يطفئ النَّار الملتهبة، والصَّدقة تقاوم الخطيئة» (سيراخ ٣:٣٣).

الغش، والافتراء.

فهذه الخطايا تُغفر بواسطة الكنيسة بعد أن تُفرض على الخاطئ أنواع من التَّأديبات الكنسيَّة، ثمَّ ينال الخاطئ الحل من الأسقف الذي أُعطي سلطان الحل والرَّبط. وهذه المصالحة كانت تجري مرَّة واحدة فقط. ومن يسقط في واحدة من هذه الخطايا الكبيرة مرَّة أخرى، كان يُفرز من الجماعة بقيَّة أيام حياته[٣٥].

أمَّا طقس المصالحة لقبول الخاطئ في شركة الكنيسة، فكان يتم على نوعين، إمَّا سرياً بعد توبة سريَّة أمام الكاهن وذلك للخطايا التي ارتُكبت سراً. وإما علناً إن كانت العلنيَّة ضروريَّة، وذلك في الخطايا العلنيَّة. وهذه الحالة الأخيرة كانت تُطبَّق فقط على خطايا عدم العفَّة، والزِّنا، وعبادة الأصنام، والقتل[٣٦].

ويقول القدِّيس أغسطينوس:

[من يستطيع أن يغفر الخطايا إلاَّ الله وحده، والذين أعطاهم هو هذا السُّلطان] (جزء ١٣:٥).

فعن طريق أفكار القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م) نشأ في الغرب مفهوم "الخطايا المميتة" التي تحرم الإنسان من النِّعمة والتي تتطلَّب حلاً سرائرياً، و"الخطايا العرضيَّة" التي لا تؤثِّر في عمل النِّعمة، والتي يكفيها عمل النَّدامة والتَّوبة. ولكن هذا الفكر الأوغسطيني لم يدم طويلاً في الغرب. إذ ظهر في أيرلندا طريقة جديدة لممارسة سرّ التَّوبة على يد القدِّيس باتريك أسقف أيرلندا (٣٧٧-٤٦٠م). ففي الأديرة كان الرُّهبان الشُّيوخ يقودون المبتدئين بفضائلهم الرُّوحيَّة. فطبَّق باتريك هذه الطَّريقة

٣٥- رسالة ٧:١٦٢

36- Patachovsky & C. Vogel, *op. cit.*, p. 47, 48.

في كنيسته، وجعل منها طقساً للتّوبة، وبدل الرّاهب أقام كاهناً، وبدل المبتدئ أقام تائباً. وهكذا فقدت التّوبة صفتها العلنيّة، وأصبحت خاصة أو سريّة، قابلة للتّكرار. فهناك اعتراف فردي للكاهن بالخطايا أياً كان نوعها، كبيرة أم صغيرة، يفرض الكاهن بعدها أعمال توبة على التّائبين، ويعود بعدها التّائب ثانية إلى الكاهن لينال الحِل.

ثمّ جاء الرّاهب الأيرلندي كولومبان (٥٤٠-٦١٥م) فأدخل عادات بلاده في كل أرجاء أوروبا، وأجاز لكل المسيحيّين أن يتقدّموا إلى سرّ التّوبة كلما دعت الحاجة إلى ذلك. إلاّ أن هذه الممارسة الجديدة وجدت في البداية مقاومة ومعارضة شديدتين، إلاّ أنها فرضت ذاتها فيما بعد. وبعد قرنين من الزّمان تعمّمت هذه الممارسة في كل مكان.

تأثير التّقليد الرّهباني على سرّ التّوبة والاعتراف في الكنيسة

ففي هذا الوقت من تاريخ الكنيسة، بدأ سرّ الاعتراف يتّخذ طابع التّقليد الرّهباني القديم الذي انتشر انتشاراً واسعاً شرقاً وغرباً، وأثّر على ممارسات الكنيسة في هذا السّر.

فما يلزم الإشارة إليه هنا هو أن الطّريق الرّهباني بدأ في ممارسة حياة التّوبة اليوميّة بتوطيد العلاقة بين الرّاهب أو المتوحّد، وبين الله في حياة الصّلاة. فعن هذه العلاقة الحميمة والتي تتوفّر للمتوحّد في حياة السُّكون والهدوء التي يحياها لله، ولله وحده، يسرى سرّ التّوبة والشّفاء في كل كيانه الدّاخلي حتى تنطبع ملامح هذا الشّفاء على محيّاه من الخارج، وعلى سلوكه وكلماته أيضاً، وحتى أفكاره الباطنيّة.

فالرّاهب أو المتوحّد ليس ملاكاً بلا خطيئة، لكنه إنسان خاطئ يبتغي خلاص الله ورحمته، وقد جعل هذا الهدف هو هدف حياته الأوّل

والأخير، ومن ثمَّ فقد كرَّس كل حياته لأجله.

يتلخَّص التَّقليد الرَّهباني في أب روحاني يقود جماعة من أبنائه في طريق التَّوبة. وكل عمل مهما صغر لابد للابن أن يُخبر به أباه الرُّوحي، ومن ثمَّ فقد صار خلاص الابن مرتبطاً بأبيه الرُّوحي الذي سيقدِّم عنه حساباً في يوم الدِّين. ومن هنا كان لزوم الطَّاعة الكاملة من الابن لأبيه في كل ما يسديه إليه من توجيهات ونصائح.

وفي رسائل القدِّيس أنبا أنطونيوس (٢٥١- ٣٥٦م) أب رهبان العالم كلِّه، ومؤسِّس هذا الطَّريق السَّماوي، وأيضاً رسائل تلميذه أنبا مقار الكبير (٣٠٠-٣٩٠م) التي تسلَّم منه قيادة هذا الطَّريق من بعده، والتي وجهاها لأولادهما الرُّهبان يوضِّحان فيها المراحل التي يعبر عليها الرَّاهب في علاقته بالله حتى يصل إلى ميناء الخلاص.

في رسائل القدِّيس أنبا أنطونيوس الكبير

يشير أنبا أنطونيوس في رسالته الأولى إلى المنهج الذي تعامل به الله مع كل إنسان اختار من كل قلبه هذا الطَّريق، فيقول:

> [قبل كل شئ يدعوهم الرُّوح، ويجعل الجهاد خفيفاً عليهم، ويحلِّي لهم أعمال التَّوبة، ويعلِّمهم كيف ينبغي أن يتوبوا بالجسد والنَّفس، حتى يبلغ بهم إلى التَّحول الكامل نحو الله خالقهم].

ولسنا الآن بصدد شرح لرسائل القدِّيس أنبا أنطونيوس، ولكنني أكتفي هنا بإيراد بعض النُّصوص المنتقاة، والتي أرجو من القارئ ألاَّ يعبر عليها عبوراً سريعاً، وذلك لكي يتعرَّف على أبدع وأنقى ما كُتب عن كيفيَّة حياة التَّوبة في كل الأجيال وحتى اليوم.

فعند القدّيس أنبا أنطونيوس تكتمل التّوبة بالجسد والنّفس، لأن النّفس إذا صارت مسكناً للأرواح الشّريرة يصير الجسد أيضاً مكمناً للأسرار الشّريرة التي تختفي فيه، وذلك بسبب أن الإنسان يُسر بإرادته، ويُغلب من أفكاره، وينشغل بالأمور التي تُزرع في قلبه ويفرح بها، ويظن في نفسه أنها أسراراً عظيمة مختارة، ويزكي ذاته فيما يصنعه. فعلى مثل هذا الإنسان تتسلّط الأبالسة بقوّة عظيمة، لأنه لم يرذلها أمام جميع النّاس(٣٧).

وفي توضيح أكثر عن علاقة النّفس بالجسد يقول:

[ينبغي أن تعلموا أننا نحن نقدّم أجسادنا لخدمتهم (الأبالسة) إذ أن نفوسنا تتقبّل شرورهم، وحين تقبلها تجعلها ظاهرة في الجسد الذي نسكنه] (الرّسالة السّادسة).

إذاً عند الأنبا أنطونيوس تكتمل التّوبة بالجسد والنّفس معاً. فعن الشّق الأوّل أي الجسد يقول:

[يتطهّر الجسد بالصّوم الكثير، والسّهر والصّلوات والخدم التي بها يقمع الإنسان جسده، ويقطع من نفسه كل شهوات اللّحم. وروح التّوبة تكون مرشده له في هذه الأمور، وتختبره بواسطتها، لئلا يجعله العدو يرجع إلى ورائه].

ففي رسالته السّادسة يقول:

[أقيموا جسدكم الذي أنتم لابسوه، واجعلوه مذبحاً، وضعوا فوقه جميع أفكاركم، واتركوا هناك كل مشورة شريرة قدّام الرّب، وارفعوا أيدي قلوبكم إليه، أي إلى العقل الخالق، وصلّوا إلى الله لكي ينعم عليكم بإتيان ناره العظيمة غير المرئيّة

٣٧- الرّسالة السّادسة من رسائل القدّيس أنبا أنطونيوس.

من السَّماء لتحرق المذبح وكل ما عليه، فتخاف كهنة البعل التي هي أعمال العدو المضاد، وتهرب من وجهكم كما من وجه إيليا النَّبي. وحينئذ تنظرون سحابة قدر كف إنسان فوق البحر، تؤتيكم المطر الرُّوحاني، الذي هو عزاء الرُّوح القُدُس].

هذا من جهة توبة الجسد، أمَّا عن توبة النَّفس فيقول أنبا أنطونيوس الكبير:

[بعد ذلك يبتدئ الرُّوح مرشده يفتح عيني نفسه ويمنحها التَّوبة حتى تتطهَّر، والعقل[٣٨] أيضاً يبدأ أن يميِّز بين النَّفس والجسد، عندما يبتدئ أن يتعلَّم من الرُّوح كيف يطهر كليهما بالتَّوبة].

إذاً الرُّوح القُدُس يعلِّم العقل (أو القلب) أن يميِّز بين ما هو للجسد، وما هو للنَّفس، ذلك لأن القدِّيس أنبا أنطونيوس في رسالته الأولى هذه بالغة الأهميَّة سيوضِّح فيما بعد قليل كيف أن جراحات النَّفس تمتزج بالجسد وتظهر في تصرفاته. فالتَّمييز هنا مطلب أساسي من الرُّوح للعقل، لكي لا يتخبَّط الإنسان في جهادات لا تؤتي ثمارها. فهو يدعو دائماً أولاده بقوله:

[الأبناء الإسرائيليِّين الأطهار في جوهرهم العقلي].

ويؤكِّد ذلك لهم بقوله في الرِّسالة السَّابعة:

[يحتاج الإنسان العاقل أن يعرف نفسه ... وأن يعرف أيضاً أن كل خطيئة وإثم هي غريبة عن طبيعة جوهره العقلي].

٣٨- العقل عند الأنبا أنطونيوس وعند كل آباء الكنيسة هو ما يُعرف في اليونانيَّة باسم νους (نوس) أي العقل الذي يدرك الرُّوحيات، ويُسمَّى كثيراً "القلب". وهو غير العقل البشري brain .

ويقول أيضاً:

[وإذ هو يتعلّم من الرُّوح، يصير العقل مرشداً لنا إلى أعمال النَّفس والجسد، ويعرِّفنا كيف نطهِّرهما. ويفصلنا عن كل ثمار اللّحم التي اختلطت بكل أعضاء الجسد منذ المعصية الأولى. ويرد كل عضو من أعضاء الجسد إلى حالته الأولى، حتى لا يبقى فيه شيءٍ من روح الشيطان، فيحضر الجسد تحت سلطان العقل متعلماً من الرُّوح، كما يقول القدِّيس بولس الرَّسول: «أقمع جسدي واستعبده» (١كورنثوس ٩:١٧). لأن العقل يطهره في أكله، وفي شربه، وفي نومه. وبالإجمال في سائر تصرُّفاته].

ويستطرد القدِّيس أنبا أنطونيوس فيقول:

[والآن يا أولادي الأحباء ... إذا بذلت النَّفس قصارى جهدها، ولازمت الشَّهادة التي يحملها الرُّوح للعقل، فإن النَّفس والجسد يتطهَّران كليهما من هذا النَّوع من المرض[٣٩]. أمَّا إذا ازدرى العقل بهذه الشَّهادة التي يحملها فيه الرُّوح، تقوى عليه الأرواح الشِّريرة، وتزرع في الجسد كل الأوجاع، وتحرِّك وتثير حرباً قويَّة ضده إلى أن تتعب النَّفس وتمرض، فتصرخ وتطلب من أين تأتيها المعونة. ثمَّ إذ تتوب وتطيع وصايا الرُّوح، تُشفى حينئذ، وتقتنع أن تجعل راحتها في الله، وأنه هو سلامها].

واضح هنا أن خطايا الجسد عندما تستحوذ على الإنسان المتهاون بوصايا الرُّوح تسبِّب حينئذ مرضاً للنَّفس، ومن ثمَّ تنعكس أوجاع النَّفس

٣٩- القدِّيس أنطونيوس يتحدَّث هنا عن حركة الشَّهوة في الجسد.

على تصرُّفات الجسد، ويصير الإنسان إلى حال أردأ. ولذلك يشدِّد القدِّيس أنبا أنطونيوس ويكرِّر بقوله:

[وهذه الأقوال قلتها لكم يا أحبائي، لكي تعلموا كيف أنه يلزم للإنسان أن يتوب بالجسد وبالنَّفس، وأن يطهِّرهما كليهما. فإذا غلب العقل في هذا الجهاد، حينئذ يصلي بالرُّوح، ويبتدئ يطرد من الجسد أوجاع النَّفس التي تأتي عليه من إرادتها الخاصة. حينئذ يكون للرُّوح شركة محبَّة مع العقل، لكونه يحفظ الوصايا التي علَّمه إياها الرُّوح].

هنا يكرِّر القدِّيس أنبا أنطونيوس مراراً وتكراراً أن الرُّوح القُدُس هو الذي يعلِّم العقل (أي القلب) كيف يسير في حياة التَّوبة. ويقول في ذلك أيضاً:

[... والرُّوح يعلِّم العقل كيف يطبِّب كل جراحات النَّفس، ويترع عنها الأوجاع، واحدة بعد الأخرى، تلك التي امتزجت بأعضاء الجسد. والأوجاع الأخرى الخارجة عن الجسد، التي امتزجت بالإرادة].

وهكذا يتَّضح أمامنا أن خطايا أو أوجاع أو جراحات الجسد تكون إمَّا بسبب أوجاع النَّفس وجراحاتها التي تنعكس بدورها على الجسد. وإما بسبب ضعف الإرادة التي ضعفت من جرَّاء تكرار الخطيئة والانغماس فيها.

وبعد أن يتحدَّث القدِّيس أنبا أنطونيوس عن كيف أن الرُّوح يعلِّم العقل أن يضع قانوناً للعينين لتنظرا باستقامة وبطهارة، وللأذنين أن تسمعا بسلامة، وأن يعلِّم اللِّسان طهارته، ويشفي حركات الأيدي، ويطهِّر البطن في أكلها وشربها، وكيف يميِّز أفكار الشَّهوة، ويعطي للرِّجلين طهارتهما لتسعيان باستقامة كإرادة الله، يقول:

[... إلى أن يتغيَّر الجسد كله، ويتجدَّد، ويصير تحت سلطان الرُّوح. وأرى أنه إذا تطهَّر الجسد كله، ونال ملء الرُّوح، فإنه يكون قد اتخذ شيئاً من الجسد الرُّوحي المزمع أن يُظهر في قيامة الأبرار].

ذلك كله بسبب قانون روحي يشرحه الأنبا أنطونيوس في رسالته الرَّابعة يقول فيه:

[الرُّوح لا يسكن في نفس إنسان قلبه نجس، أو في جسد يخطئ. فلكونه قوَّة مقدَّسة فهو بعيد عن كل غش].

ويختتم القدِّيس أنبا أنطونيوس رسالته الأولى بقوله:

[وهذا قلناه من أجل أوجاع النَّفس التي امتزجت بأعضاء الطبيعة الجسديَّة التي تتحرَّك فيها النَّفس، وتعمل (بواسطتها)، حتى أن النَّفس تصير مرشدة للأرواح الشِّريرة التي بها صارت فاعلة في أعضاء الجسد. ولكني قلتُ أيضاً أن للنَّفس حركات أخرى خارجاً عن الجسد، نريد أن نعرفكم بها الآن: الكبرياء وهو وجع من أوجاع النَّفس خارجاً عن الجسد. وبالمثل: التَّفاخر والحسد، الكراهية، الضَّجر، الملل، وبقية الآلام.

فإذا أسلمت النَّفس ذاتها لله من كل قلبها، فإن الله يتحنَّن عليها ويمنحها روح التَّوبة الذي يشهد لها على كل خطيئة، لكي لا تدنوا منها مرَّة أخرى، ويُظهر لها أولئك الذين يقومون ضدها، ويطلبون أن يعوقوها عن أن تفصل نفسها منهم، ويقاومونها بشدة لكي لا تثبت في التَّوبة. فإن احتملت وداومت على طاعة الرُّوح الذي يشير عليها بالتَّوبة، فإن الخالق يفاجئها ويتحنَّن على أتعاب توبتها، ناظراً إلى أتعاب

الجسد في الصَّلوات الدَّائمة، والصَّوم الكثير، والتَّضرُّعات والهذيذ في كلام الله، والتجرُّد من العالم، والتَّواضع والدُّموع، ومداومة التَّذلُّل. حينئذ يرى الله الرَّحيم تعبها وخضوعها، فيتراءف عليها ويخلِّصها].

وبذلك يشهد القدِّيس أنبا أنطونيوس أن روح التَّوبة هو عطيَّة من الله للذين يسلِّمون نفوسهم له من كل قلوبهم. فيقول في ذلك:

[لا تظنوا أن تقدُّمكم ودخولكم للحياة الرُّوحيَّة كان من عملكم الخاص، بل تفهَّموا أن قوَّة مقدَّسة تعينكم على الدَّوام. فجاهدوا أن تقدِّموا نفوسكم دائماً كذبيحة لله، لتعطوا فرحاً للقوَّة التي تعينكم، ومسرَّة لله في مجيئه، ولكل جماعة القدِّيسين، ولي أنا المسكين الفقير السَّاكن في هذا البيت الذي من طين وظلام] (الرِّسالة السَّادسة).

وذلك لكي لا تتحوَّل التَّوبة إلى جهادات بشريَّة تغذيها الذَّات وليس الله، فتُورِّط الإنسان فيما هو أردأ وأشر. ويحذِّر القدِّيس أنبا أنطونيوس من ذلك الخطر فيقول:

[بالحقيقة يا أولادي، أريدكم أن تعلموا أن كثيرين اتَّبعوا النُّسك في حياتهم، إلاَّ أن عدم الإفراز قتلهم ... إذا أهملتم نفوسكم ولم تميِّزوا أعمالكم، تسقطون في يد إبليس حينما تظنون أنكم قريبون من الله، وفي توقُّعكم النُّور تغطِّيكم الظُّلمة ... وهذا هو السَّبب أنه من دون الاتضاع العظيم بكل قلوبكم وعقولكم وأرواحكم بالنَّفس والجسد، لا تقدرون أن

ترثوا ملكوت الله[٤٠]] (الرِّسالة السَّادسة).

ومن أجل ذلك يكرِّر القدِّيس أنبا أنطونيوس في رسالته السَّابعة القول بأن الذي يحرِّر من الخطيئة ويمنح التَّوبة هو يسوع نفسه وليس آخر سواه، فيقول:

[... ولهذا أيضاً أخلى يسوع ذاته من مجده، وأخذ شكل العبد[٤١]، لكي بعبوديَّته يجعلنا أحراراً. وكنَّا قد صرنا أغبياء، وفي جهالتنا ارتكبنا كل أنواع الشُّرور. وهو أخذ شكل الجهالة لكي بجهالته نصير حكماء. وكنَّا قد صرنا فقراء، وفي فقرنا عدمنا كل فضيلة، وهو أيضاً أخذ شكل الفقر لكي بفقره يغنينا بكل حكمة وفهم[٤٢]. وليس هذا فحسب، بل وأخذ شكل ضعفنا، لكي بضعفه يجعلنا أقوياء. وصار مطيعاً للآب في كل شئ حتى إلى الموت، موت الصَّليب[٤٣]، لكي بموته تكون لنا القيامة. ولكي يبيد ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس. فإن كنَّا حقاً نحرِّر أنفسنا بمجيئه، فإننا نصير تلاميذ ليسوع، وننال فيه الميراث الإلهي].

وفي رسالته الخامسة يقول:

[فالآن يا أولادي لا تغفلوا عن أن تصرخوا النَّهار واللَّيل

٤٠- يؤكِّد القدِّيس أنبا مقار على ذلك التَّعليم في عظته رقم (٤١) بقوله: [أي شخص لا يثبت في تواضع كثير، فإنه يسلِّم للشيطان ويتعرَّى من النِّعمة الإلهيَّة التي سبق أن أُعطيت له، فيُجرَّب بشدائد كثيرة. وحينئذ يعرف نفسه على حقيقتها، أنه عريان وشقي ... فالذي يتواضع هكذا أمام الله والنَّاس يستطيع أن يحفظ النِّعمة المعطاة له كما يقول الرَّب «من يضع نفسه يرتفع» (لوقا ١٤:١١)].

٤١- فيلبي ٢:٧، ٨

٤٢- ٢كورنثوس ٨:٩

٤٣- فيلبي ٢:٨

إلى الله، لتستعطفوا صلاح الآب، حتى ينعم لكم بمعونة من السَّماء، ويعلِّمكم، حتى تعرفوا ما هو الصَّالح لكم].

يقول أنبا أنطونيوس أيضاً:

[لا تكنز خطيئتك التي صنعتها، لأن أفضل ما يقتنيه الإنسان هو أن يقر بخطاياه قدَّام الله ويلوم نفسه][٤٤].

كانت طلعته مضيئة بنور الرُّوح القُدُس، تنم عن نعمة عظيمة وعجيبة. وكان متميِّزاً في رصانة أخلاقه وطهارة نفسه.
بركة صلواته المقدَّسة تعيننا وتحفظنا وتؤازرنا آمين.

في تعليم القدِّيس أنبا مقار الكبير

أمَّا عن تعليم القدِّيس أنبا مقار الكبير (٣٠٠-٣٩٠م) عن موضوع التَّوبة والخلاص، فأختار منه فقط مثالاً من تعليمه عن العلاقة التي تربط بين النِّعمة والجهاد فيما يختص بخلاص الإنسان، ودخل الإيمان في ذلك.

ففي رسالته رقم (٤١) يقول:

[حينما يظلِّل عمل النِّعمة الإلهيَّة على النَّفس بحسب مقدار إيمان كل واحد، وينال الإنسان معونة من فوق، فإن النِّعمة إنما تظلِّله جزئياً فقط. لذلك فلا يتصوَّر أحد أن نفسه قد استنارت كلها مرَّة واحدة استنارة كليَّة. فلا يزال يوجد قدر من الخطيئة في الدَّاخل، ويحتاج الإنسان إلى تعب وكد كثيرَين على حسب النِّعمة المعطاة له. ولهذا السَّبب تبتدئ النِّعمة أن تفتقد الإنسان جزئياً مع أنها تملك القوَّة التي تطهِّر الإنسان، وتكمِّله في ساعة من الزَّمان. ولكنها تفتقد الإنسان جزئياً

٤٤- بستان الرُّهبان، مطرانية بني سويف، ١٩٦٨م، ص ٢٨٤

لكي تمتحن قصد الإنسان لترى هل يحفظ حبَّه نحو الله كاملاً بحيث لا يتفاوض مع الشِّرير في أي شئ، بل يسلِّم نفسه كليَّة للنِّعمة؟ وبهذه الطَّريقة عندما تنجح النَّفس مرَّة بعد مرَّة، وهي لا تُحزن النِّعمة في أي أمر، فإن الإنسان ينال معونة متزايدة. والنِّعمة نفسها تجد مرعى لها في النَّفس، وتضرب بجذورها في أعماق أعماقها، وفي كل أفكارها، إذ توجد النَّفس مقبولة وموافقة للنِّعمة بعد تجارب كثيرة، إلى أن تتشبَّع النَّفس تماماً بالنِّعمة السَّماويَّة التي تبدأ منذ ذلك الوقت فصاعداً أن تملك في الإناء نفسه (أي إناء النَّفس)].

وعند القدِّيس أنبا مقار الكبير، الذي يغيِّر النَّفس هو الرُّوح القُدُس نفسه. ولكن ليس بمعزل عن إيمان الإنسان واشتياقه إليه.

فيقول في عظته رقم (٤٤):

[الذي غيَّر الزَّانية إلى العفَّة والطَّهارة، وجعل طبيعة النَّار المحرقة برداً على أولئك الذين كانوا في الأتون. والذي غيَّر طبيعة الأسود الكاسرة لأجل دانيال، فإنه يستطيع أن يغيِّر النَّفس التي كانت مقفرة وشرسة من الخطيئة إلى صلاحه الخاص، ومحبَّته الشَّفوقة وسلامه، وذلك بالرُّوح القُدُس الصَّالح ... ويمكننا الحصول على هذه الأشياء إن كنَّا نؤمن به ونحبَّه بالحق، ونحيا سالكين بحسب جميع وصاياه].

وفي توضيح أكثر يقول:

[لا تستطيع أي نفس أن تعبر بذاتها بحر الخطيئة المر، والهاوية الخطرة، هاوية قوَّات الظُّلمة وأهواء الشَّر، إن لم تحصل على روح المسيح الخفيف السَّماوي، الذي يعلو ويسير

فوق كل شر ويعبر عليه ... لأنه بدون المسيح القائد السَّماوي لا يستطيع أحد أن يعبر البحر الشِّرير، بحر قوات الظُّلمة، وأمواج التَّجارب المُرَّة] (عظة ٤٤).

ويشير القدِّيس أنبا مقار في ختام عظته رقم (٤٤) إلى أن الإيمان والصَّلاة بمداومة هما وسيلة نوال الرُّوح القُدُس الذي يتمِّم فينا كل وصيَّة بلا لوم، لكي لا يظن أحد أن المسيح يعبر بنا كل شر بدون رغبة منا، وبدون إظهار استعدادنا الفعلي لتقبُّل معونته، فيقول:

[... لأنه إن لم ينل الإنسان وهو في هذا العالم، تقديس الرُّوح بكثرة الإيمان والصَّلاة ويصير مشتركاً في الطَّبيعة الإلهيَّة، ويتشرَّب النِّعمة التي بها يستطيع أن يتمِّم كل وصيَّة بنقاوة وبلا لوم، فإنه لا يكون معداً ولائقاً لملكوت السَّموات].

وهذا الشَّرح المسهب أوجزه الرَّب في قوله: «أنا الكرمة الحقيقيَّة، وأبي الكرَّام ... اثبتوا فيَّ وأنا فيكم. كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضاً إن لم تثبتوا فيَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذي يثبت فيَّ وأنا فيه هذا يأتي بثمر كثير. لأنكم بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يوحنا ١٥:١-٥).

مما سبق يتَّضح أمامنا أننا من جهتنا يلزمنا الإيمان والصَّلاة لكي نثبت في المسيح، وعندما نثبت فيه تظهر أعمالنا الحسنة كثمرة ثباتنا فيه، فلا نظن فيما بعد أن أعمالنا الحسنة هي التي تثبِّتنا في المسيح أو تقرِّبنا إليه، لأننا لا نقدر أن نفعل شيئاً بدونه.

ومن أجل ذلك يقول أنبا مقار الكبير قوله الشَّهير:

[كما أن بستاناً واحداً يستقي من ينبوع واحد، تنمو

فيه أثمار مختلف مذاقها وألوانها، كذلك الرُّهبان فإنهم يشربون من عين واحدة، وروح واحد ساكن فيهم، لكن ثمرهم مختلف. فكل واحد منهم يأتي بثمر على قدر الفيض المعطى له من الله].

هذه هي جذور حياة التَّوبة، وهذا هو مدخلها الوحيد، فالمسيح له المجد هو وحده الباب، وهو نفسه الطَّريق المؤدي إلى الحياة.

يقول القدِّيس أنبا مقار الكبير إنه لم يستطع أحد أن يكشف الشَّر الذي تغلغل في النَّفس بسبب معصية الإنسان حتى جعلها مظلمة. ولم يعرف أحد خطورة التَّغيير الذي أصاب النَّفس، وكيف أن العقل كان في الأصل نقياً يتأمَّل إلهه دائماً. وأما الآن فبسبب السُّقوط اكتست النَّفس بالعار، وعميت عينا القلب حتى لم تعودا تنظرا ذلك المجد. ثمَّ يقول:

[لا يوجد شئ في هذه الحياة يستطيع أن يشفي الإنسان من الخطيئة التي غرق فيها حتى صار غير قادر أن يرى الأشياء بوضوح، بل إن حضور المسيح وحده هو الذي يستطيع أن يطهِّر النَّفس والجسد] (عظة ٤٥).

ويقول أيضاً في عظته الرَّابعة:

[فلنسعى إذاً بحماس وغيره أن نأتي إليه بقلب تائب حقاً، غير يائسين من الخلاص. لأن اليأس هو نفسه خطيئة وإثم، وذلك حينما يتملَّك علينا تذكُّر الخطايا السَّالفة، فيقود الإنسان إلى اليأس وقطع الرَّجاء وإلى التَّراخي والإهمال والكسل، لكي لا يعود يرجع إلى الرَّب لينال الخلاص، حيث أن إحسان الرَّب العظيم ولطفه هو ممتد لكل جنس البشر].

إلاَّ أن القدِّيس أنبا مقار في عظته رقم (٢٩) يشرح كيف أن البعض تأتيهم نعم ومواهب الرُّوح القدس مقدَّماً، وهم يتقدَّمون حالاً في الإيمان والصَّلاة، بدون جهد أو عرق أو تعب، وهم موجودون في وسط العالم، وذلك بحكمة لا توصف لكي يمتحن الله حريَّة إرادتهم.

وكيف أن البعض الآخر برغم أنهم تركوا هذا العالم وتخلوا عنه بحسب الإنجيل، ويصرفون وقتهم في صلاة مستمرة وصوم وسهر وبقيَّة الفضائل، فإن الله لا يعطيهم النِّعمة في الحال، ولا الرَّاحة وفرح الرُّوح، بل يتأنى ويؤخِّر عطيَّته لهم. وذلك بحكمة أيضاً لأجل امتحان إرادتهم الحرَّة.

فالتوبة إذاً هي حياة في المسيح، يختار هو نوعها وأسلوبها، لأنه هو الذي خلق النَّفس، وهو وحده شافيها، والعارف بأسلوب خلاصها.

وقد كثر الذين يحضرون إلى أنبا مقار، فكان يرشدهم إلى طريق العبادة. وكان الإخوة يقتربون إليه في خوف كما إلى شيخ عظيم وقدِّيس. ولكثرة تواضعه كان يسترشد بمن هو أصغر منه. وكان يفتقد أولاده ويقودهم إلى التَّوبة باتضاعه الكثير.

وإننا في سيرة أنبا مقار الكبير لا نعدم معرفة كيف كان الإخوة يعترفون بخطاياهم لدي القدِّيس ويطلبون الصَّفح، كما نقرأ في سيرته عندما زار الأخ ثيؤبمبتس Theopemptus الذي كان مأسوراً من حرب الشياطين، وكان مع القدِّيس بعض الإخوة. فقال له الشَّيخ هل عندك شئ تقوله يا أخي؟ وكيف هي أحوالك؟ فقال له ثيؤبمبتس Theopemptus "في الوقت الحاضر، الأمور حسنة معي"، وذلك لأنه خجل أن يتكلَّم. وما زال القدِّيس به، ويوجد سبباً للكلام حتى اعترف الأخ بخطيئته. وإذ جعل الأخ يكشف أفكاره، أرشده حتى خلَّصه بتحنُّنه.

ومن سيرة القدِّيسين الرُّوميين مكسيموس ودوماديوس نعرف أن الرُّهبان كانوا يذهبون إلى القدِّيس أنبا مقار الكبير مراراً يسألونه في شؤونهم وأمور خلاصهم كأب ومرشد لهم.

عند تلاميذ أنبا مقار الكبير وغيرهم

وفي عصر أنبا مقار الكبير (٣٠٠-٣٩٠م) نقرأ عن توبة أنبا موسى الأسود الذي ركع أمام أنبا إيسيذوروس قس الإسقيط، وكان يعترف بصوت عالٍ بخطاياه، وجرائم حياته الماضية، وفي تواضع كثير وسط دموع غزيرةٍ، وبشكل يدعو إلى الشَّفقة. فأخذه القدِّيس إيسيذوروس إلى حيث يقيم أنبا مقار الكبير، الذي أخذ يعلّمه ويرشده برفق ولين، ثمّ منحه صبغة المعموديَّة المقدَّسة. واعترف علناً في الكنيسة بجميع خطاياه، وقبائحه الماضية. وفي أثناء اعترافه كان القدِّيس أنبا مقار يرى لوحاً عليه كتابة سوداء، وكلما اعترف أنبا موسى بخطيئة قديمه مسحها ملاك الله حتى إذا انتهى أنبا موسى من الاعتراف وجد اللوح أبيضاً كله[٤٥].

ويقول القديس أنبا موسي الأسود أعظم الخطاة التَّائبين آنئذ:

[من يتذكّر خطاياه ويقر بها لا يخطئ كثيراً. أمَّا الذي لا يتذكّر خطاياه ولا يقر بها فإنه يهلك بها].

ويقول أيضاً:

[الذي يقر بضعفه موبخاً ذاته أمام الله فقد اهتم بتنقية طريقه من الخطيئة].

ويقول أيضاً:

[صيانة الإنسان أن يقر بأفكاره. ومن يكتمها يثيرها عليه.

٤٥- بستان الرُّهبان، مرجع سابق، ص ٦٣، ٦٤

أمَّا الذي يقر بها فقد طرحها عنه][٤٦].

والتَّعليم الرَّهباني يشجِّع الخاطئ على الإقرار بالخطيئة لنوال الغفران أمام الله وأمام من ائتمنه الخاطئ على سرِّه. فمن أقوال أنبا إشعياء الإسقيطي للمبتدئين.

[إن أخطأت في أمر فلا تستح وتكذب. بل أسرع وقر بذنبك واستغفر، فيُغفر لك].

ويقول أنبا إشعياء الإسقيطي أيضاً:

[طوبى لمن اهتم من أجل جراحاته لتُشفى، وعرف خطاياه، وطلب من أجلها الغفران].

ويقول أيضاً:

[من كتم خطاياه عن صاحب سرِّه، فقد دلَّ على تعاظمه. وقد أستملك عليه عدوُّه. أمَّا الذي يفشي أفكاره فيستريح].

ومن تعاليم مار اسحق السِّرياني:

[المريض الذي يعترف بمرضه، شفاؤه هيِّن. كذلك الذي يقر بأوجاعه فهو قريب من البرء. أمَّا القلب القاسي فتكثر أوجاعه. والمريض الذي يخالف الطَّبيب يزيد عذابه][٤٧].

ونقرأ أيضاً عن قصَّة ذلك الأسقف الذي عاش أربعين سنة في تعب الأسقفيَّة وخوف الله، فحسده العدو وأسقطه في الزِّنا، فتقلَّبت نفسه في صنوف الويل، وبقي واقفاً على قدميه صائماً باكياً أسبوعاً كاملاً، ثمَّ خلع ثياب الأسقفيَّة، وجاء إلى قدام المذبح في الكنيسة وهو يبكي،

٤٦- نفس المرجع، ص ٣٠٨

٤٧- نفس المرجع، ص ٣٠٩

وينتحب حتى تعجَّب الشَّعب كله، وصاروا يبكون معه. فاعترف بخطيئته أمام شعبه. وإذ أراد أن يخرج من الكنيسة متنحياً عن الأسقفيَّة، أمسكه شعبه، وصرخوا جميعهم قائلين: "يا أبانا نحن نحمل هذه الخطيئة علينا وعلى أولادنا"، فلم يقتنع بذلك، فأمسكوه ومنعوه من الخروج. وإذ ألحوا عليه أن يبدأ القدَّاس، وافق بشرط ألاَّ يخالفوا أمره في نهاية القدَّاس. فبعد انتهاء القدَّاس، دعا جميع من في الكنيسة من كبير إلى صغير إلى امرأة وعبد وجارية، وقال: "من أجل الله كل من يريد أن يخرج يطأ بقدمه على وجهي ثلاث دفعات، ويقول: يا مسيح العالم اغفر له". وإذ فعلوا ذلك، إذا بصوت عظيم قد جاء حتى ارتعب الجميع، قائلاً: "ليس من أجل الوطء عليك قد غفرتُ لك، لكن لأجل تواضعك واعترافك بخطاياك". فلمَّا استقر الصَّوت في آذان الشَّعب مجَّدوا الله وانصرفوا[٤٨].

عند القدِّيس أنبا باخوميوس أب الشَّركة

والقدِّيس أنبا باخوميوس (+ ٣٤٨م) كان يعتني برهبانه غاية الاعتناء، فكان يجلس معهم مساء بعد صلاة الغروب ليستمع إلى أسئلتهم ويجيب عنها.

كتاب "سُلَّم الفضائل" ليوحنا الدَّرجي

أمَّا القدِّيس يوحنا كليماكوس (السُّلَّمي أو الدَّرجي[٤٩]) (٥٢٥-٦٠٠م) ففي مقالته الرَّابعة عن الطَّاعة المغبوطة دائمة الذِّكر يتحدَّث عن نظام التَّوبة والاعتراف بالخطايا في زمانه. ولقد اقتطعتُ مقتطفات من هذه

٤٨- نفس المرجع، ٣١٠، ٣١١

٤٩- القدِّيس يوحنا الدَّرجي عاش متوحِّداً في صحراء سيناء في القرن السَّادس الميلادي مدَّة أربعين سنة، ثمَّ انتُخب رئيساً لدير جبل سيناء. وقضى في رئاسة الدَّير بضع سنوات قليلة ثمَّ استقال من الرِّئاسة وعاد إلى خلوته قبل وفاته.

المقالة، لأن الشَّكل الذي آل إليه سرّ التَّوبة والاعتراف في نظامه الكنسي الحالي مأخوذ عن تقليد رهباني، ومن مصادر رهبانيَّة، من أهمها كتاب "السُّلّم إلى الله" ليوحنا الدَّرجي.

فقد كان هذا الكتاب من طليعة المراجع التي قامت عليها النَّهضة الرَّهبانيَّة الرُّوسيَّة في القرن الخامس عشر، حيث وُجد هذا الكتاب في مغاور مدينة كييف منذ القرن الثَّالث عشر. ويشهد كتاب "سائح روسي على دروب الرَّب" بانتشار كتاب "السُّلّم" في الأوساط الشَّعبية الرُّوسيَّة في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر. كما انتشر الكتاب انتشاراً واسعاً في كنيسة رومانيا وصار معروفاً أيضاً في الغرب منذ القرن الرَّابع عشر انطلاقاً من البلقان حتى وصل إلى هولندا.

وقد تُرجم الكتاب من الأصل اليوناني إلى اللُّغة السِّريانيَّة منذ القرن السَّابع الميلادي. كما تُرجم إلى اللُّغة الأرمينيَّة في القرن العاشر، وإلى اللُّغة السلافيَّة في القرن الثَّاني عشر، إلى جانب التَّرجمات الرُّومانيَّة والصربيَّة واليونانيَّة الحديثة.

ولقد تُرجم الكتاب إلى اللُّغة العربيَّة لأوَّل مرَّة سنة ١٩٠١م. أمَّا أقدم مخطوطة كاملة معروفة باللُّغة العربيَّة لكتاب "السُّلّم" فهي تعود إلى القرن الثَّالث عشر، ولكنه لم يُطبع بالعربيَّة إلاَّ في سنة ١٩٣١م، في ملخَّص مختصر للشَّيخ صفي ابن العسَّال الذي توفي سنة ١٢٦٠م. وأُعيد طبع الكتاب في القاهرة سنة ١٩٤٦م، ثمَّ سنة ١٩٧٣م في مطبعة الأنبا رويس بالعباسيَّة بالقاهرة بعنوان: "سلّم السَّماء ودرجات الفضائل".

يقول الدَّرجي:

– ١٠:٤ "لنقر بخطايانا لقاضينا الصَّالح وحده قبل أي إنسان. وإن أُمرنا فلنعترف بها لكل النَّاس، لأن الجراحات إذا شُهرت لا تصير إلى

حال أسوأ بل تُشفى".

- ١١:٤ "شهدتُ مرَّة في دير راع وقاض صالح، حُكماً مريعاً. فقد اتفق لما كنتُ هناك أن لصّاً محترفاً تقدَّم إلى السِّيرة الرَّهبانيَّة. فأمر ذلك الرَّاعي الفاضل والطبيب الحاذق أن ينعم اللِّص براحة كاملة مدَّة أسبوع، يقتصر فيها على ملاحظة النِّظام المتَّبع في الدَّير.

وبعد انقضاء الأسبوع استحضره الرَّاعي على انفراد وسأله إن كان يرضى بالسُّكنى معهم. ولما رآه راضياً بذلك بكل صدق، سأله أيضاً عن طبيعة المعاصي التي ارتكبها في العالم. ولما رآه قد بادر إلى الاعتراف بها بنشاط، قال ممتحناً إياه: أريدك أن تشهر أعمالك هذه بحضرة جميع الإخوة. وإذ كان قد مقت خطيئته حقاً، ولم يبال بالخجل قط، قَبِل بهذا بلا ارتياب، وقال: إن شئتَ فإني اعترف بها في وسط الإسكندريَّة.

وفي يوم الأحد التَّالي جمع الرَّاعي كل أغنامه النَّاطقة البالغ عددها مائتين وثلاثين راهباً. وبعد تلاوة الإنجيل أثناء إقامة الخدمة الإلهيَّة، أحضر ذلك المجرم المزكيَّ، بجره بعض الإخوة ويلطمونه برفق، وقد كُتِّفت يداه وراء ظهره، وأُلبس مسحاً من شعر، ونُثر على رأسه رماد، فانذهل الجميع لهذا المشهد، وأخذوا يجهشون بالبكاء، إذ لم يكن أحد على علم بما يجري.

ولما وصل إلى باب الكنيسة على هذه الحال، صرخ به ذلك الرَّئيس القدِّيس والقاضي الرءوف بصوت عظيم قائلاً: قف عندك، فأنت لستَ أهلاً أن تدخل إلى هنا. فانذهل من صوت الرَّاعي الذي أتاه من الهيكل كل الانذهال — إذ ظن أنه لم يسمع صوت إنسان، بل صوت رعد على ما أكَّد لنا بقسم فيما بعد - وجثا على وجهه في الحال، مرتجفاً بجملته ومرتعشاً من الخوف. وإذ كان طريحاً على الأرض يبلها بدموعه أمره

ذلك الطَّبيب العجيب محدِّداً أن يبوح أمام الجميع بكل ما اقترفه، وذلك لكيما يحقّق خلاصه، ويجعله للجميع مثالاً للخلاص والاتضاع.

فاعترف بالتَّفصيل، وهو مرتعد، بكافة جرائمه. وقد استغربها واستهولها كل من سمع بها. إذ أن خطاياه لم تكن خطايا جسدية طبيعيَّة وغير طبيعيَّة اقترفها مع النَّاس والبهائم فحسب، ولكنها بلغت إلى جرائم التَّسميم والقتل وغيرها مما لا يجوز سماعه أو كتابته. ولما أتمّ إقراره هذا، أمر الرَّئيس حالاً بقص شعره، وإحصائه في عداد الإخوة".

– ١٢:٤ "فعجبتُ لحكمة ذاك البار وسألته على انفراد: لماذا صنعت به هذا الأمر الغريب؟ فأجابني ذلك الطَّبيب الحقيقي قائلاً: لغرضين اثنين، أولهما لكيما أخلّصه من الخزي الآتي بواسطة الخزي الحاضر، وهذا ما تم فعلاً، لأنه بالحقيقة يا أخي يوحنا، ما أن نهض عن الأرض حتى كان قد حظي بالصَّفح عن خطاياه كلها. لا تشك بصحة ذلك، فإن أحد الإخوة الحاضرين أسرَّ لي بأنه قد رأى شخصاً رهيباً يمسك ورقة مكتوبة وقلماً، فكان يشطب بقلمه على كل خطيئة يقر الطَّريح بها. وهذا بعدل وإنصاف، لأنه قيل: «قلتُ أعترف للرَّب بذنبي، وأنت صفحت عن خباثة قلبي» (مزمور ٣١:٥). أمَّا الغرض الثَّاني فهو أن عندي بين الإخوة من قد اقترفوا ذنوباً لم يكشفوها، فبهذه الطَّريقة استحثهم على الاعتراف بها. إذ بدون الاعتراف لا ينال أحد الصَّفح عن زلاته".

– ١٨:٤ "وكان إذا أذنب أحدهم، يتضرَّع إليه الإخوة رفاقه أن يدعهم يعتذرون عن الذَّنب لدى الرَّاعي، لاقتبال التَّوبيخ عوضاً عنه. فإذ درى هذا العظيم بذلك كان يخفّف العقوبة لعلمه بأن من يحتملها غير مذنب. ولم يكن بالطَّبع يفحص عمن ارتكب الذَّنب بالفعل".

– ٣٢:٤ "وقد صادقني مدبِّر الدَّير فأسرَّ لي قائلاً: عندما كنتُ

شاباً، ومكلّفاً بالاعتناء بدواب الدَّير، سقطتُ مرَّة سقطة روحيَّة كبيرة. ولكني إذ اعتدت ألاّ أخفي البتَّة حيَّة ما في وكر قلبي، أشهرتها حالاً للطبيب. فربت على خدي بوجه مبتسم، وقال: 'اذهب يا ابني وتابع عملك كالسَّابق، ولا تخف إطلاقاً'. وإذ قبلت ذلك منه بإيمان ملتهب أحسست يقيناً بشفائي بعد أيام قليلة، وأكملت طريقي بفرح وخوف معاً".

- ٣٩:٤ "وراقبت مرَّة الأخ المكلّف بغرفة الطّعام، فلاحظتُ أنه يحمل على الدَّوام دفتراً صغيراً معلّقاً في زناره. ثمّ علمت أنه يكتب عليه كل يوم خلاصة أفكاره، ليكشفها للأب الرَّئيس. ثمّ رأيت أن كثيرين آخرين يصنعون كذلك أيضاً. وقيل لي إن هذا إنما هو بأمر مرشدهم العظيم".

- ٤٤:٤ "مغبوط هو من يميت إرادته حتى النهاية، ويسلّم أمره لمرشد في الرَّب، فإنه سيقف عن ميامن المصلوب. إذا أبى أحد أن يقبل توبيخاً، محقاً كان أو غير محق، فقد رفض خلاص نفسه. وإذا قبل التَّوبيخ بتعب أو حتى بغير تعب، حظي سريعاً بغفران خطاياه".

- ٥٣:٤ "إذا عزم المرء على الاعتراف بخطاياه على الدَّوام، فإن هذا العزم يكون له بمثابة لجام يردعه عن ارتكاب الخطيئة، لأن ما لا نعترف به نفعله بدون خوف كما في الظّلام".

- ٦٢:٤ "أيها الابن والعبد المطيع للرَّب، لا تنخدع بروح الغرور، فتكشف ذنوبك لمرشدك كأنها ذنوب شخص آخر. فإنك لا تستطيع الهرب من العار إلاّ بالعار. فمن عادة الشيطان في كثير من الأحيان أن يقنعنا بألاّ نعترف البتَّة أو بأن نعترف وكأننا نقر بخطايا غيرنا. أو أن نلقي اللّوم في خطيئتنا على الآخرين. اكشف جرحك للطبيب مجرَّداً عارياً. قل ولا تخجل. يا أبت هذا الجُرح جرحي. هذه الضَّربة ضربتي، قد حدثت من توانٍ فقط. أنا أحدثتها بإهمالي وحسب، ولا يُلام بسببها

إنسان، ولا روح، ولا جسد، ولا شئ آخر سوى تهاوني".

- ٦٣:٤ "حين اعترافك بخطاياك، انسحق بخلقك ومظهرك وفكرك كأنك مجرم تحاكَم. اطرق برأسك إلى الأرض وبل بدموعك إن أمكنك قدمي قاضيك، وطبيبك كأنه المسيح".

- ٦٦:٤ "لا تستصغر أن تعترف بخطاياك بانسحاق كأنك تعترف بها لله معينك. فإني رأيتُ مجرمين قد ليَّنوا صرامة القاضي وحوَّلوا غضبه إلى رأفة بفضل خلقهم المنسحق، واعترافهم الصَّادق الحار، وضراعتهم. لذلك كان يوحنا السَّابق أيضاً يسأل القادمين إليه أن يعترفوا قبل اعتمادهم، ليس لأنه كان محتاجاً إلى اعترافهم، بل تحقيقاً لخلاصهم".

- ٦٧:٤ "لا نعجبن لاستمرار القتال علينا بعد اعترافنا بخطايانا، فإن مصارعة الأفكار أفضل من مصارعة الغرور".

- ٧٢:٤ "إن النُّفوس المريضة التي تتداوى لدى طبيب وتنتفع منه، ثمَّ تتركه قبل أن تُشفى تماماً، مفضِّلة عليه طبيباً آخر، تستحق كل قصاص من الله. لا تفلت من يدي الذي حملك إلى الرَّب، فإنك لن تجل في حياتك أحداً نظير إحلالك له"(٥٠).

ولقد تحدَّث القدِّيس يوحنا الدَّرجي كثيراً عن التَّوبة ولزومها جنباً إلى جنب مع الاعتراف بالخطايا. ولكنني انتقيتُ الأقوال التي تتحدَّث عن أهميَّة الاعتراف على المرشد الرُّوحي في الحيَّاة الرهبانيَّة، أو الكاهن، لكي نتتبَّع أصول هذا السِّر المقدَّس في القرون الأولى، وذلك بعد أن عرضتُ لجانب من مفهوم التَّوبة عند آباء الرَّهبنة الأولين، القدِّيس أنبا أنطونيوس،

٥٠- القدِّيس يوحنا الدَّرجي، السُّلَّم إلى الله، تعريب رهبنة دير مار جرجس الحرف، لبنان، ١٩٧٩م.

والقدِّيس أنبا مقار الكبير، وبعض من تلاميذهم.

وفي عظة للقدِّيس تادرس السِّيكاوي[٥١] لتلاميذه:

"... لذلك أيها الإخوة، لا نخفي فكراً مما عملناه بخديعة عدونا الشيطان، بل نعترف به في زماننا هذا، ونأخذ عليه الغفران من المتوسِّطين بيننا وبين الله، ونعمل توبة على فكر غُلبنا منه ...".

هذه مقتطفات من أقوال تعود إلى القرن السَّادس الميلادي عن أهميَّة الاعتراف بالخطيئة لغفرانها. فبعد أن نبع التَّيار الرَّهباني من مصر، واندفع بقوَّة في القرون الرَّابع والخامس والسَّادس لينتشر من مصر إلى فلسطين وسوريا وآسيا الصُّغرى، عاد فانعطف إلى جبل سيناء ابتداء من القرن السَّادس والسَّابع للميلاد، ليجمع خبرة روحيَّة لآباء جازوا الطَّريق عبر ثلاثة أو أربعة قرون خلت، وخلَّفوا من ورائهم طريقاً جديداً راسخاً، ظلَّ حتى اليوم شاهداً بصلابته واستقامته، وذلك لدموع الصَّلوات الكثيرة التي روته، والجهادات التي أرسته طريقاً للحياة الأبديَّة، إلى حيث يسوع.

٥١- أرشيمندريت بيزنطي، ناسك وأسقف مدينة أناستاسيوبوليس. وُلد في مدينة سيكاون Sykeon في أناتوليا بآسيا الصُّغرى في منتصف القرن السَّادس الميلادي، وتنيح في إبريل سنة ٦١٣م. وقد أقيم أرشيمندريتاً لدير سيكاون بعد عشر سنوات في الوحدة، وهو أحد الأديرة التي أسَّسها. واشتهر بعمل المعجزات الكثيرة، ومكث في كرسي الأسقفيَّة ١١ سنة. ولمحبته للهدوء والنُّسك اعتزل من منصبه وعاد إلى ديره حيث قضى فيه بقيَّة حياته.

مخطوط رقم (٥٠ س) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، يعود تاريخ نساخته إلى سنة ١٢٤٣م. تحقيق أحد رهبان دير القدِّيس أنبا مقار.

الفَصل الرَّابع

من القرن السَّابع

وحتى الحادي عشر للميلاد

انحسار التَّوبة العلنيَّة أمام الجماعة وانتشار الاعتراف السِّري

انحسرت التَّوبة العلنيَّة تماماً أمام الجماعة، واتَّخذت التَّوبة في الكنيسة طابع التَّقليد الرَّهباني، حيث صار المؤمن يمارس اعترافه أمام الكاهن سراً. وبدأ السِّر الكنسي كسر توبة واعتراف ينحصر رويداً رويداً في مجرَّد الاعتراف بالخطيئة على الكاهن، وذلك على حساب التَّوبة التي كان يلزم أن يقدِّمها التَّائب أولاً أمام الله، فتعطَّل النُّمو الرُّوحي للمعترف، و لم يستطع أن يتخلَّص من الخطيئة التي اعترف بها مراراً، ليس لملامة في تكرار الاعتراف بالخطيئة، بل بسبب فتور مخافة الله التي تسرَّبت إلى القلب. ومن ثمَّ فقد صار تكرار الاعتراف بالخطيئة لا يشفيها.

فداود النَّبي عندما تاب عن خطيئة الزِّنا صلَّى إلى الرَّب قائلاً: «ها قد سُررتَ بالحق في الباطن، ففي السَّريرة تعرِّفني حكمة» (مزمور ٥١:٦)[1]. فالباطن والسَّريرة تشيران إلى أفكاره. فقد عرف داود أن الفعل الجسدي يبدأ بخطيئة الشَّهوة في العقل، فطلب من الرَّب حكمة في السَّريرة أي أن تغمر مخافة الرَّب أفكاره فلا يعود يخطئ. ومكتوب أن «رأس الحكمة مخافة الرَّب» (مزمور ١١١:١٠).

إن التَّوبة عن الخطيئة لا تعتمد على اعترافنا بها فحسب، بل وأيضاً على مدى بُغضة القلب لها. فالتَّوبة في جوهرها تغيير للعقل، وتغيير عميق

١- يقابله في التَّرجمة السَّبعينيَّة: «لأنك هكذا قد أحببتَ الحق إذ أوضحتَ لي غوامض حكمتك ومستوراتها».

في القلب، بل وتغيير للحياة كلها. ففرعون مصر قد اعترف بخطيئته، ولكنه لم يتب عنها، لأن مخافة الله لم تكن في قلبه. فنقرأ في الأصحاح التَّاسع من سفر الخروج: «فأرسل فرعون ودعا موسى وهرون وقال لهما: أخطأت هذه المرَّة. الرَّب هو البار، وأنا وشعبي الأشرار» (خروج ٩:٢٧). ولكن موسى لم ينخدع بهذا الاعتراف، وقال له: «أمَّا أنت وعبيدك، فأنا أعلم أنكم لم تخشوا بعد من الرَّب الإله» (خروج ٩:٣٠). وسرعان ما نقرأ في العدد ٣٤ من نفس الأصحاح: «ولكن فرعون لما رأى أن المطر والبرد والرُّعود انقطعت، عاد يخطئ، وأغلظ قلبه هو وعبيده».

وفي سفر صموئيل الأوَّل (أصحاح ٢٤، ٢٦) أراد شاول مراراً أن يقتل داود، ولما وقع شاول في يدي داود، و لم يفعل داود به شراً، و لم يمد يده إلى مسيح الرَّب، بكى شاول عندما أدرك خطيئته، وقال لداود: «أنت أبر مني، لأنك جازيتني خيراً، وأنا جازيتك شراً» (١صموئيل ٢٤:١٧). ولكن شاول لم يتب عن خطيئته، وعاد يطلب قتل داود، لأن الحسد والبُغضة تملَّكا على قلبه، فلم ينفعه اعترافه شيئاً.

وفي تعليم الشُّيوخ نقرأ:

سؤال: كيف تتحقَّق النَّفس أن الله قد سامحها من خطاياها؟.

الجواب: "إذا ما نظرت ذاتها في رتبة ذاك القائل: «قد أبغضتُ الظُّلم ورذلته، وناموسك أحببته» ... فلنعمل عمل التَّوبة، لنُظهر حكم الله العادل، ويتم فينا رحمته، إذ يغفر لنا خطايانا".

الاعتراف بالخطيئة على الكاهن، هو اعتراف للرَّب بها بحضور الكاهن، لأن الذي يغفر الخطيئة هو الرَّب بفم الكاهن. والكاهن الذي يقول للخاطئ مغفورة لك خطاياك، فهو يقولها بالسُّلطان الممنوح له من الله، وليس بسلطانه الذَّاتي. ومن ثمَّ فالخاطئ التَّائب لا ينال غفراناً سحرياً

أو آلياً للخطيئة، بل لابد للخاطئ أن يدرك أنه يقرِّر أمام الله بحضور الكاهن ترك الطَّريق الذي يقود إلى الخطيئة وهلاك النَّفس، لكي يحيا لله بشهادة الكاهن التي استأمنه الله على خلاص النُّفوس. فسر التَّوبة يشفي النَّفس لتعود إلى نقاوتها الأولى، والكاهن شاهد على هذا الشِّفاء، لأنه مرشد وموجِّه للنَّفس، وواصف للعلاج.

ونعرف من القانون رقم (١٠٢) من قوانين مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م - وهو القانون الأخير لهذا المجمع - أن الاعتراف السِّري على الكاهن قد صار أمراً شائعاً في الشَّرق، حتى صار من اللازم وضع تقنين له، فيقول القانون:

"يجدر بالذين تلقوا من الله سُلطان الحل والرَّبط، أن ينظروا إلى نوع الخطيئة، وإلى استعداد الخاطئ للرُّجوع، وأن يستعملوا الدَّواء النَّافع لكل مرض، لئلا يؤدي عدم مراعاة الاعتدال في كل حالة إلى الخيبة في شفاء الإنسان المريض، وإعداده لقبول الخلاص. إن أمراض الخطيئة مستعصية، ومتعدِّدة الأنواع، وينشأ عنها مضاعفات مختلفة مؤذية وخبيثة من كثرة ما يتفرَّع منها من الشُّرور. وهي تمتد وتزيد استعصاءً حتى يعسر على الطَّبيب الخبير أن يضع لها حداً.

لذلك فعلى كل من يتعاطى وظيفة الطِّب الرُّوحاني أن يأخذ بعين الاعتبار استعداد الواقع في الخطيئة، وموقفه، وأن يتحقَّق مقدار قبوله للشِّفاء، أو إذا كان سلوكه الشَّخصي قد أدَّى إلى استيلاء الدَّاء على نفسه. وعليه أن يدرس الخطط التي تساعده على العناية بتجدُّد سيرته أثناء المعالجة.

وكذلك يجب عليه أن يفحص لعل الخاطئ يقاوم معالجة الطَّبيب، فأدَّت العلاجات الموصوفة إلى تمكُّن العلَّة، واتساع القُرحة في النَّفس.

فينظر إليه بالرَّحمة، ويستعمل الأدوية بالحكمة، وبمقدار. لأن الذي سُلِّمت إليه سلطة الرِّعاية، ليرد الخراف الضَّالة، ويشفي التي لسعتها الحيَّة، سيقدِّم الحساب كله لله. إذ عليه أن يقود الخراف فلا تتدهور في مهاوي اليأس، ولا يرخي لها العنان، فتنطلق في سُبُل الإباحة والاستهتار. فهو يستعمل هذه الطَّريقة أو تلك، آناً بالصَّرامة والتَّشدُّد، وأحياناً باللِّين والعلاجات اللَّطيفة، فيحُول بالحكمة دون أن يصير المرض عقاقاً، والقرحة غير قابلة للشِّفاء، فاحصاً دوماً ثمار توبة الخاطئ. وبحسن الدِّراية يقوده إلى الاستنارة العلويَّة. ويجب أن نختبر الحالين، وندرس الخطَّتين معاً. أي ما يحتاج إلى الشِّدة والصَّرامة، وما تقضي به العادة. وأن نتبع الخطَّة التَّقليديَّة في أمر الذين لم يصيروا أهلاً بعد لما هو أسمى كما يعلِّمنا القدِّيس باسيليوس".

التَّوبة والاعتراف في الكنيسة البيزنطيَّة بدءاً من القرن السَّابع

ابتداء من القرن السَّابع الميلادي اتَّجهت الكنيسة البيزنطيَّة إلى اعتبار **أن الاعتراف على الكاهن هو الطَّريق الوحيد للحصول على مغفرة الخطايا!**. وقد تبنَّى هذا الاتجاه ودافع عنه أناستاسيوس السِّينائي (+ ٧٠٠م) رئيس دير سانت كاترين في صحراء سيناء. وقد قاوم بشدَّة تعليم الكنيسة القبطيَّة – ومعها الكنائس الأرثوذكسيَّة الشَّرقيَّة القديمة – عن الطَّبيعة الواحدة في شخص السَّيِّد المسيح monophysitism [٢]. وقد ربط في تعليمه بين الاعتراف والتَّناول رباطاً صار من المتعذِّر معه – بحسب تعليمه – التَّقدُّم للتَّناول في أي مرَّة قبل الاعتراف أولاً على يد الكاهن!. وكانت هي البذرة التي أنبتت عوسجة غريبة عن تقليد الكنيسة الأصيل، وهو ما سيرد شرحه في الصَّفحات التَّالية من هذا الكتاب.

2- ODCC, 2nd edition, p. 49.

وجدير بالذِّكر أنه كان يجب الانتظار إلى القرن الثَّاني عشر أو الثَّالث عشر لكي نجد تحديداً واضحاً لسرَّين كنسيين هما سرّ التَّوبة والاعتراف، وسر مسحة المرضى، وهو ما ظهر أولاً في الغرب، ثمَّ في الكنائس الشَّرقيَّة بعد ذلك تحت تأثير اللاهوت اللاتيني، باستثناء الكنيسة الآشوريَّة (النَّسطوريَّة) التي لم تبلغ بعد هذا التَّحديد[٣].

وإنه من العجيب حقاً أنه بعد ثلاثة عشر قرناً تقريباً يظهر لاهوتي أرثوذكسي شهير في الكنيسة البيزنطيَّة نفسها هو الأب ألكسندر شميمان (+ ١٩٨٣م) ليقول في كتابه "الصَّوم الكبير"[٤]: "ما هو دور سرّ الاعتراف في التهيئة للتَّناول؟ إن طرح هذا السؤال واجب، لأنه **في كثير من الكنائس الأرثوذكسيَّة تنمو عقيدة أصبحت مقبولة اليوم عموماً تؤكِّد أن المناولة للعلمانيِّين مستحيلة بدون الاعتراف والحل.** ولو رغب المرء أن يتناول مراراً، فعليه في كل مرَّة أن يعترف، أو على الأقل أن يذهب إلى الكاهن ليحاللـه. **لقد حان الوقت أن نقول علناً إنه مهما كانت الأسباب التي دعت إلى هذه العقيدة وممارستها، فهي لا أساس لها في التَّقليد، وهي تقود إلى انحرافات خطيرة في العقيدة الأرثوذكسيَّة للكنيسة، وسرّي الشُّكر والتَّوبة فيها**"[٥].

ولقد ظهر في غضون القرن التَّاسع الميلادي أو بعده بقليل كتاب بعنوان: Ακολουθία καί τάξις ἐπὶ ἐξομολογουμένων أي "ترتيب وطقس الاعتراف". يحوي تأديبات كنسيَّة صارمة فُرضت على المعترفين بخطاياهم. وظلَّ هذا الكتاب سائداً فترة طويلة في الشَّرق. وكانت نتيجة

٣- الأب هنري دالميس الدومينكي، الطُّقوس الشَّرقيَّة، مرجع سابق، ص ١٢١

٤- انظر: مجلَّة النُّور، العدد ٤، سنة ١٩٨٥م.

٥- أوردتُ جانباً من هذا المقال في موضع آخر، لأننا الآن بصدد عرض تاريخي متتابع للمراحل التي عبر عليها سرّ التَّوبة والاعتراف.

هذا الأمر أن ندر الاعتراف جداً مما أدى بالتَّالي إلى تقلُّص واضح في عدد المتقدِّمين للتَّناول من سرّ الإفخارستيَّا. ولقد نُسب هـذا الكتـاب إلى البطريرك البيزنطي يوحنا الصَّائم (+ ٥٩٥م)، وهو يوحنا الرَّابع بطريـرك القسطنطينيَّة بدءاً من سنة ٥٨٢م. ولكن هذا البطريرك ليست له كتابات معروفة سوى عظة على التَّوبة والعفَّة والبتوليَّة تعتمد كثيراً على تعلـيم القدِّيس يوحنا ذهبي الفم[٦].

التَّوبة والاعتراف في الغرب المسيحي

وفي الغرب انتشر في كل أوروبا ما صار يُعرف باسم "كُتُـب التَّوبة – Penitential Books" وهي مجموعة من الكُتُـب الـتي تحـوي توجيهات للمعرِّفين في شكل صلوات واستفسـارات يسـألون عنـها الخاطئ. وقائمة شاملة لكل أنواع الخطايا مع التَّوبة المناسبة لكل واحدة منها. ومعظم قوانين التَّوبة يقوم على الصَّلوات والأصوام. وعن طريـق الإرسـاليَّات التَّبشـيريَّة ذات الأصـل السِّـلتي Celtic Origin والأنجلوساكسوني Anglo-Saxon انتشرت هذه الكُتُب في كـل أنحـاء أوروبا. وإن أفضل مثال لمثل هذه النَّوعيَّة من الكُتُب هو ما يُنسب منها لثيؤدور رئيس أساقفة كانتربري (٦٦٨-٦٩٠م) بإنجلترا، وهو من أصـل آسيوي، تعلَّم في طرسوس وأثينا، ولكنها في الحقيقة تعـود إلى تـاريخ متأخِّر عن ذلك، حيث قد ضاعت كل مؤلَّفات ثيؤدور هذا[٧].

6- ODCC, 2nd edition, p. 749.

7- ODCC, 2nd edition, p. 1060, 1360.

التَّوبة والاعتراف في القرن العاشر في مصر

وفي بداية القرن العاشر الميلادي في مصر نقرأ عن سيرة البابا غبريال الأوَّل (٩٠٠-٩١١م) البطريرك الإسكندري السَّابع والخمسون. وكان من رهبان دير القدِّيس أنبا مقار. وإذ كان قد تعرَّض لقتال شديد من حرب الشَّهوة التي أثارها عليه عدو الخير، فجاهد وتوجَّع وتألَّم، ولكنه لم ينج من هذه الحرب الشَّرسة إلاَّ بعد أن أسرع إلى بريَّة شيهات، وكشف أمره لشيوخ البريَّة. فنال منهم النُّصح والإرشاد عندما أعلموه أن مصدر قتال الشَّهوة هو الفخر ومحبَّة المجد الباطل، والاعتداد بالذَّات. وأن علاجها هو الاتضاع والمسكنة واحتقار الذَّات، وحياة النُّسك. وإذ تقبَّل البطريرك النُّصح من شيوخ البريَّة نظر الله إلى مسكنته وتواضعه، ورفع عنه قتال الشَّهوة.

هنا نظرة صحيحة لمفهوم الدَّواء لعلاج الأمراض الرُّوحيَّة. والله عندما رفع هذه الحرب عن هذا البابا البطريرك القدِّيس، لم ينظر إلى نسكه بقدر ما نظر إلى اتضاعه ومسكنته، وهو في الحقيقة كان قد أظهر عظم اتضاعه عندما كشف للشُّيوخ خطيئته، واعترف بها أمامهم.

ومن أهم الشَّخصيَّات التي ظهرت في القرن العاشر الميلادي في مصر، هو الأنبا ساويرس بن المقفَّع أسقف الأشمونين، إذ نعرف من قائمة مؤلَّفاته والتي أوردها القس أبو البركات بن كبر، أن له كتاباً بعنوان: "التَّعاليم في الاعتراف بالذنوب"، وهو من بين ٢٦ مؤلَّفاً له، ولكنه لم يُنشر بعد.

انتشار مخطوط بين الأقباط منسوب خطأ للأنبا ساويرس ابن المقفع

نُشر في السَّبعينيات من القرن العشرين كتاب بعنوان: "**ذبيحة**

الاعتراف للقدِّيس الأنبا ساويرس الشَّهير بابن المقفع أسقف الأشمونين من آباء القرن العاشر"[٨]، بواسطة أبناء البابا كيرلس السَّادس. ولقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً واسعاً في الكنيسة القبطيَّة. ففي صفحة ٦ منه يورد النَّاشر نص رسالة بخط يد المتنيِّح الأب الحبيب القُمُّص بيشوي كامل مؤرَّخة بتاريخ ١٢/٥/ ١٩٧٣م وفيها نقرأ ما نصُّه: " ... كان آخر كتاب قرأته هو ذبيحة الاعتراف. الحقيقة هذا الكتاب ترك أثر كبير جداً في نفوس كثيرة ..." ولكن هذا الأب البار لم يحدِّد نوع هذا الأثر الكبير الذي تركه الكتاب المذكور في نفوس قارئيه.

وفي الحقيقة فإن هذا الكتاب لا يخص الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين في شئ. فالأسلوب وطريقة معالجة القضايا الإيمانيَّة مختلف تماماً عمَّا هو معروف عن كتابات الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين[٩]. ومن جهة أخرى فإن ما ورد في هذا المخطوط من حديث عن الاعتراف على الكاهن، فيه تطرُّف وجنوح عن تعليم آباء الكنيسة.

٨- اكتفى النَّاشر بملحوظة في آخر صفحة ١٠ من الكتاب المذكور يقول فيها: "هذا الكتاب عبارة عن عدَّة مقالات وُجدت بمخطوط لا عنوان له. وقد قمنا بتبويب هذه المقالات وتنسيقها وتصحيح لغتها، ووضع العناوين، واختيار اسم الكتاب".

٩- يقول الأب سمير خليل اليسوعي، وهو متخصِّص في دراسة التُّراث العربي المسيحي: "لقد قرأنا عشرات، بل قل مئات، من مؤلَّفات النَّصارى العرب، إلاَّ أننا لم نجد أبداً خلال دراستنا للمفكِّرين العرب، من يضاهي ساويرس في معرفته للكتاب المقدَّس ... ففي كتابه المعروف بكتاب: الدُّر الثَّمين في إيضاح الدِّين، يذكر ساويرس ١١٦١ نصاً كتابياً ... كذلك معرفته لآباء الكنيسة تفوق مستوى معاصريه؛ ففي نفس كتاب "الدُّر الثَّمين" المذكور أحصى النَّاشر الألماني ١٩١ مرجعاً لآباء الكنيسة، سوى نصوص أخرى لم يعتبرها من التُّراث الآبائي ... وإذا تذكَّرنا أن كثيراً من هذه النُّصوص، أو قل معظمها، لم تكن مترجمة بعد إلى اللُّغة العربيَّة، لفهمنا المجهود الجبَّار الذي بذله ساويرس للتعرُّف على الآباء في الأصول ...".

انظر: ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، القاهرة ١٩٧٨م، ص ١١

فحين يتحدَّث المخطوط - الذي نقل عنه الكتاب المذكور - عن ضرورة الاعتراف على الكاهن قبل التَّناول، يتكلَّم في مواضع كثيرة منه عن **حتميَّة قبول التأديب** الذي يوقِّعه الكاهن على المعترف قبل التَّناول، وإلاَّ ما يحق له التَّناول. وأما عن قول الإنجيل المقدَّس: «لأن الذي يأكل ويشرب بدون استحقاق يأكل ويشرب دينونة لنفسه، غير مميِّز جسد الرَّب» (١كورنثوس ١١:٢٩)، فقد اعتبر أن عدم الاستحقاق هذا هو عدم الاعتراف على الكاهن. وإن هذه الخطيئة هي أعظم من خطيئة الزِّنا والقتل وعبادة الأصنام، أعني خطيئة الذي يجسر على أكل جسد الرَّب وشرب دمه بغير اعتراف، وقانون خطيئته أعظم من كل الخطايا، لأن الرَّسول قال عن هذا الإنسان إنه مطالَب بجسد ودم الرَّب (ص ٤٨)!.

كما يقول المخطوط (ص ٤٩ في المرجع المذكور):

"... لأن الرَّب قال عن هذا الأكل، كما قال لآدم عن أكل تلك الشَّجرة، 'إنك إذا أكلت منها موتاً تموت'. قالت الحيَّة تكذيباً لكلمة الله 'لا تموت إذا أكلت منها، بل خلاف ذلك أنك تصير إلهاً"[١٠]. وكذلك قال الرَّب عن هذا الجسد المقدَّس والدَّم الكريم أن **من يأكله بغير** اعتراف **وقانون**، يكون له دينونة وهلاكاً! ...".

وهنا يفسِّر المخطوط أن عدم الاستحقاق لتناول جسد الرَّب ودمه، يعني ليس فقط عدم الاعتراف على الكاهن، بل **وعدم تنفيذ القانون أي العقوبة التي لابد أن توقَّع على الخاطئ طبقاً لنوع خطيئته.** بل حمَّل الرَّب نفسه قولاً لم يقله عندما يقول: "كذلك قال الرَّب عن هذا الجسد المقدَّس والدَّم الكريم أن من يأكله بغير اعتراف وقانون يكون له دينونة وهلاكاً".

١٠- تكوين ٣:٥

ويذكر المخطوط أيضاً بأن القانون أي العقوبة التي توقّع على الخاطئ هي شرط لنوال الغفران، وخلافاً لذلك، فهي تجديف ليست له مغفرة، فيقول (ص ٥٠ من المرجع المذكور):

"وإذا كان تناول الإنسان للجسد المقدَّس والدَّم الكريم بغير قانون ينال به المسامحة، لكان هذا الجسد المقدَّس والدَّم الكريم سبباً لكل خطيئة ومعصية، وذلك إن الإنسان متى أخطأ، وتناول هذا الجسد والدَّم بغير قانون لتُغفر له خطيئته، فمتى تحقّق هذا، فهو يخطئ كل يوم بغير مخافة، متيقناً أنه يصل إلى الغفران بغير تعب. ومن ظنَّ هذا في الرَّب فقد جدَّف عليه التَّجديف الذي ليست له مغفرة، لا في هذا الدَّهر، ولا في الآتي، لأنه ينسب إلى الرَّب تحسين الخطيئة، والرِّضا بالمعصية!!".

ويقول أيضاً الكتاب المذكور (ص ٥١): "لذلك قال الرَّب إن هذه الأسرار المقدَّسة تكون لمن يأخذها بقانون (أي بعقوبة كنسيَّة)، مسامحة وحياة مؤبَّدة، وتكون لمن يأخذها بغير قانون، دينونة وموت أبدي!".

إن مؤلّف المخطوط حين يتكلّم عن أهميَّة الاعتراف على الكاهن، يشرح ضرورة وجود عقوبة للنَّفس والجسد أيضاً، لكي يصبح هذا الاعتراف صحيحاً. فيذكر أنه باعترافنا على الكاهن نتعرَّض للفضيحة التي نرضى بها بإرادتنا، فندين بذلك نفوسنا، ونحكم عليها هنا، لكي ننجو من الدَّينونة الأبديَّة. والفضيحة هنا هي عقاب للنَّفس العاقلة. ولا يجب أن توقّع العقوبة على الجسد البهيمي الذي لا عقل له إلاّ بعد معاقبة النَّفس العاقلة بالفضيحة. فالذي يعاقب جسده بصوم أو بسهر أو بغير ذلك قبل قبوله الفضيحة يزداد خطيئة على خطيئته من أجل أنه ظلم جسده الذي لا عقل له، إذ عاقبه قبل أن يعاقب نفسه العاقلة التي يلزمها العقوبة بسبب عقلها قبل الجسد !! (ص ٣٨).

هذا تعليم غريب عن روح الكنيسة وتعليم آبائها، ولا يوجد قول واحد من أقوال آباء الكنيسة أو كتاباتهم يسند هذا الكلام ويدعمه. فالقانون أو التَّأديب الكنسي الذي يتكلّم عنه الكاتب أو النَّاسخ لهذا المخطوط، والذي جعل منه شرطاً لاستحقاق التَّناول، لا يمكن أن يكون وفاءً للعدل الإلهي لكي تُغفر الخطيئة، فيستحق الخاطئ التَّناول. "فلا وفاء للعدل الإلهي إلاّ بدم المسيح ... إن القصاصات الكنسيَّة لا علاقة بها مطلقاً بوفاء العدل الإلهي"[١١].

إنه مخطوط يتحدَّث عن "الاعتراف والتَّأديب"، وليس عن "التَّوبة والاعتراف". وفي الحقيقة فإن شهوة فعل الخطيئة هي أقوى بكثير من الخجل الذي يصاحب الاعتراف بها، أو بعبارة أصح، اعتياد الاعتراف بها. وأعمال الإماتات الجسديَّة لا يمكنها بأي حال أن تقوى على اقتلاع الخطيئة الرَّابضة في مخادع القلب. فالذي يشفي الخطيئة السَّاكنة في القلب هي حرارة الرُّوح، ومخافة الرَّب، والثِّقة الكاملة في محبَّته ورحمته. فبدون طلب المعونة الإلهيَّة، واستعداد النَّفس لقبولها، لا يقوى الاعتراف بالخطيئة وحده على انتزاعها. فالاعتراف بالخطيئة أمام الكاهن بحضرة الله هو المرحلة الأخيرة للتَّوبة، لكي يعود الخاطئ إلى شركة الجماعة مرَّة أخرى بعد أن فصلته الخطيئة عنها.

إني ألتمسُ كل العذر لناشر الكتاب، أي أبناء البابا كيرلس السَّادس، حين نسبوا المخطوط إلى أنبا ساويرس ابن المقفع، لأن المخطوط رقم (٢٣٥ لاهوت) بمكتبة البطريركيَّة بالقاهرة، والذي يورد نفس النَّص الذي نشره كتاب "ذبيحة الاعتراف" قد نسبه النَّاسخ – خطأ – إلى الأنبا ساويرس بن المقفع، وعنه نقل ناشر الكتاب المذكور.

---

١١ – قداسة البابا شنوده الثَّالث، لماذا نرفض المطهر؟، أكتوبر، ١٩٨٨م، ص ٩٦

وفي الفَصل التَّالي مباشرة، حين نتحدَّث عن سرّ التَّوبة والاعتراف في القرون الوسطى، فسوف أثبتُ للقارئ العزيز أن هذا الكتاب المذكور قد نُقل – بتصرُّف – من مخطوط بعنوان "المعلّم والتّلميذ" للقس مرقس ابن القنبر[١٢] الذي أزعج الكنيسة بتعليمه، وكان معاصراً للبابا الإسكندري مرقس الثّالث (١١٦٦– ١١٨٩م). وكان البطريرك الأنطاكي ميخائيل الكبير (١١٦٦-١١٩٩م) والمؤرِّخ الأنطاكي المشهور، قد أرسل رسالة إلى البابا الإسكندري مرقس الثّالث، يفنِّد فيها ترهات مرقس بن قنبر هذا، الذي شوَّش بتعليمه الزَّائف عقول أبناء الكنيسة القبطيَّة زمناً طويلاً بشأن التَّطرُّف في ممارسة سرّ الاعتراف[١٣].

قصة مؤثّرة من القرن الحادي عشر في مصر

وقبل أن ننتقل إلى الحديث عن سرّ التَّوبة والاعتراف في العصور الوسطى، أُوردُ هنا قصَّة حدثت في مستهل القرن الحادي عشر لشمَّاس مشهور في كنيسة ميت خاقان، كان قد أخطأ خطيئة الزِّنا، وخان زوجته. حيث تسرد القصَّة كيف قدَّم توبة واعترافاً عن خطيئته في زمن البابا زخارياس (٩٩٦-١٠٢٣م) البطريرك الـ ٦٤ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وقد وردت هذه القصَّة في كتاب "تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة" المعروف باسم "سير البيعة المقدَّسة[١٤]".

١٢– عن القس مرقس ابن قنبر، انظر الفصل التَّالي مباشرة.

١٣– الأسقف الأنبا إيسيذوروس، الخريدة النَّفيسة في تاريخ الكنيسة، الجزء الثَّاني، ١٩٦٤م، ص ٣٧٠

١٤– لقد دوَّن أنبا ساويرس ابن المقفع تاريخ البطاركة حتى البابا شنوده الأوَّل (٨٥٩-٨٨٠م) الـ ٥٥ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وواصل أنبا ميخائيل مطران تنيس عمل الأنبا ساويرس في تسجيل تاريخ البطاركة، فدوَّن تاريخ عشرة بطاركة

"كان إنسان شمّاس من أهل منيتي مليج[١٥] معروف مشهور. فتخاصم مع زوجته وكانت طاهرة ديِّنة، فخرج من عندها ... ووقع في ... الخطيئة. ثمّ عاد إلى منزله فصالحته زوجته. فلمّا كان اللّيل ... وتعرى من ثيابه ... رأت زوجته جسمه وقد وضح جميعه بالبرص ... قالت له ما الذي فعلتَ حتى تبرَّصت، انظر إلى جسمك. فتأمَّل جسمه وبكى بحرقة وقال لها: يا أختي لمّا تخاصمت معك اليوم، ولعب بي الشيطان، ففعلت كذا وكذا، ثمّ لطم وجهه، ونتف شعر لحيته، وزاد في البكاء. فقالت له زوجته الخيرة الديِّنة وهي باكية عليه: قد أخطأتَ يا أخي وغلطتَ، فبادر إلى الأب أنبا زخارياس القدِّيس وامسك قدميه والزمهما حتى يسأل الله فيك فتبرأ.

فنهض باكراً وركب دابته ومضى إلى دمروا[١٦]، وطرح نفسه بين

منذ سنة ٨٨٠- ١٠٤٦م، كان آخرهم البابا شنوده الثّاني (١٠٣٢-١٠٤٦م) الـ ٦٥. ثمّ تابع العمل موهوب بن منصور بن مفرج الإسكندراني الشمّاس، ومن بعده ابن القلزمي، ثمّ البابا مرقس الثّالث بن زرعة.

١٥- هي حالياً ميت خاقان.

انظر تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي لأبي المكارم، الجزء الأوّل، الوجه البحري والقاهرة، إعداد وتعليق الرّاهب صموئيل السّرياني، ص ٧٣

١٦- كانت دمروا مركزاً دينياً هاماً في الدِّلتا، به ما لا يقل عن سبع عشرة كنيسة. ويطلق عليها أنبا ساويرس بن المقفع اسم القسطنطينيَّة الثّانية. إلاّ أن تخريب الدِّلتا بواسطة اللواتيين كان أحد الأسباب في نقل مقر البطريركيَّة إلى القاهرة.

ومن كتاب تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثّاني عشر لأبي المكارم (ص ٤٨) نعرف أن اسمها هو "دمروه الحماره" مركز المحلة الكبرى، غربيَّة. وكان الآباء البطاركة يسكنون فيها، ومن جملتهم البابا خريستوذولوس الـ ٦٦ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وكان منقوشاً على باب دار مسكنه بدمروا عبارة: "بسم الآب والابن والروح القدس الاله الواحد". وبها بيعة على اسم السيِّدة الطّاهرة اهتم بإقامتها "ابن جريس"، وهو البابا زخارياس الـ ٦٤ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وكمل عمارتها البابا شنوده الثّاني (١٠٣٢-١٠٤٦م) الذي أتى بعده. وتهدَّم من ناحية

يدي البطرك، وأكثر البكاء والتَّضرُّع، وتعلَّق بقدميه، واعترف لـه بمـا جرى عليه. فقال له: يا ولدي هل فيك أن تثبت على التَّعب بين يـدي السيِّد المسيح؟ فقال له: يا أبي أحكم عليَّ بما شئت، فإني فاعله بمعونة الله لي، وبركة صلاتك. فدخل به إلى بيت مظلم عنده ... وجعل وجهه إلى الشَّرق، وقال له: يا ولدي واصل الصَّلاة والتَّضرُّع والبكاء وتـب أن لا تعود إلى خطيئة. وكان بعد ثلاثة أيام وثلاث ليالي يطعمه خبزاً يسـيراً بالميزان، ويسقيه الماء أيضاً بميزان إلى تمام خمسة عشر يوماً. وجاء إليـه، افتقده وصلَّى عليه. وإلى تمام ثلاثة أسابيع افتقده أيضاً وصلَّى عليه. وإلى تمام الشَّهر جاء إليه وكشف جسمه فوجد الوضح قد تناقص عنه، فطيَّب نفسه، ثمَّ بشَّره بذلك إلى تمام أربعين يوماً، أتاه وتأمَّله فوجده قد طهر، ولم يبق في جسمه شيئاً من الوضح، ففرح به وحمَّمه بماء حـار، ودهنـه وصلَّى عليه.

وقال له: يا ولدي قد عوفيت، فاعرف ما ندرته على نفسـك، ولا تعود إلى خطيئة، ولا تظن أنني صوَّمتك ثلاثة أيام، ثمَّ بعدها ثلاثة أيـام وأفطرتُ أنا، بل حيٌّ هو اسم المسيح ما تغذيتُ في هذه الأربعين يوماً إلاَّ بمثل ما غذَّيتك به، ولا كنتُ أفطر إلاَّ في الوقت الذي كنتُ أفطرك فيه بمثل الخبز والماء الذي كنتُ أغذيك به سواء. ثمَّ بـارك عليـه، وأمـره بالانصراف إلى منزله، فعاد إلى زوجته المباركة فرحاً مسروراً"[١٧].

دمروا سبعة عشر بيعة للقبط، إحداها على اسم تكلا القدِّيسة.

١٧- تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة، المعروف بسير البيعة المقدَّسة، لساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مطبوعات جمعيَّة الآثار القبطيَّة، قسم النُّصـوص والوثائق، قام على نشره يسى عبد المسيح، عزيز سوريال عطية، أسولد بورمستر، القـاهرة، ١٩٤٨م، ص ١٤٩، ١٥٠

إطلالة على حياة الكنيسة القبطيَّة في القرن الحادي عشر

ويروي كتاب "تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة" جانباً سلبياً من حياة الكنيسة القبطيَّة في مستهل القرن الحادي عشر الميلادي، ولكنه جانب مهم لا يجب أن نغفله، لأنه يمهِّد لنا إدراك سبب الضَّعف الذي آلت إليه الكنيسة الشَّرقيَّة عموماً وليس القبطيَّة فقط في القرون الوسطى.

يقول الكتاب: "وأيام أنبا زخارياس بعد بطريركيَّته سبع سنين. والبيعة هادئة تحت السَّلامة. ومن بعد ذلك لم يصبر الرَّب على أفعال الرُّعاة الذين كانوا في ذلك الزَّمان، وأنزل الله غضبه على الجميع بسببهم، فأُبعدوا منها، لأنهم كانوا صاروا مثل الولاة المسلَّطين على الكهنة، ويختلقون حججاً لجمع المال بكل وجه، ويتجرون في بيعة الله لمحبَّة الفضة والذَّهب، ويبيعوا موهبة الله بالمال، فيخسرون ولا يربحون. وإذا زادهم إنسان في ديارِيَّة بيعة من البَيع ديناراً واحداً، فسخوا على القيِّم الأوَّل المهتم بأمور البيعة كما يجب، فيطردوه منها، ويسلموها بسبب الدِّينار الزائد لمن لا يصلح لخدمتها، ولا يقوم بأمرها. ولقد شُهد على قيِّم أنه يشرب الخمر الصَّافي، ويخلط المعكَّر بالماء ويصفيه، ويقدِّمه للكهنة ترفعه للهيكل. وأن الكهنة يرفعوا على الهيكل قرباناً يكفي طوال الجمعة حتى يفضل منه شيئاً كثيراً غرضاً في أن لا يتعبوا فيقدِّسوا، ويبقى القربان في الكنائس إلى أن يعفَّن، لأن الأساقفة كانوا يوسموا للكهنوت من لا يصلح ولا يفهم ..."[١٨].

ويذكر الكتاب أيضاً: "... وفي أيامهم أعني الرُّعاة، انقطع التَّعليم أيضاً ولم يردع أحد أحداً، ولا يقول له اخرج القذى من عينيك لئلا يقول له أخرج أنت الخشبة أولاً من عينيك ... وانقلبت الأمور، وصار

١٨- نفس المرجع السَّابق، ص ١١٨

الفهيم العالم غير معدود ولاسيَّما إن كان فقيراً، والجاهل غير الفهيم مكرَّماً عندهم مبجَّلاً، لاسيَّما إن كان موسراً ليقدِّموه للطَّقس العالي من طقوس الكهنة. فمن أجل ذلك نزلت يد الرَّب عليهم، وحلَّ غضبه على البيعة[١٩]، لعلمه بأننا لا نستحق ندخل من بابها كالزَّمان الذي أنزل فيه الرَّب غضبه على أورشليم حتى خربت، وسُبي أهلها وبنيهم وبناتهم"[٢٠].

لقد أردتُ أن أمهِّد أمام القارئ ليطَّلع على جانب من الحال الذي تردَّت إليه كنيسة مصر بدءاً من القرن الحادي عشر ولعدة قرون تالية استغرقت العصور الوسطى تقريباً باستثناء فترات ازدهار قليلة في القرنين الثَّالث عشر والرَّابع عشر للميلاد. ولكن الرَّب لم يترك نفسه بلا شاهد أبداً في أي عصر من العصور، إذ برز في وسط هذه الأجواء رعاة يخشون الله ويحبُّون الكنيسة، ويجتهدون في إنقاذ البقيَّة الباقية، ويسهرون على خلاص الشَّعب، فاضطروا إلى إصدار قوانين وتشريعات تحمي الشَّعب من تسلُّط بعض الكهنة، بعد أن أساء هذا البعض استغلال السُّلطان الممنوح لهم من الله ضد الله نفسه، وضد كنيسته.

وإننا لا نعدم في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة شهادة أراخنة من الشَّعب القبطي شهدوا للمسيح متمسِّكين بإيمانهم وبكنيستهم، حتى نالوا إكليل الشَّهادة، مثل الأرخن أبو نجاح الكبير، وفهد بن إبراهيم، وغيرهما.

١٩- الإشارة هنا إلى المعاناة التي حازتها الكنيسة القبطيَّة في أيام مرتبك العقل الحاكم بأمر الله (٩٩٦-١٠٢١م) ومن أتى بعده في عصر الدَّولة الفاطميَّة.

٢٠- تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة، المجلد الثاني، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١١٩، ١٢٠

الفَصل الخامس

في القرون الوسطى

في الشَّـــرق المســـيحي

تمهيد

في هذا الفصل أُشير بإيجاز في مستهله إلى موضوع التَّوبة والاعتراف في الكنيستين السِّريانيَّة الأنطاكيَّة والبيزنطيَّة في العصور الوسطى، ثمَّ بالشَّرح المسهب في الكنيسة القبطيَّة.

في الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة

ظهر في القرن الثَّاني عشر في كنيسة أنطاكية يعقوب ديونيسيوس بن الصَّليبي أسقف أمد (+ ١١٧١م). وكان عالماً من علماء عصره، وله مؤلَّفات كثيرة، من بينها كتاب في "التَّوبة والاعتراف". وقد وضع هذا الأسقف ثلاثة قدَّاسات. وله أيضاً ثلاث صلوات قسمة تستعملها الكنيسة السِّريانيَّة، تتلو إحداها في قدَّاس خميس العهد، والثَّانية في قدَّاس سبت النُّور، والثَّالثة في أي قدَّاس. وقد تُرجمت هذه الأخيرة إلى اللُّغة القبطيَّة، ومنها إلى اللُّغة العربيَّة. وتستعملها الكنيسة القبطيَّة في قدَّاساتها حتى اليوم، وهي القسمة التي بدايتها: "هكذا تألَّم كلمة الله بالجسد، وذُبح وانحنى بالصَّليب ...".

وكان المجمع المنعقد في دير الزَّعفران سنة ١١٥٦م قد قال في قانونه الرَّابع ما يلي: "إذا كشف الكاهن سواء كان بطريركاً أم أسقفاً أم قسيساً سرّ المعترف، سواء بحياته أو بعد موته بأي شكل كان، فليكن ملعوناً ومحروماً من الثَّالوث الأقدس، ومجرَّداً عن درجة الكهنوت، وغريباً عن المسيحيَّة ومرذولاً عن الكنيسة". ومنع بقانونه الخامس الكاهن من

أن يأخذ من المعترف هديَّة ولو كانت زهيدة[١].

ولقد ترك البطريرك الأنطاكي الشَّهير ميخائيل الكبير (١١٦٦-١١٩٩م) مؤلَّفات كثيرة ذات اعتبار، ومن بينها كتاب في لزوم التَّوبة والاعتراف.

أما ابن العبري (١٢٢٥-١٢٨٦م) وهو من أشهر ملافنة الكنيسة السِّريانيَّة الأنطاكيَّة[٢] في القرن الثَّالث عشر، فقد كتب ردوداً على اعتراضات نوفتيان الهرطوقي وأتباعه الذين دُعوا باسم "الأنقياء"، وهم الذين ماثلهم بالاعتقاد أيضاً بلاجيوس وأتباعه، الذين زعموا أن الإنسان إذا قبل الرُّوح القُدُس يصير منزَّهاً عن الخطأ تماماً، وأنه لا توبة للذين يخطئون بعد معموديَّتهم.

وفي ردود ابن العبري عليهم تحدَّث عن التَّوبة الحقيقيَّة والتي هي النَّدامة على الخطايا التي ارتُكبت في الماضي، وترك الخطايا التي تُفعل في الحاضر، والوعد الأكيد بعدم إتيان الخطيئة في المستقبل. وأن غفران الخطايا لا يكون محصوراً في المعموديَّة وحدها، ولكن بوسائل أخرى كالدُّموع والآلام والأصوام والصَّلوات وما أشبه، وأفضل هذه الطُّرق جميعاً هو الاستشهاد. ويقول أيضاً: "ولئن قال الرَّب إن التَّجديف على الرُّوح القُدُس لا يُغفر، ولكنه لم يقل حتى بعد التَّوبة أيضاً. أمَّا خطيئة

١- المطران سويرس زكا عيواص، والأب الرَّبان اسحق ساكا، مرجع سابق، ص ١٢٤
وهو نفس ما تقوله الكنيسة الكاثوليكيَّة: تعلن الكنيسة (الكاثوليكيَّة) أن كل كاهن يسمع اعترافات مُلزم بحفظ السِّر المطلق في شأن الخطايا التي يعترف بها التَّائبون، وذلك تحت طائلة العقوبات الشَّديدة. ولا يجوز له أيضاً أن يستخدم ما يستقيه من الاعتراف من معلومات تتعلَّق بحياة التَّائبين.
انظر: التَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة، مرجع سابق، ص ٤٤١

٢- اسمه بالكامل هو أبو الفرج غريغوريوس ابن العبري، كان أبوه طبيباً يهودياً ثمَّ تنصَّر، ولذلك دُعي بابن العبري. درس اللغة العبريَّة والعلوم الدينيَّة والعقلية والطب، وصنَّف كتباً كثيرة في اللغة والأدب والتاريخ والفلسفة والعقائد.

الموت التي تكلّم عنها يوحنا الرَّسول[٣]، فهي الخطيئة التي يموت فيها الإنسان بدون أن يتوب عنها"[٤].

وظلّ تقسيم الخطايا إلى كبيرة وصغيرة قائماً حتى هذه القرون الوسطى في الكنيسة الأنطاكيَّة. فيقول ابن العبري (١٢٢٥-١٢٨٦م) عن ذلك في كتابيه "منارة الأقداس"، و"الأشعة" ما خلاصته أن الخطايا نوعان، كبيرة وصغيرة بدليل قول الرَّب: «قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن، وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (متى ٥:٢٧، ١٨). بهذا أوضح الرَّب بأن خطايا القتل والزِّنا والحمق هي أكبر من خطايا الغضب باطلاً والقول للأخ رقا، لأن الخطايا الكبيرة هي التي تخرج من القلب وتدنِّس الإنسان، فلا يرث مرتكبها ملكوت الله، وهذه الخطايا هي التَّجديف، القتل، الزِّنا، الفجور، عبادة الأصنام، الخطف، السَّرقة، الظُّلم، السُّكر، الكذب، وشهادة الزُّور. وقد أشار إليها الرَّسول بولس في (١كورنثوس ٦:٩، ١٠) أمَّا الخطايا الصَّغيرة فهي التي أشار إليها أيضاً الرَّسول بولس في رسالته إلى أهل كورنثوس بقوله: «لأني أخاف إذا جئت أن لا أجدكم كما أريد، وأوجد منكم كما لا تريدون. أن توجد خصومات ومحاسدات وسخطات وتحزبات ومذمَّات ونميمات وتكبُّرات وتشويشات» (٢كورنثوس ١٢:٢٠) فهذه وما يشبهها خطايا صغيرة. وأن غفران جميع الخطايا سواء كانت كبيرة أم صغيرة خاص بمفعول التَّوبة، إذ بدونها لا يستطيع أحد أن يحصل على غفران الخطايا. فقد قيل في (لوقا ١٣:٣) «إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون».

وكذلك يصنِّف ابن العبري الخطايا بالنِّسبة إلى من تُقترف بحقه إلى

٣- ١يوحنا ٥:١٦

٤- المطران سويرس زكا عيواص، والأب الرَّبان اسحق ساكا، مرجع سابق، ص ١١٠-١١٣

ثلاثة أصناف؛ فالكبيرة هي التي توجَّه ضد الله تعالى، والوسطى هي التي توجَّه ضد القريب، والصُّغرى هي التي يقترفها الإنسان ضد نفسه[٥].

في الكنيسة البيزنطيَّة

وفي الكنيسة البيزنطيَّة أو اليونانيَّة يشهد ثيؤدور بلسامون[٦] (١١٤٠-١١٩٥م) في أحد مؤلَّفاته على أن ممارسة الاعتراف على الكاهن أصبح شائعاً في زمانه. وأن الأسقف يُعتبر هو المسئول عن خدمة الاعتراف.

في الكنيسة القبطيَّة

أمَّا في كنيسة مصر في العصور الوُسطى فقد توقَّف فيها الحديث عن تقسيم الخطايا إلى كبيرة وصغيرة. ولكن من جهة أخرى عبرت ممارسة سرّ التَّوبة والاعتراف على مرحلة عجيبة توقَّفت فيها تقريباً ممارسة الاعتراف على الكهنة في الكنيسة، سواء بسبب صعوبة الاتصال بالكهنة في الأجيال التي تلت تأسيس الدَّولة الفاطميَّة[٧] (٩٦٩-١١٧١م)[٨]، أو بسبب التَّعليم الذي ساد في الكنيسة القبطيَّة آنئذ، والذي تبنَّاه الأنبا ميخائيل مطران دمياط[٩]، وهو بخصوص الاكتفاء بالاعتراف على

٥- نفس المرجع، ص ١١٤، ١١٥

٦- ثيؤدور بلسامون، هو أحد علماء القانون الكنسي، وكان قد صار بطريركاً ملكانياً لكنيسة أنطاكية، ولكنه لم يمارس وظيفته الكهنوتيَّة فيها، لأن الصليبيين أقاموا بطريركاً لاتينياً بدلاً منه. فاضطر للعودة إلى القسطنطينيَّة. ومن بين مؤلفاته، واحدة من المجموعات الرَّئيسيَّة في قوانين الكنيسة الشَّرقيَّة.

Cf. ODCC, 2nd edition, p. 124.

٧- الأب هنري دالميس الدومينكي، الطُّقوس الشَّرقيَّة، مرجع سابق، ص ١٢٦

٨- عرضتُ جانباً من ذلك الأمر نقلاً من كتاب "سيَر البيعة المقدَّسة".

٩- أنبا ميخائيل مطران دمياط، هو صاحب مجموعة قوانين كنسيَّة. وقد عُيِّن

الشُّورية أثناء مرور الكاهن بها على الشَّعب في دورتي بخور البولس والإبركسيس في صلوات القدَّاس الإلهي.

أنبا ميخائيل مطران دمياط في القرن الثّاني عشر وموضوع الاعتراف عل الشَّورية

ورد في موسوعة نوموكانون مقاره الرَّاهب، والمحفوظة في مخطوط عربي رقم (٢٥١) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، مختصر من قول أنبا ميخائيل مطران دمياط.

فتحت عنوان: "مختصر من قول أبينا القدِّيس أنبا ميخائيل مطران دمياط وأعمالها فيما انفرد به القبط من جزئيَّات الشَّريعة"، يستهل المطران المذكور هذا المختصر بقوله: "إن أكثر الأمور الجزئيَّة العمليَّة التي بأيدي الفرق النُّصرانيَّة إنما أخذوها على حكم التَّوارث، ولا يوجد لها ذكر في الكُتُب الإلهيَّة المقبولة بالاتفاق، وما بأيدي القبط هو ما ورثوه عن إيمانهم عن أب الآباء مرقس الإنجيلي، وما كان بأيديهم قبل إيمانهم و لم ينكره عليهم الرَّسول المذكور ..."[1].

ويشير هذا المختصر إلى ما انفرد به الأقباط دون غيرهم، وهو: رشم الصَّليب بإصبع واحدة. والتَّحفي في البيع في الصَّلاة والقدَّاس. وزواج الأقرباء مثل بنات العم والعمَّة والخال والخالة. ومنها حلق الشَّعر، والختان، وملازمة تناول القربان، وعدم حفظ القُربان بعد القدَّاس أو نقله

معاوناً للبابا ميخائيل الخامس الشَّهير باسم بن الدِّنشتيري (١١٤٥- ١١٤٦م)، وهو البطريرك الـ ٧١ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وعاش إلى عهد البابا الإسكندري مرقس الثَّالث (١١٦٦- ١١٨٩م) الـ ٧٣ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. إلاَّ أن تفاصيل حياته غير معروفة.

من الكنيسة. ومنها استخدام الصندروس في البُخور. ومنها تغطية القربان بالفول والتِّرمس تمييزاً للقبط عن الصَّابئة الذين كانوا يعبدون الشَّمس، الذين لم يكونوا يأكلون التِّرمس والفول ... الخ.

وما يهمنا في هذا المختصر هو ذكره لعدم لزوم الاعتراف على الكاهن، بل يكفي أن يكون الاعتراف على الله وحده، وأن الاعتراف يكون على الشُّورية أثناء القدَّاس الإلهي.

فيقول أنبا ميخائيل مطران دمياط في ذلك:

"... ومنها ترك الاعتراف على معلِّم. أمَّا نحن فنقول إن مرقس الرَّسول لما تلمذ من آمن على يديه لم يسن لهم أن يعترفوا بخطاياهم على أحد من العالم لا كاهن ولا غير كاهن، رجوعاً إلى قول سيِّدنا في الإنجيل: لا تتَّخذوا لكم معلِّماً على الأرض، معلِّمكم واحد هو المسيح في السَّماء. وقوله: لا توجبوا الحُكم على أحد لئلا يُحكم عليكم. وقوله للزَّانية: أين الذين قرفوك؟ قالت: يارب لم يبق منهم أحد. قال: ولا أنا أدينك اذهبي ولا تعودي إلى الخطيئة، أي توبي لله. وقوله للمخلَّع: قد برأت لا تعود تخطئ. وقوله: إن ملائكة السَّماء تفرح بخاطئ واحد يتوب. وقال كثيراً: توبوا. ولم يقل في موضع اعترفوا لمعلِّم، لكنه قال: اعترف لك يارب السَّماء والأرض. فلنعترف نحن أيضاً لرب السَّماء والأرض لا لغيره، لأنه علَّمنا العبادة بالقول والفعل.

فكما أن الخاطئ في العتيقة يذكر خطيئته في أُذُن ذبيحته سراً، والكاهن يقدِّمها ويستغفر له، هكذا جُعل للخاطئ في الحديثة أن يعترف بخطيئته على مجمرة البُخور عندما يبخِّر الكاهن، والكاهن هو الذي يرفع

البُخور لله، ويستغفر منه[١٠].

وداود النّبي يقول: اعترف لك بذنبي، وهو يغفر آثام قلبي. وقال: جيِّد هو الاعتراف للرَّب. وقول بطرس: إن نحن اعترفنا بخطايانا تزكّينا، أي إن اعترفنا لله. وأما الموعوظون المذكورون في القدّاس فهم الذين لم يكونوا بعد اعتمدوا، فكانوا يوعظون مدّة قبل أن يعتمدوا. وأما المعترفون المذكورون بعد ذكر الشُّهداء في القدّاس، فهم الذين احتملوا الآلام بسبب اعترافهم بالمسيح، ولم يُقتلوا كالشُّهداء، وسموا بالمعترفين لقول الرَّب في الإنجيل من اعترف بي قدام النّاس، اعترف به قدام ملائكة السَّماء.

وبالجملة فالذُّنوب منها ما يتعلّق بالله والنّاس كالشُّرور والقتل، ولما في هذه من مخالفة أمر الله ومن الإضرار بالنّاس، ومنها ما يتعلّق بالله كالتّجديف أمام الله، فقد قال: إنه يغفر لمن غفر لمن أخطأ إليه. وقال: اغفروا يُغفر لكم. وإذا استغفر الواحد من الآخر غفر الله له. وإذا تاب لله واستغفر منه ذنوبه قدّامه غفر له. وهذا هو المقصود. فلا يحتاج إلى غير ذلك. ويقول الرَّب للذين قدّموا الخاطئة: من لم يخطئ مثلها فليدنها، أشعَرَنا بأن الدَّيان ينبغي أن لا يكون قط قد أخطأ كالمُدان. ولا يوجد إنسان بغير خطيئة، فهذا خُصِّص بالله وحده. ونقرأ هذا في قوله: أخرج أولاً الخشبة من عينيك وحينئذ تنظر أن تخرج القذا من عين أخيك. وقوله: لا تدينوا لئلا تدانوا.

١٠ـ يكتب رونودوت Renaudot عن هذه الأمور في إيجاز قائلاً: "إنه لا يوجد أضعف ولا أسخف من هذه الأدلة والبراهين لهذا اللاهوتي الذي تدعو براهينه للرِّثاء" وإن كان هذا الحكم عنيفاً إلاّ أنها الحقيقة.

Cf. Renaudot, *La perpétuité de la foi de l'Eglise Catholique sur l'Eucharistie*, t. III, col. 848. ; Cf. also, (OCP), vol. II, 1936, p. 103.

وجدير بالذّكر أن هذه الفقرة الأخيرة محذوفة في المخطوطتين اللّتين تحويان مجموعة قوانين أنبا ميخائيل مطران دمياط والموجودتان في المكتبة البطريركيَّة للأقباط بالقاهرة.

وأما قول يعقوب في الكاثوليكون: اعترفوا بخطاياكم الواحد للآخر. إذا أخطأت لواحد قل له: قد أخطأتُ إليك، واستغفر منه. وأما ما كُتب في الإبركسيس من أن كثيراً من الذين آمنوا، كانوا يعترفون بذنوبهم ويقرُّون بجهلهم وخطاياهم، وما كانوا يصنعون. وكثيرون منهم كانوا سحرة جاءوا بكتبهم وأحرقوها. أي لما آمنوا ظهر لهم قُبح ما كانوا عليه، فجعلوا يذكرونه ظاهراً لكل أحد مثل أعمال السَّحرة وأمثالهم، حتى أنهم أحرقوا كتب سحرهم ظاهراً. وقول يهوذا أخي يعقوب: بكّتوا من كان عليه خطيئة وخلّصوه من النَّار المؤبَّدة وخوفهم، أي من ظهرت أفعاله رديئة بكّتوه، وخوِّفوه من العذاب الدَّائم ليتوب ويخلص. فعلى الرَّاعي أن يفتقد رعيَّته ويرد الضَّال ويداوي المريض. وكل ذلك بما يفسِّره لهم من كتب الله المقدَّسة"[١١].

وتوضِّح أيضاً قوانين أنبا ميخائيل مطران دمياط ضرورة ملازمة القربان، حيث تقول: "نحن نرجع في ذلك إلى قول ربِّنا كُلُوا كلُّكم من هذا لمغفرة خطاياكم. وقوله: كل من يأكل جسدي، ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا أثبت فيه. وقوله: كل من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبديَّة. وقول بولس عن سيِّدنا إنه قال: كلما أكلتم من جسدي وشربتم من دمي آمنتم بموتي، واعترفتم بقيامتي، وانتظرتم مجيئي. **ففي هذه الأقوال قد عُرف الإيمان والغفران بالقربان.** ولما أخرج أبو مقار الكبير شيطاناً من المرأة قال: إن تمكَّنه منها كان بسبب بعدها عن تناول القُربان. وهذا هو رسم القبط منذ تلمذهم مرقس الرَّسول"[١٢].

11- Burmester, O.H.E. Khs, *The Sayings of Michael, Metropolitan of Damietta*, Orientalia Christiana Periodica (OCP), Vol. II, N. I-II, Roma, 1936, p. 110-113.

12- *Ibid.*, p. 114.

هذا جانب من تعليم الكنيسة القبطيَّة في العصور الوسطى عن موضوع التّوبة والاعتراف. ويلزم الإشارة هنا إلى أن أقوال الأنبا ميخائيل مطران دمياط في القرن الثّاني عشر الميلادي قد نظرت إليها الكنيسة آنئذ بكل اعتبار وتقدير. ولم يحدث أن عارض واحد من بطاركة الكنيسة في العصور الوسطى هذه الآراء. ولقد عاصر الأنبا ميخائيل مطران دمياط ثلاثة بطاركة هم: البابا خائيل الخامس (١١٤٥- ١١٤٦م)، والبابا يؤانس الخامس (١١٤٦- ١١٦٦م)، والبابا مرقس الثّالث (١١٦٦- ١١٨٩م). بل إننا نرى تأكيداً على أهميَّتها من بطاركة لاحقين. فمن قوانين البابا كيرلس بن لقلق (١٢٣٥- ١٢٤٣م) الـ ٧٥ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة هناك فصل بعنوان: "أن يكون طقس مطران دمياط الحاضر بها الآن مستقراً على جاري العادة لمن تقدَّمه بثغر دمياط المذكور، وعلى ما تضمنته سيَر البطاركة لأمثاله بها".

وبرغم أنه مع حلول القرن الثّالث عشر الميلادي بدأ الحديث من جديد عن أهميَّة الاعتراف على الكاهن كما سنرى فيما بعد، إلاّ أن تعليم الكنيسة القبطيَّة عن موضوع الاعتراف على الشَّورية بدءاً من القرن الثّاني عشر الميلادي ظلّ متداولاً فيها في حدود ضيِّقة إلى ما بعد القرن الثّامن عشر الميلادي، وأمَّا من الوجهة اللّيتورجيَّة فقد ظلّت الكُتُب الطّقسيَّة للقدّاس الإلهي تشير إليه حتى اليَوم، كبقايا ممارسة ليتورجيَّة دخلت الكنيسة في عصورها الوُسطى. وهو ما ستجده مشروحاً في هذا الفصل.

وقد حُفظت قوانين أنبا ميخائيل مطران دمياط في أربعة مخطوطات بالعربيَّة. واحد منها محفوظ في المكتبة الأهليَّة بباريس تحت رقم (٢٥١ عربي). واثنان منها في المكتبة البطريركيَّة بالقاهرة ضمن مخطوطات القوانين تحت رقمي (٥، ٦). ويُظن أن الرابع بمكتبة الفاتيكان. وقد نشر العالم جورج جراف G. Graf هذه القوانين بالألمانية سنة ١٩٢٣م، في المرجع التالي: Collectanea Hierosolymitana

القس أبو ياسر بن القسطال في القرن الثّاني عشر

وفي زمن بطريركيَّة البابا يؤانس الخامس (١١٤٦- ١١٦٦م) نقرأ عن سيرة القس أبو ياسر بن أبي سعد بن القسطال[١٣] (+ ١٢٠٤م). وقد وردت سيرته في كتاب "سيَر البيعة". وكان لابن القسطال صديق عالم يهودي اسمه أبو الفخر بن أزهر الصَّانع. وكان دائم التَّباحث مع ابن القسطال حتى تنصَّر راغباً في المذهب المسيحي. وتعمَّد بيد أنبا يوحنا أسقف طمويه من الجيزة، وساعده في التَّعميد القس أبو ياسر بن القسطال، وذلك في بيعة السيِّدة العذراء بالمعادي في ضواحي القاهرة، وكانت تُسمى آنئذ "كنيسة المرتوتي"[١٤] وهي الكنيسة التي كان يخدم فيها القس المذكور. وقد رُسم أبو الفخر بن أزهر شماساً في كنيسة العذراء مريم بحارة زويلة بمصر القديمة، وبقي بها إلى يوم نياحته.

ويقول أبو المكارم (ص ٨٢) عن بيعة العذراء بالمعادي في ذلك الوقت: إنها من أماكن العبادات الفرحة، وهذه البيعة مقصودة جداً، لأن لها شفاعات مقبولة وآيات ظاهرة لأصحاب الإيمان. وهو ما يعطينا إطلالة واضحة عن شخصيَّة القس أبو ياسر بن القسطال في ذلك الوقت.

وكان لهذه البيعة بستان جميل يطل على النِّيل، كان يتردَّد عليه

١٣- عن القس أبي ياسر بن القسطال، ارجع إلى:
- الأب جورج شحاته قنواتي، المسيحيَّة والحضارة العربيَّة، المؤسَّسة العربيَّة للدِّراسات والنَّشر، بيروت، الطَّبعة الأولى، ص ٢٠٨، الطَّبعة الثَّانية، ص ٢٦٦
- أبو المكارم، تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثَّاني عشر الميلادي، الجزء الثَّاني، مرجع سابق، ص ٧٩، ٨١-٨٣، ٨٥-٨٦
- رمزي تادرس، دائرة المعارف القبطيَّة، الجزء الأوَّل، مطبعة صادق بالمنيا، بدون تاريخ، ص ٧١

١٤- يقول أبو المكارم، في كتابه "تاريخ الكنائس والأديرة" (ص ٧٩): إن كلمة "مرتوتي" هي لفظة روميَّة وهي "متيرتا"، وتعني "أم الله الكلمة"

الخليفة الحافظ الفاطمي (١١٢٩-١١٤٩م)، والخليفة الظّافر (١١٤٩-١١٥٤م)، ومن بعدهما الخليفة العاضد (١١٦٠-١١٧١م)، وهو آخر الخلفاء الفاطميين. وكل منهم يراعي هذه البيعة، ويقبل ما يُحمل إليه من طعام الدَّير[١٥].

وفي زمن البابا مرقس الثّالث (١١٦٦- ١١٨٩م)، وأيام بدر الجمالي أمير الجيوش، ووزير الخليفة المستنصر (١٠٣٦-١٠٩٤م)، اغتصب الأرمن كنيسة مار جرجس بطرا، وهدموها وبنوا عوضاً عنها كنيسة متّسعة كرزوها على اسم مار جرجس. ولما انتهى حال الأرمن في مصر إلى ما انتهى إليه، عادت الكنيسة إلى الأقباط، فانتقل إليها القس أبو ياسر، وجدَّد عمارتها، وزوَّدها بما احتاجت إليه، وعاد الشَّعب يمضون إليها في كل وقت. وحضر البابا مرقس الثّالث وكرَّزها بحضور جماعة من الأساقفة والكهنة والشَّعب المسيحي[١٦].

كما تولى القس أبو ياسر عمارة دير باسم القدِّيس مار جرجس بطُرا، وكُرِّز هذا الدَّير بيد البابا يؤانس السَّادس (١١٨٩- ١٢١٦م). وفي أعلى الدَّير جدَّد القس أبو ياسر بيعة للشَّهيد أبو مينا، وأخرى على اسم القدِّيس يوحنا المعمدان.

ولقد حاول القس أبو ياسر إبطال بعض العادات الشَّائعة بين الأقباط، ليرقى بحالهم، منها: وجوب تقابل الخطيب مع خطيبته ومشاهدتها قبل الخطوبة، ورضا الطَّرفين بالخطوبة[١٧]. وأن عدم ختانة

١٥- سيرد ذكر هذا الدَّير بعد قليل في نفس سيرة القس أبو ياسر بن القسطال.

١٦- أبو المكارم، تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي، الجزء الثّاني، مرجع سابق، ص ٨٦

١٧- الخطوبة أو الخطبة في ذلك الوقت هي ما كنَّا نعرفه حتى عهد قريب جداً باسم "نصف الإكليل"، أو "عقد الأملاك"، والذي بعده لم يكن يحق لأي طرف

الطّفل لا تمنعه من المعموديَّة، موضحاً أن الختان ليس من الواجبات الدِّينيَّة المفروضة، بل هي عادة صحيَّة اجتماعيَّة. ومنع عادة حلق شعر الرأس، لأنها — على حد قوله — عادة تسرَّبت إلى الأقباط من العرب، وتشدَّد في ذلك إلى حد أنه كان لا يتناول من القرابين المقدَّسة إن كان الذي قدَّس القدَّاس قسٌ محلوق الشَّعر مغطّي الرأس، إذ كان القس أبو ياسر يكشف رأسه وقت صلاة القدَّاس بحسب التَّقليد القديم ... الخ.

فقابل بعض الأقباط هذه الإصلاحات بكثير من الارتياح، إلاّ أن البعض الآخر تصدّوا له، واعتبروا مبادئه بدعة دخلت الكنيسة. وعن ذلك الأمر يقول أبو المكارم: "... وأقسم البيعة قسمين، وأُنكر ذلك عليه عدَّة دفوع، ولم يرجع، ولم ينتهي عن رأيه، فاقتضى الحال لحفظ القوانين إبعاده عنها، والله يصلحه لنفسه"[١٨]. وقضى بقيَّة حياته في العزلة إلى يوم وفاته[١٩].

وقد ترك القس أبو ياسر مقالة صغيرة في الدِّفاع عن المسيحيَّة، وإثبات عقيدة المسيحيَّة في التجسُّد والصَّلب وسر التَّثليث، وذلك رداً على بعض الاعتراضات من قِبَل الفقهاء المسلمين. ولا يوجد منها إلاّ مخطوط واحد محفوظ في المكتبة الأهليَّة بباريس[٢٠].

وما يهمني هنا بعد أن عرضتُ لجانب من سيرة القس أبو ياسر بن القسطال، أنه لم يعترض على العادة التي شاعت في زمانه وهي عدم

الانفصال عن الآخر. أمَّا الخطوبة التي شاعت بيننا اليَوم، فلم تُعرف في الكنيسة القبطيَّة إلاّ في عهد البابا كيرلس الخامس (١٨٧٤ - ١٩٢٧م).

١٨- أبو المكارم، تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثّاني عشر الميلادي، الجزء الثّاني، مرجع سابق، ص ٨٢

١٩- رمزي تادرس، مرجع سابق، ص ٧١

٢٠- الأب جورج قنواتي، مرجع سابق، ص ٢٠٨

الطِّفل لا تمنعه من المعموديَّة، موضحاً أن الختان ليس من الواجبات الدِّينيَّة المفروضة، بل هي عادة صحيَّة اجتماعيَّة. ومنع عادة حلق شعر الرأس، لأنها – على حد قوله – عادة تسرَّبت إلى الأقباط من العرب، وتشدَّد في ذلك إلى حد أنه كان لا يتناول من القرابين المقدَّسة إن كان الذي قدَّس القدَّاس قسٌ محلوق الشَّعر مغطِّي الرأس، إذ كان القس أبو ياسر يكشف رأسه وقت صلاة القدَّاس بحسب التَّقليد القديم ... الخ.

فقابل بعض الأقباط هذه الإصلاحات بكثير من الارتياح، إلاَّ أن البعض الآخر تصدّوا له، واعتبروا مبادئه بدعة دخلت الكنيسة. وعن ذلك الأمر يقول أبو المكارم: "... وأقسم البيعة قسمين، وأُنكر ذلك عليه عدَّة دفوع، ولم يرجع، ولم ينتهي عن رأيه، فاقتضى الحال لحفظ القوانين إبعاده عنها، والله يصلحه لنفسه"[١٨]. وقضى بقيَّة حياته في العزلة إلى يوم وفاته[١٩].

وقد ترك القس أبو ياسر مقالة صغيرة في الدِّفاع عن المسيحيَّة، وإثبات عقيدة المسيحيَّة في التجسُّد والصَّلب وسر التَّثليث، وذلك رداً على بعض الاعتراضات من قِبَل الفقهاء المسلمين. ولا يوجد منها إلاَّ مخطوط واحد محفوظ في المكتبة الأهليَّة بباريس[٢٠].

وما يهمني هنا بعد أن عرضتُ لجانب من سيرة القس أبو ياسر بن القسطال، أنه لم يعترض على العادة التي شاعت في زمانه وهي عدم

الانفصال عن الآخر. أمَّا الخطوبة التي شاعت بيننا اليَوم، فلم تُعرف في الكنيسة القبطيَّة إلاَّ في عهد البابا كيرلس الخامس (١٨٧٤– ١٩٢٧م).

١٨– أبو المكارم، تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثَّاني عشر الميلادي، الجزء الثَّاني، مرجع سابق، ص ٨٢

١٩– رمزي تادرس، مرجع سابق، ص ٧١

٢٠– الأب جورج قنواتي، مرجع سابق، ص ٢٠٨

الاعتراف على الكهنة في الكنيسة، والاكتفاء بالاعتراف على الشُّورية أثناء مرور الكاهن بها على الشَّعب في دورتي بخور البولس والإبركسيس في القدَّاس الإلهي، إذ لم يتحدَّث عن وجوب إصلاح هذا الأمر، في حين تحدَّث عن ضرورة إصلاح أمور أخرى أقل أهميَّة. وأن إبعاده عن الكنيسة كان بسبب هذه الأمور الأخرى، والتي لم يكن سرّ الاعتراف بوضعه آنئذ واحداً منها. وهنا يظهر لنا جلياً أن ما ذكره أنبا ميخائيل مطران دمياط عن سرّ الاعتراف في زمانه – أي اعتراف الشَّعب على الشُّورية – لم يكن أمراً مستغرباً في الكنيسة في ذلك الوقت، ولم يعترض عليه أحد حتى وقت ابن القسطال الذي تنيَّح في ١٢٠٤/٧/٣١م على الأقل.

القس مرقس الضَّرير بن القنبر في القرن الثَّاني عشر

وظهر في الكنيسة القبطيَّة في أواخر القرن الثَّاني عشر كاهن آخر اسمه مرقس الضَّرير بن موهوب المعروف بابن قنبر[٢١]. وكان معاصراً للبابا الإسكندري مرقس الثَّالث (١١٥٧-١١٨٠م) البطريرك الـ ٧٣ من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. وكان أنبا ميخائيل مطران دمياط قد رسمه قساً، ويسميه الأنبا ميخائيل في إحدى رسائله: "أبو الفخر بن الشَّيخ بن البركات موهوب القنبر". أمَّا اسمه كما يذكره أبو صالح الأرمني فهو: "مرقس فخير بن القنبر"[٢٢]. وكان مشهوداً له بسعة العقل وسعة العلم، متبحِّراً في اللُّغات القبطيَّة واليونانيَّة والعربيَّة، وقيل السِّريانيَّة أيضاً. وقد نقل عن هذه اللُّغات كثيراً من المصنَّفات. كما صنَّف عدَّة كُتُب ورسائل، بعضها يختص بمبادئ الإصلاح التي كان ينادي بها قبله القس أبو ياسر بن القسطال، والبعض الآخر يختص بآرائه في إصلاحات طقسيَّة ونظاميَّة حاول أن يدخلها في الكنيسة، فتصدَّى له أنصار القديم والتَّقليد.

٢١- أبو المكارم، الجزء الثَّاني، مرجع سابق، ص ٢٠٨

٢٢- الأب جورج شحاته قنواتي، مرجع سابق، ٢٠٥

ونشأت مجادلات حامية بينهم. ولأنه لم يصلنا تفاصيل هذه المجادلات إلاّ من خلال مقاوميه، لهذا فليس من السَّهل الوقوف على حقيقة شخصيَّته[٢٣].

أمَّا مؤلَّفاته التي وصلت إلينا، فهي:

- كتاب في التَّقويم السَّنوي وحساب الفصح، كتبه سنة ١١٩٣م.
- **كتاب المعلِّم والتِّلميذ.**
- كتاب المجموع فيما آل إليه الرُّجوع.
- كتاب تفسير التَّوراة[٢٤].

ويقول أبو المكارم في كتابه: "تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثَّاني عشر" عن القس مرقس ابن قنبر — مقتبساً أقواله من كتابه "المعلِّم والتِّلميذ" الذي ألَّفه: "ثمَّ أوهم الشَّعب أن من لا يعترف لمعلم بخطاياه، ويعمل القانون عن خطاياه، لا يجوز له أن يتناول القربان. وإن مات بغير اعترافه للكاهن مات بخطيئته، وراح الجحيم[٢٥]، فعاد الشَّعب يعترفون له، وتركوا الاعتراف على المجمرة، ومالوا جميعهم إليه، وسمعوا قوله ... ويقول لمن يعترف له: أنا أحمل عنك بعض خطيئتك، والبعض يُغفر لك من الله بعملك القانون!. ومن يأخذ عن خطاياه قانوناً في الدُّنيا، لم يجب الله عليه قانوناً ثانياً في الآخرة!. وصاروا أصحابه المعترفين عليه يسمونه 'أبونا المعلِّم'. وإذا وقف في الكنائس اجتمع إليه جماعة

٢٣- نفس المرجع، ص ٢٠٥

٢٤- نفس المرجع، ص ٢٠٥

٢٥- انظر في ذلك كتاب "ذبيحة الاعتراف" لناشره أبناء البابا كيرلس السَّادس، تحت عنوان: "احذر أن تتناول دون اعتراف" (ص ٤٧-٥٨). وهو الكتاب الذي أشرتُ إليه في الفصل السَّابق، والذي ينسبه النَّاشر — خطأ — إلى الأنبا ساويرس ابن المقفع أسقف الأشمونين في القرن العاشر الميلادي.

كبيرة وأثار أسباباً كثيرة لم تكن في البيعة ...“[٢٦].

ويستطرد أبو المكارم في حديثه عن مرقس ابن قنبر، فيذكر أن خبره قد وصل إلى أساقفة الوجه البحري، فأطلعوا البابا مرقس الثّالث (١١٥٧-١١٨٠م) بشأنه، فكتب له يحذّره وينهيه، ويعظه بمواعظ تعزية، فلم يسمع منه. فطلب إليه البابا أن يأتي لمقابلته، فذهب إليه في قلايته بكنيسة المعلّقة بمصر القديمة. وعقد له مجمعاً من الأساقفة والقسوس والأراخنة. وفي ختامه أرسله إلى دير أنبا أنطونيوس سنة ١١٧٤م في شهر أمشير. ولكن والدته وإخوته وخاله وبعض الأراخنة ظلّوا يتوسّلون إلى البابا في شأنه، فأجاب سؤالهم، وأعاده إلى خدمته بعد أن كتب لرئيس الدّير أن يستحلفه عند جسد أنبا أنطونيوس وعلى إنجيل يوحنا أن لا يعود يفعل شيئاً مما كان يفعله.

لكنه ما أن وصل إلى بلاده حتى عاد إلى ما كان عليه. واجتمع إليه جمع كثير جداً ما يناهز خمسة آلاف رجل، وكانوا يغدقون عليه من أموالهم وممتلكاتهم الشّئ الكثير. فكتب إليه الأب البطريرك يرهبه ويتوعّده إن لم يرجع عن غيّه، فلم يلتفت إليه، بل زاد في طغيانه. فأرسل البابا إلى الأساقفة يخبرهم بقضيّته من بدايتها إلى نهايتها، موضّحاً القوانين التي بموجبها يجب قطعه بالحروم المؤكّدة إن استمر على طغيانه. فالتجأ مرقس بن قنبر إلى قاضي القضاة[٢٧] ليتوسّط عنه لدى البابا البطريرك.

وظلّ مرقس ابن القنبر مستقراً في ناحية إقامته[٢٨]، مستمراً على ما

٢٦- أبو المكارم، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص ١٤، ١٥

٢٧- هو أبو على عبد الرّحيم اللّخمي العسقلاني، المعروف بالقاضي الفاضل. وكان وزيراً لصلاح الدّين الأيوبي (١١٧١-١٢٠٠م).

٢٨- ورد في الهامش أن محل إقامته هو سيرباي مركز طنطا غربيّة.

كان عليه. ثمّ حضر إلى القلايَّة البطريركيَّة بكنيسة المعلّقة، ومَثَل بين يدي البابا واعترف بذنبه، وسأل العفو عنه، فأُجيب إلى ذلك. وما لبث أن عاد إلى موطنه حتى عاد لما كان عليه. وفجأة انتقل إلى طائفة الملكيِّين، واعترف بالطّبيعتين والمشيئتين، فقبلوه إليهم. فأفرز نفسه من كنيسته.

وهنا يقول أبو المكارم: "... كما قال بعض الآباء: أفرز نفسه من طقس الإخوة كمثل يهوذا الإسخريوطي. لهذا أبعده الله من طقس الأرثوذكسيِّين، كما أبعد الشيطان من طقوس الملائكة العلويِّين، لكبريائه وظنه بذاته أنه الكبير. فلهذا سقط ودخل إلى جملة الهراطقة المخالفين ..."[٢٩]. فحرمه البابا مرقس الثّالث في مجمع كنسي ضمَّ ستين أسقفاً هم أساقفة الوجهين البحري والقبلي في ذلك الوقت.

وذهب ابن القنبر ليسلّم على بطريرك الملكيَّة[٣٠] عندما جاء إلى الإسكندريَّة إلى بابوان[٣١]. وكان عند البطريرك جماعة مطارنة أنهوا للبطريرك ما استحدثه عليهم مما يخرج عن قوانين مذهبهم. وطلب ابن القنبر من البطريرك الملكاني أن يفرد له كنيسة في سنباط[٣٢]، فاعترض مطران تلك النّاحية، وجرت مشادة عنيفة بين المطران والقس مرقس ابن القنبر، وصلت إلى حد التشابك باليدين، فترك ابن قنبر الملكيَّة وعاد إلى البابا أنبا مرقس الثّالث فقال له: "إيش رجع جابك إلى عندي يا محروم بهذا الزي المغير عن صفتنا ...". وإذ عاد ثانية إلى بطريرك الملكيَّة أرسله إلى دير القصير بجنوب القاهرة، حيث مكث فيه عشرين سنة، وتوفي في

٢٩- أبو المكارم، الجزء الثّاني، مرجع سابق، ص ٢٠

٣٠- هو البطريرك صفرونيوس الثاني سنة ١١٦٦م، وخلفه البطريرك إلياس.

٣١- محلها الآن "تل النّجارين"، فارسكور، دمياط، وهو معقل النّصارى الملكيِّين آنئذ.

٣٢- سنباط، مركز زفتى غربيَّة.

فبراير سنة ١٢٠٨م.

الأنبا ميخائيل مطران دمياط يتحدّث عن القس مرقس ابن القنبر

ينقل أبو المكارم في كتابه "تاريخ الكنائس والأديرة"، خطاباً أرسله الأنبا ميخائيل مطران دمياط إلى أبي المكارم نفسه، مؤلّف الكتاب المذكور، يسرد فيه تعاليم ابن قنبر المغايرة لإيمان الكنيسة، أنقلُ جانباً منه هنا لاكتمال الفائدة[٣٣].

"... الحقير المسكين ميخائيل بدمياط يوضّح لمحبّة الأخ ما اتصل بي من أمر فخير ابن القنبر الذي صار قسّيس بغير استحقاق من وجوه عدّة، وتسمى مرقس، وفساد رأيه فيما وضعه من مصنفات من الكُتُب المخالفة للحق، التي استمال بها من النّاس السّاذجين العديمي الفهم، واستمالهم إلى طريق المخالفين وهو أن هذا الطّاغي المخالف كان قد تزوّج امرأة وأقامت عنده مدّة، وأنه أراد أن يترهّب وينعزل منها فلم توافقه على ما أراد، فتحايل وزوّجها لغيره في الخفية. وجاء إلى أنبا يؤانس[٣٤] أسقف دمسيس وأوهمه أنها ترهّبت وسكنت الدّير مع الرّاهبات[٣٥]، فرهّبه وقسمه قسيساً، فلم يخف أمره بعد ذلك.

وبلغ الأب البطريرك أنبا يؤانس خبره وهو الثّاني وسبعين من عدد الآباء البطاركة فحرمه وقطعه وحرم من قسمه قسيساً، لأنه لم يكشف عن صحيح أمره بما يثبت صدقه قبل أن يرهّبه ويقسمه قسيساً، فصار له

٣٣- أبو المكارم، الجزء الثّاني، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٨

٣٤- "يونس" بحسب النّص الحرفي.

٣٥- "الرهبانات" بحسب النّص الحرفي.

شريكاً في إثمه، واستخفافه بالقوانين الرَّسوليَّة[٣٦] ...

ثمَّ لما أظهر نفسه بالعلم وتفسير الكُتُب المقدَّسة، ترجمها من القبطي للعربي، ثمَّ تفسر ذلك تفسير التَّفسير على قدر ما يتصوَّر في عقله. ولَّما أقام في كنيسة دمسيس أخفى الدَّلاَّل الذي يدل على ما يجب قراءته كل يوم من فصول الأناجيل وكتب البيعة المقدَّسة، وجعل هو نفسه الدَّلاَّل. أي ما أمر بإخراجه من فصول الأناجيل والرسائل والكاثوليكون[٣٧] والإبركسيس، يخرج ما يقوم في نفسه مما يفسِّره تفسير التَّفسير، مما يقوي به بدعته، ويدعِّم به سوء اعتقاده إلى أن سرق عقول بعض الشَّعب الأرثوذكسي الذين حملهم خوفهم من الله وطلب خلاص نفوسهم الاغترار بتمويهاته، والدُّخول معه في زمرته. **فأوَّل ما استرقهم به أن يعترفوا له بخطاياهم، ثمَّ أثبت في نفوسهم أنه بغير ذلك لا تكون توبة ولا غفران**[٣٨]. ثمَّ أمرهم أن لا يحلقوا رؤوسهم جميعها، بل وسط رؤوسهم، ويتركوا الختان، لأن الله خلق آدم كاملاً بغير نقص. وقال: كما برا (خلق) صورة آدم وكمَّله حسناً جداً. وهذه السُّنَّة لم يثبت عليها إلاَّ اليهود والحنفاء. وأنه لا يجوز البُخور في البيعة بغير اللُّبان الذي قُدِّم للسيِّد مع الذَّهب والمر. وأن لا يغسل الإنسان فمه بماء عقيب القربان. كل ذلك أولاً فأولاً وهم يسمعون له في واحدة واحدة في مدَّة تنيف عن خمس عشرة سنة. ثمَّ في آخر الأمر أمرهم أن يصلِّبوا بالإصبعين. والقربان بالقربان المخبي الذي يقدِّس عليه يوم الأحد، ويرفعه الكاهن عنده، **ويقرِّب منه للمعترفين الذين يرومون القربان بعد الاعتراف وعمل**

٣٦- "الأبسطلية" بحسب النَّص الحرفي.

٣٧- "القتاليقون" بحسب النَّص الحرفي.

٣٨- وهو المحور الرَّئيسي الذي يدور حوله كتاب "ذبيحة الاعتراف" لناشره أبناء البابا كيرلس السَّادس. والذي سبق الإشارة إليه في الفَصل السَّابق.

القانون[٣٩]، يمزج منه السِّر ويضاف إلى خمر جديد، يصلى عليه بمفرده، ويتقرَّب به. وأبطل ثلاثة أيام صوم نينوى والجمعة الأولى من الصَّوم على رسم طائفة الملكيَّة. وحلّ جمعة نينوى أن يؤكل فيها الزَّفر يومي الأربعاء والجمعة. فتيقّظ له من الأرثوذكسيين من أخذ حذره منه، واغتربه من تابعه من النَّصارى ...".

ويستطرد أنبا ميخائيل في رسالته المطوَّلة شارحاً فيها فساد اعتقاده بسر الثّالوث، معتقداً أن للآب المُلك والرِّياسة على ابنه وروح قدسه، وأنه يأمرهما وينهاهما، وأنهما تابعان له ومؤتمران بأمره، وأن لكل واحد من هؤلاء الثّلاثة عملاً لا يشركه فيه الآخرون ... الخ.

واعتقد أيضاً أن الآباء والأنبياء خالين من موهبة الرُّوح القُدُس ... الخ. واعتقد أنه بعد موت العالم وحشرهم في الفردوس يجري لمن لا يتأدَّب في حال حياته مثل ما جرى لآدم. **واعتقد أن العقاب والثّواب في الآخرة على النَّفس العاقلة النّاطقة دون الجسد. وأن التّأديب في هذه الدُّنيا للجسد حتى لا يعود يوافق النَّفس على ارتكاب الخطايا لنفوره من آلام القانون (أي التّأديب)، فيخلص في اليوم الآخر**[٤٠].

وجميع ما شرحه من سوء اعتقاده موجود في كتبه التي ألّفها. أيضاً كتاب ألّفه ونعته بالعشرة رؤوس. **ومن كُتُبه التي ألّفها أيضاً كتاب ألّفه ونعته بكتاب المعلّم والتّلميذ، يتضمَّن ثمانية أبواب**[٤١]. وكتاب ألّفه

٣٩- نفس الحاشية السَّابقة.

٤٠- نفس الحاشية السَّابقة.

٤١- هذا برهان واضح يثبت أن كتاب "المعلّم والتلميذ" الذي يتضمَّن ثمانية أبواب هو كتاب يختص بالقس مرقس ابن القنبر. وهو ما سأشرحه في المتن فيما يلي.

ونعته بالمجموع فيما آل إليه المرجوع. وكُتُب غير ذلك[٤٢].

هذا جانب فقط مما ذكره أنبا ميخائيل مطران دمياط في القرن الثّاني عشر عن القس مرقس بن القنبر.

كُتُب "المعلّم والتّلميذ" التي عُرفت في الكنيسة القبطيَّة

لم يكن القس مرقس ابن القنبر هو وحده الذي ألّف كتاباً باسم "المعلّم والتلميذ"، بل هناك مؤلّفون آخرون غيره. وهنا لابد لنا أن نتوقّف قليلاً لنحصر بدقّة ما يختص بكُتُب "المعلّم والتلميذ" التي ظهرت في الكنيسة القبطيَّة.

يُعد العالم مارك سوانسن Mark Swanson من أكثر العلماء بحثاً ودراسة لكُتُب "المعلّم والتّلميذ" التي عُرفت في الكنيسة القبطيَّة. ولقد كَتَب في ذلك الموضوع ثلاث مقالات قيِّمة[٤٣]. أمَّا نتيجة دراساته في هذا الموضوع فهي أن هناك ثلاثة كتب مختلفة بهذا العنوان "المعلّم والتّلميذ". وفيما يلي بيانها:

٤٢- أبو المكارم، الجزء الثّاني، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٨

43- Three articles on "*The Master and the Disciple*" of Mark ibn al-Qunbur:

(1) Mark SWANSON, *A Copto-Arabic Catechism of the Late Fatimid Period: "Ten Questions which One of the Disciples Asked of His Master"*, in Kh. SAMIR (éd.), Actes du 5e congrès international d'études arabes chrétiennes (Lund, août 1996), I et II = revue Parole de l'Orient, 24 et 25 (1999 et 2000)

(2) Mark SWANSON, *Three Sinai Manuscripts of Books "of the Master and the Disciple" and their membra disiecta in Birmingham*, in OCP 65 (1999), p. 347-361.

(3) Mark SWANSON, *Two Vatican Manuscripts of [... the Book "of the Master and the Disciple" ...] of Mark ibn al-Qunbur*, In OCP 66 (2000), p. 185-

(١) **الكتاب الأوّل:** وهو الأقدم زمنياً، وبه عشرة أسئلة. وقد أعطاه مارك سوانسن Mark Swanson اختصار MD(10) حيث MD هو اختصار لعبارة Master and Disciple أي "المعلّم والتّلميذ".

وتاريخ تأليف كتاب المعلّم والتّلميذ MD(10) محصور بين سنة ١٠٤٨م وسنة ١١٣٤م. وهو موجود في عدّة مخطوطات أرقامها موجودة في كتاب حراف G. Graf[٤٤] وقد أضاف إليها مارك سوانسن Mark Swanson ثمانية مخطوطات أخرى تحوي هذا الكتاب منها ثلاثة مخطوطات في سيناء ترجع إلى القرن الثّالث عشر. ويقول إن هذا الكتاب يستوحي بعض أفكاره من كتاب الأنبا ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين في القرن العاشر والذي عنوانه: "الدُّر الثّمين في إيضاح الدِّين".

(٢) **الكتاب الثّاني:** وهو كتاب "المعلّم والتّلميذ" الذي وضعه مرقس بن القنبر، وبه ثمانية أسئلة[٤٥]، ولذلك أعطاه مارك سوانسن Mark Swanson اختصار MD(8) .

وكتاب المعلّم والتّلميذ MD(8) محفوظ في مخطوط رقم (١٦ لاهوت = مسلسل ٢٨٧) بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار، ومخطوط رقم (٢٣٥ لاهوت) بمكتبة البطريركيّة بالقاهرة (ورقة ١١٠ظهر – ١٧٠وجه). وقد أضاف مارك سوانسن Mark Swanson إلى ذلك مخطوطين آخرين يحويان هذا الكتاب ولكن بصورة غير كاملة. وإن بعض ما ورد به مستوحى من الكتاب السّابق MD(10) . ولقد نُشر هذا الكتاب – MD(8) – بصورة جزئيّة في الكنيسة القبطيّة بواسطة أبناء البابا كيرلس السّادس، وتحت عنوان: "**ذبيحة الاعتراف**" وقد نُسب خطأً إلى الأنبا ساويرس بن

44- GCAL II, 466-467.

٤٥- سأوردُ فيما بعد بياناً بعناوين هذه المسائل الثّمانية.

المقفع، وذلك في أوائل السَّبعينيَّات من القرن العشرين.

(٣) **الكتاب الثَّالث:** وهو كتاب "الاعتراف" المكوَّن من اثنين وعشرين فصلاً، واختصاره هو MD(22) . وقد وضعه البطريرك كيرلس الثَّالث بن لقلق – قبل رسامته بطريركاً – بمعاونة الأنبا بولس البوشي – صار أسقفاً سنة ١٢٤٠م – وبمراجعة الأسعد أبن الفرج هبة الله ابن العسَّال.

وكتاب المعلِّم والتِّلميذ MD(22) موجود بكامله في مخطوط رقم (١٦ لاهوت = مسلسل ٢٨٧) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار (ورقة ٤-١٨٨) وفي القسم الأوَّل من المخطوط المذكور. ولقد نُشر هذا الكتاب جزئياً بعنوان: "المعلِّم والتِّلميذ" للبابا كيرلس الثَّالث بن لقلق والأنبا بولس البوشي أسقف مصر القديمة، الجزء الأوَّل، تحقيق مراد مرقس بولس، تقديم الأنبا أمونيوس، القاهرة سنة ١٩٨٥م. حيث يحوي الكتاب المنشور الاثني عشر مسألة الأولى فقط.

حول كتاب "المعلِّم والتِّلميذ" للقِّس مرقس ابن القنبر

بادئ ذي بدء ينبغي أن نعرف أن كتاب "المعلِّم والتِّلميذ" للقِّس مرقس ابن القنبر، والذي رفضته الكنيسة القبطيَّة في القرن الثَّاني عشر الميلادي، قد انتشر فيها في القرن العشرين – عن غير قصد – تحت اسم "ذبيحة الاعتراف" دون أن يتنبَّه أحد لذلك[٤٦].

ولعل قائل يقول إن رفض الكنيسة القبطيَّة لهذا الكتاب في القرن الثَّاني عشر الميلادي كان بسبب أنه يعلِّم بوجوب اعتراف الخاطئ على الكاهن اعترافاً شفهياً، وليس على الشَّورية، في حين أن الكنيسة القبطيَّة

٤٦- وهو ما سبق الإشارة إليه في الفَصل الفائت من هذا الكتاب.

في ذلك الوَقت كانت ترى غير ذلك. ولكن الحقيقة هي أن ابن القنبر حين أراد أن يعيد تعليم الكنيسة التّقليدي إلى نصابه، تطرّف تطرُّفاً شديداً حتى حاد عن تعليم الكنيسة وآبائها في هذا الشأن. ولقد أوردتُ جانباً من هذا التّعليم الآبائي في هذا الكتاب الذي بين يديك، حيث ترى قارئي العزيز الفارق الكبير بين التّعليم الآبائي وتعليم ابن القنبر.

لقد تعرَّضت كتابات القس ابن القنبر للإدانة من قِبَل الكنيسة القبطيَّة في القرون الوُسطى، ومن ثمّ فقد كان السَّعي حثيثاً لطمسها من ذاكرة الكنيسة damanatio memoriae ، ومن أجل هذا السَّبب فإن اسمه لم يظهر في المخطوطات. أما أعماله التي انتشرت في كل مصر فكانت تحت غطاء عنوان هو: "لمؤلّف مجهول" أو "من كتابات الآباء"، وكمثال لذلك تفسيره لأسفار موسى الخمسة(٤٧).

ويقول أبو صالح الأرمني في كتابه "الكنائس والأديرة في مصر": إن ابن القنبر قد كتب مقالاً بعنوان: "المعلّم والتِّلميذ"، وقد سمَّاه بهذا الاسم لأنه قسَّمه إلى ثمانية مسائل أو أسئلة يسألها التِّلميذ لمعلمه الرُّوحي. أما الهدف الأساسي منها فهو شرح أهميَّة ممارسة الاعتراف الشَّفهي على الكاهن، وهو الأمر الذي كان معطّلاً في الكنيسة القبطيَّة في هذه الفترة بشهادة أنبا ميخائيل مطران دمياط.

وهكذا يشهد أبو صالح الأرمني أنّ كتاب "المعلّم والتِّلميذ" ذو الثّمانية مسائل هو من تأليف القس مرقس ابن القنبر. وهو ما أثبته مجدَّداً العالم الأمريكي مارك سوانسن Mark Swanson .

47- Ugo Zanetti, *Le livre de Marc Ibn Qanbar sure la confession retrouvé*, dans Orientalia Christiana Periodica (OCP), Vol. 49, 1983, p. 426.

وهذا الكتاب الذي وضعه ابن القنبر كان هو المصدر الذي اعتمد عليه البابا كيرلس الثّالث بن لقلق في كتابه المعروف باسم "كتاب الاعتراف"، أو باسم "كتاب المعلّم والتّلميذ"، والذي وضعه سنة ١٢٤٠م بمشاركة الأنبا بولس البوشي، ومراجعة الأسعد أبو الفرج ابن العسّال، لشرح ممارسة الاعتراف الشّفهي على الكاهن، وحتميّته قبل التّناول من الأسرار المقدّسة[٤٨].

وتحتفظ مكتبة دير القدّيس أنبا مقار بهذين النّصين أو الكتابين، لكل من القس مرقس ابن القنبر، والبابا كيرلس الثّالث ابن لقلق (١٢٣٥-١٢٤٣م)، وكلاهما بعنوان: "المعلّم والتّلميذ"، وذلك في مخطوط رقم (١٦ لاهوت = مسلسل ٢٨٧)، حيث يحوي المخطوط المذكور قسمين.

القسم الأوّل منه هو كتاب "المعلّم والتّلميذ" للبابا كيرلس بن لقلق، في ١٨٣ صفحة (من ص ٤- ص١٨٨)[٤٩]، وهو نسخة بيد الأب الأسقف المكرّم أنبا أثناسيوس أسقف مدينة الفيوم ونواحيها.

ويرد في مقدّمة هذه القسم ما يلي بنصّه (بخطئه): "بسم الاب والابن والروح القدس الاله واحد له المجد دايما امين. نبتدي بعون الله تعالى وحسن توفيقه بنسخ كتاب المعلم والتلميذ وهده هي المقدمه وهدا الكتاب يشمل اثنين وعشرين مقاله سايل ومسول ونسال السيد المسيح المعونة على كماله بسلام من الرب امين".

48- *Ibid.*, p. 427.

٤٩- الصّفحات ١-٣ ، ٤١، ١٨٧ مفقودة
الصّفحات ١٨٣- ١٨٦ مضافة على المخطوط، وبخط ناسخ آخر ont été resyaurés ومنها الصّفحات ١٨٥ ظهر — ١٨٦ بيضاء.
الصّفحة ١٨٨ ظهر ملصوقة بصفحة ٢ وجه من القسم الثّاني من المخطوط.

وفي آخر مقدِّمة هذا القسم الأوَّل نقرأ (بخطئه): "... ونقلها إلى اللغة العربية الاب العظيم انبا كيرلص ابن لقلق المعروف اولا بالقس داوود ورفيقه القس بولس البوشي واسموه كتاب المعلم والتلميد جيدا انهم برهنوا فيه التعليم والتلمذه جيدا ولخصوه اكثر من كتاب الاعتراف الكبير الذي يسمى كتاب الرووس ...".

وقد نُسخ هذا المخطوط للشمَّاس المكرم الدَيِّن المسيحي المعلّم كاراس ابن الشمَّاس المكرم والأرخن المبجل المعلّم بطرس ابن المتنيِّح في الأحضان الإبراهيمية المعلّم غبريال.

وفي صفحة ١٨١ وجه نقرأ ما نصُّه: "كملت الاتني وعشرون مساله بعون الله تعالى في العشر الاول من شهر بابه المبارك ١٣٢٧ قبطيه للشُّهداء[٥٠]".

أمَّا القسم الثّاني من المخطوط وهو كتاب مرقس بن القنبر[٥١]، فإنه

٥٠- أي النِّصف الأوَّل من سنة ١٦١٠ ميلاديَّة.

وجدير بالذِّكر أن مكتبة دير القدِّيس أنبا مقار تحتفظ أيضاً بمخطوطات أخرى لكتاب "المعلّم والتلميذ" للبابا كيرلس ابن لقلق، وهي مخطوط رقم (١٤ لاهوت – مسلسل ٢٨٥)، وتعود نساخته إلى القرن السَّابع عشر. ومخطوط رقم (١٥ لاهوت – مسلسل ٢٨٦) وهو يعود إلى القرن الثّامن عشر. وينقص منه الأحد عشر صفحة الأولى. ومخطوط رقم (١٧ لاهوت – مسلسل ٢٨٨).

أما مخطوط رقم (١٨ لاهوت – مسلسل ٢٨٩) المحفوظ بمكتبة الدَّير ففيه:

- عشر مسائل بين معلّم وتلميذ.
- أربعة أبواب بدون مؤلف بعنوان: "تحقيق الأمانة المستقيمة".
- مسائل باسيليوس وغريغوريوس وهي لشرح الإيمان المسيحي.
- كتاب الطِّب الرُّوحاني للأنبا ميخائيل أسقف أتريب ومليج.

51- Cf. Ugo Zanetti, *op. cit.*, (OCP), Vol. 49, 1983, p. 428.

ويذكر الأب سمير خليل الذي شاهد هذا المخطوط، ويقول عنه: إن قسمه الثّاني هو كتاب المعلّم والتِّلميذ لمرقس ابن القنبر بدون شك.

مع الأسف لا يوجد به ما يشير إلى اسم مؤلّف هذا العمل. ويحوي هذا القسم ٧٠ ورقة (من ص٢ ظهر- ص٧١).

فالورقة الأولى منه مفقودة، أما صفحة ٢ ظهر فملصوقة بصفحة ١٨٨ ظهر من القسم الأوّل من المخطوط. وعلى ذلك فصفحة ٢ وجه مفقودة وموضوع بدلاً منها صفحة بيضاء.

وفيما يلي نص ما يورده مخطوط (١٦ لاهوت) في الثّلاث صفحات الأولى منه[٥٢].

نبتدئ بعون الله تعالى وحسن توفيقه بنسخ مسائل سأل عنها تلميذ من معلمه، وهي ثمان مسائل. بسلام من الرَّب. آمين.

المسألة الأولى يبين فيها تثليث أقانيم الله[٥٣]، وتوحيد جوهره. ويحقق من العقل والكتاب أنه أقانيم ثلاثة[٥٤] حقيقية، ذو جوهر واحد. ويبين فيها تجسد أحد الثالوث، واتحاد[٥٥] لاهوته بناسوته، وظهوره للملائكة والناس دائماً. وتفسير ظهوره لإبراهيم ويعقوب في شبه إنسان قبل تجسده.

المسألة الثانية يبين فيها تفسير قول الله في التوراة: إن كل خاطئ جزاؤه[٥٦] الموت، وسبب نزول جنس آدم (الصديقين[٥٧] والخطأة) إلى

Cf. Ugo Zanetti, *op. cit.*, (OCP), Vol. 49, 1983, p. 429, n. 8.

٥٢- لقد أضفتُ الهمزة والمدَّة والتّاء المربوطة، كما أبدلتُ حرف التّاء بحرف الثّاء أحياناً، وحرف الدّال بحرف الذّال أحياناً أخرى، وذلك تسهيلاً على القارئ.

٥٣- المخطوط: الاله.

٥٤- المخطوط: ثلثه

٥٥- المخطوط: وايتحاد.

٥٦- المخطوط: جزاه.

الجحيم، قبل ظهور المسيح، وتأنس ابن الله[٥٨] وصلبه وموته، حتى خلص الجميع، الصديقين والخطأة.

المسألة الثالثة يظهر فيها كيف السبيل[٥٩] إلى الخلاص من الخطيئة بعد صعود المسيح، وكيف يصير الخبز والخمر لحم ودم المسيح، وكيف يموت المسيح ويهرق دمه كل حين لكي يفدي من يعترف ويتوب. وتفسير قول الرب في إنجيل يوحنا: «لم يرسل الله ابنه ليحاكم العالم»، وقوله أيضاً: «إنّ الآب لا يحاكم أحداً».

المسألة الرابعة يثبت فيها مضرة من يأخذ القربان بغير اعتراف وقانون، ومضرة من يتوانى[٦٠] عن أخذ القربان كلّ حين، ويضرب في ذلك مثلاً، ويثبت ذلك من الإنجيل المقدس.

المسألة الخامسة يثبت فيها تفسير قول الرب: «إن ساجدي الحق يجب أن يسجدوا بالرُّوح والحق».

المسألة السادسة يبين فيها تفسير قول الرب: «إنّ كلّ من يعمل الخطيئة هو عبد الخطيئة». ويبين فيها أنّ كلّ من[٦١] يخطئ يصير عبداً للشيطان، ولا يعتقه شئ غير المسيح، بالمعمودية والاعتراف.

المسألة السابعة يبين فيها شرف الاعتراف لكهنة المسيح على الاعتراف[٦٢] لكهنة التوراة[٦٣]، وشرف ذبيحة المسيح على ذبيحة

٥٧- المخطوط: الصديقون.
٥٨- المخطوط: اله.
٥٩- المخطوط: سبيل.
٦٠- المخطوط: يتوانا.
٦١- المخطوط: كلمن.
٦٢- المخطوط: اعتراف.

التوراة[٦٤]، وأنّ ذبيحة التوراة كانت رمزاً لذبيحة المسيح له المجد.

المسألة الثامنة يبين فيها بيان الفائدة في التلمذة للمعلم، وأنه لا يجب لأحد أن يكون بغير معلم، لا صغير ولا كبير، وأنّ أحداً لا يمكنه الخلاص بغير معلم، وأنّه يجب البحث الشافي عن صدق المعلم قبل التلمذة له، وأنّه لا يجب بعد التلمذة أن يبحث عنه.

والمجد لله دائماً إلى أبد الأبد. آمين. كملت فهرست الثماني[٦٥] مسائل بسلام من الرَّب. آمين.

(إلى هنا نص المخطوط).

وبعد هذا الفهرس الذي يورده المخطوط، يبدأ في إيراد نص كل مسألة من هذه المسائل الثّماني، حيث يبدأ المسألة الأولى بالعنوان التّالي (بنصّه): "نبتدي بمعونة الرب سبحانه بنسخ التمانيه مسايل من قول الاباء القديسين الاطهار".

وبعد بضعة سنين من عثور الأب أوجو زانيتي Ugo Zanetti على كتاب المعلّم والتّلميذ لمرقس ابن القنبر في مكتبة دير القدّيس أنبا مقار ببريَّة شيهيت – وهو مخطوط رقم (لاهوت ١٦) – كان يتصفّح كتالوج جراف G. Graf وهو كتالوج المخطوطات العربيَّة المسيحيَّة المحفوظة في القاهرة، فعثر في الجزء الخامس من مخطوط ٥٣٥ بمكتبة البطريركيَّة بالقاهرة – بحسب ترقيم جراف G. Graf – على نفس كتاب المعلّم والتّلميذ لمرقس ابن القنبر في مخطوط رقم (٢٣٥ لاهوت)[٦٦] بمكتبة

٦٣- المخطوط: التورية.
٦٤- المخطوط: التورية.
٦٥- المخطوط: الثمانية.
٦٦- المخطوط رقم (٢٣٥ لاهوت) بمكتبة البطريركيَّة بالقاهرة، هو نفسه رقم

البطريركيَّة بالقاهرة في ثمانية أجزاء (ص ١١٠ ظهر – ص ١٧٠ وجه)، وهو أسئلة من التِّلميذ إلى معلّمه، ومنسوب – خطأً – إلى ساويرس ابن المقفع. فعدد المسائل في مخطوط البطريركيَّة يوافق تماماً ذلك الموجود في نص مرقس بن القنبر في مخطوط دير القدِّيس أنبا مقار، وكذلك أيضاً طول النَّص[٦٧].

وبفحص المخطوط رقم (٢٣٥ لاهوت) بمكتبة البطريركيَّة بالقاهرة[٦٨]، وبمقارنته بمخطوط رقم (١٦ لاهوت) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار أمكن الوصول إلى النَّص الكامل لكتاب المعلّم والتِّلميذ لمرقس ابن القنبر. وتكمن أهميَّة مخطوط البطريركيَّة ليس فقط في أنه يسد الثَّغرات الموجودة في المخطوط المقاري[٦٩]، ولكن أمكن بواسطته أيضاً تنقيح النَّص. فبمقارنة النَّصَين ببعضهما البعض نجد أن النَّاسخ للمخطوط الأوَّل قد أغفل – عن غير عمد – ذكر بعض السُّطور التي يذكرها ناسخ المخطوط الثَّاني، والعكس صحيح sauts du meme au meme وبذلك أمكن تحقيق النَّص من كلا المخطوطين[٧٠].

---

(٥٣٥) في كتالوج جراف G. Graf ، وهو نفسه رقم (٤٤١) في كتالوج مرقس سميكة باشا.

67- Ugo Zanetti S.J., *Une seconde copied u livre de Marc ibn al-Qanbar sur la confession*, dans OCP 55, 1989, p. 199-200.

٦٨- ترقيم الصَّفحات في هذا المخطوط هو ترقيم حديث من ص ١١٠ إلى ص ١٧٠ بالتَّرقيم العربي الحديث، وهو نفسه من ص ١١٧ إلى صفحة ١٧٦ بالأرقام الأوربيَّة.

٦٩- الجزء المفقود من المخطوط المقاري حوالي ٩ صفحات أي أربع ورقات ونصف، وهو يقابل ص ١٦٦ وجه إلى صفحة ١٧٠ وجه في مخطوط البطريركيَّة، أي حوالي ١٢٧ سطراً.

والجزء النَّاقص من مخطوط البطريركيَّة عبارة عن ورقة كاملة يقابله صفحة ٢٠ ظهر وصفحة ٢١ وجه في المخطوط المقاري.

70- Ugo Zanetti S.J., *op. cit.*, OCP 55, 1989, p. 200.

وقد قمتُ بمقارنة كتاب المعلّم والتّلميذ لمرقس ابن القنبر بحسب مخطوط رقم (١٦ لاهوت) بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار بما أورده كتاب "ذبيحة الاعتراف" الذي نُشر في السّبعينيات من القرن العشرين منسوباً – خطأ – إلى الأنبا ساويرس ابن المقفع. فوجدت أن سطوراً – وأحياناً صفحات بكاملها – من المخطوط محذوفة من نص الكتاب المذكور. والجدول التّالي يورد جانباً من الاختلافات بين نص المخطوط ونص الكتاب، حيث لم تغط هذه المقارنة النّص كلّه بكل دقّة، لأن الغرض منها هو تعريف القارئ بأن كتاب "ذبيحة الاعتراف" هو نفسه كتاب "المعلّم والتّلميذ لمرقس بن القنبر".

كتاب "ذبيحة الاعتراف"	مخطوط رقم (١٦ لاهوت)
لم يورد نص المسألة الأولى.	يورد نص المسألة الأولى بكاملها. انظر الفهرس السّابق ذكره.
(ص ١٤) فلم يزل الرّب ولم تبطل كلمة من كلامه جميعا الذي قال في التّوراة. وقد قال في الإنجيل المقدّس الحق أقول لكم إنه حتى تزول السّماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من النّاموس حتى يكون الكُل. وأنا بمعونة المسيح ابن الله أوضح لك حقيقة ما سألت عنه.	(ص ١٩ وجه، و١٩ ظهر) وكذلك يقول الرب المسيح في الإنجيل المقدس آمين أقول لكم إن حتى تزول السماء والأرض لا تزول خطّة ولا شكله من التوراة حتى تكون هذه الأشياء كلها. فلم يزل الرب ولا أبطل خطه ولا شكله من كلامه جميعه الذي قاله في التوراة بل ذلك ثابت عمّال يراه ويعرفه من له عينان في عقله جيدتا النظر. وأنا بقوة المسيح ابن الله أوضح لك تحقيق ما سألت عنه.
(ص ١٦) التلميذ: من أي وجه كان يحدر إلى الجحيم ...	(٢٠ وجه) قال التلميذ: أنا أرى في هذه القول ظلماً. وأصل ما بنينا عليه حديثنا أن

كتاب "ذبيحة الاعتراف"	مخطوط رقم (١٦ لاهوت)
	الله عادل لا يظلم، فمن أي وجه كان يحدر إلى الجحيم ...
(ص ١٧) تنتهي الفقرة الأولى من الصّفحة بعبارة "التي وجب عليه بسببها عدّة ميتات". وتبدأ الفقرة الثّانية بالقول: "فمن أجل ذلك أحدر الله أنفس جميع النّاس إلى الجحيم بسبب مخالفتهم ...".	هناك ٥٢ سطراً يوردها المخطوط (من سطر ٣ صفحة ٢٠ ظهر إلى سطر ١٠ صفحة ٢٢ وجه) لم ترد في الكتاب.
(ص ١٨) ... استحقوا[٧١] من عدل الله تدبيراً يعتمده لخلاصهم من الجحيم.	(٢٢ ظهر) ... استحقوا[٧٢] من عدل الله تدبيراً يعتمده لخلاصهم بل ولخلاص غيرهم بسببهم، لأنهم كانوا هم والخطاة في جحيم واحد. فلما دبر الله تدبيراً لخلاصهم شملت الرحمة من كان معهم في الجحيم بسببهم.
(ص ١٨) التلميذ: أوضح لي التدبير الذي قلت إن الله دبره لخلاصهم بسبب عبادتهم وطاعتهم له في دنياهم، ولكنها لم تخلصهم من ميتاتهم الواجبة عليهم.	(ص ٢٣ وجه) قال التلميذ: فأوضح لي التدبير الذي قلت إن الله دبره لخلاصهم وخلاص من معهم في الجحيم الواحد بسبب عبادتهم وطاعتهم لربهم في دنياهم التي فعلوها، ولم يمكنها أن تخلصهم من ميتاتهم الواجبة عليهم.
(ص ٢٠) ... وفرضه على ناسوت يخطئ وبموته صار له	(ص ٢٤ وجه) ... وفرضه على ناسوت يخطئ وابنه الوحيد ناسوته لم

٧١- أي "الصديقون" بحسب الكتاب المطبوع. ولكن المخطوط يذكر أنهم الصديقون والخطاة معاً. (انظر المسألة الثّانية في الفهرس الذي سبق ذكره).
٧٢- أي "الصديقون".

كتاب "ذبيحة الاعتراف"	مخطوط رقم (١٦ لاهوت)
حق على أبيه ...	يخطئ. فلمَّا دفع نفسه للموت الذي فرضه أبوه على من يخطئ صار له حق على أبيه ...
(ص ٢١) وفي موته نزل إلى الجحيم وأسرهم بروحه وأصعدهم منه.	(ص ٢٤ ظهر) وفي ساعة موته نزل إليهم إلى الجحيم كما كانوا هم يتزلون إليه في ساعة موتهم. نزل إليهم وناشدهم بروحه وأصعدهم جميعهم من الجحيم، الصالحين والخطاة، لأنه لما نزل إلى دار الحبس بسبب الصالحين كان الصالحون والخطاة لا يساووا يسيراً من دمه الذي أهرقه، فأصعد الجميع كرامة لدمه وإثباتاً لرحمته وعدله.
(ص ٢٢) التلميذ: قد أوضحت لي بعض الأمور المتعلقة بمسألتنا التي نستفهم عنها وأحب أن توضِّح لي الآن كيف السبيل إلى خلاص من يخطئ بعد موت المسيح ما دام الذين يخطئون **بعد**[٧٣] موت المسيح وقيامته عدَّة خطايا — من ذلك الحين إلى زوال السَّماء والأرض — يستحقون عنها عدَّة ميتات	(ص ٢٤ ظهر، وص ٢٥) قال التلميذ: قد فهمت تدبير الرحمة والرأفة والعدل الذي قد دبر حتى خلص الجميع خطاة وصالحين، وفدا الجميع بموته من الميتات الكثيرة الواجبة عليهم بسبب كثرة خطاياهم التي كانوا بها مطالبين. وأحب الآن منك أن تعلمني كيف السبيل إلى خلاص من يخطئ **بعد** ذلك الحين لأن كلمة الله لا تزول ولا تبطل كما قد شهدت لي في أول هذا القول إن الرب

٧٣- عند هذه الكلمة، ربما سقط من ناسخ المخطوط الذي ينقل عنه كتاب "ذبيحة الاعتراف" عدَّة سطور، أو ربما يكون ناشر الكتاب قد أغفلها. انظر كلمات "بعد" المكتوبة بالبنط الثقيل، سواء في الكتاب المطبوع أو في نص المخطوط.

كتاب "ذبيحة الاعتراف"	مخطوط رقم (١٦ لاهوت)
على قدر عددها. فما الذي يخلصهم من تلك الميتات الواجبة عليهم ...	المسيح حلف وقال آمين أقول لكم أن حتى تزول السماء والأرض لا تزول خطة ولا شكله من التوراة حتى يكون هذا كله. وإذا كانت كلمة الله لا تزول ولا تبطل حتى تزول السماء والأرض فكل من أخطأ خطية صغيرة أو كبيرة في كل حين وزمان وهو يستحق عنها موته جزاء لها وذلك لا يبطل حتى تزول السماء والأرض. فالذين يخطئون **بعد** موت المسيح وقيامته عدة خطايا من ذلك الحين وإلى أن تزول السماء والأرض وهم يستحقون عنها عدة ميتات على قدر عددها، فما الذي يخلصهم تلك الميتات الواجبة عليهم ...
(ص ٢٧) ... أوضح لي أنه لهؤلاء يخلص ولا يخلص غيرهم.	(ص ٢٩ وجه) ... أوضح لي أنه لأولئك يخلص ولا يخلص غيرهم أيضاً إيضاحاً لا يكون فيه شبهة فربما كابرنا في ذلك أقوام.
(ص ٢٩) ... ويحتمل عنّا كل موت واجب علينا. وهذا هو القول ...	(ص ٣٠ وجه) ... ويحتمل عنا كل موت هو واجب علينا، فيفدينا ويسامحنا بكل ما هو واجب علينا. وهذا هو القول ...
(ص ٣١) ... الميتات الكثيرة الواجبة عليه.	(ص ٣١ وجه) الميتات الكثيرة الواجبة عليه، بل أرسله لكي يموت عنهم ...
	وهنا يرد عدّة صفحات في المخطوط لم

كتاب "ذبيحة الاعتراف"	مخطوط رقم (١٦ لاهوت)
	يذكرها الكتاب المنشور، وهي عن المثل الذي ورد ذكره في الفهرس في المسألة الرّابعة. وهي الخمس سطور الأخيرة من ص ٣١ وجه حتى الاثني عشر سطراً الأولى من ص ٣٥ وجه.
	حيث يبدأ سطر ١٣ من ص ٣٥ وجه هكذا: "الواجبة عليه وهي الفضيحة التي ينالها باعترافه للكاهن ...".
(ص ٣٢) التلميذ: ما هي العقوبة التي رسمها الله ليخلّص بها كل من يأتي على الأرض بعد موت ابنه الحبيب؟	لم ترد في المخطوط.
المعلّم: لقد طالب كل من يؤمن به ويصدق أنه الديان أن يدفع له يسيراً من الدّين الواجب عليه وذلك:	
(ص ٣٧) إذاً فالخاطئ سيُدان في الدّهر الآتي لعدم دينونته هنا؟	لم يرد هذا السؤال في المخطوط. أمّا إجابته فقد وردت في تسلسل الكلام.

وأكتفي بهذا القدر من المقارنة لكي أؤكّد للقارئ العزيز أن نص كتاب "ذبيحة الاعتراف" المنشور في السبعينيّات من القرن العشرين هو نفسه نص القسم الثّاني من مخطوط رقم (١٦ لاهوت) بمكتبة دير القدّيس أنبا مقار. أي أنه من تأليف القس مرقس ابن القنبر في القرن الثّاني عشر الميلادي، وليس من تأليف الأنبا ساويرس ابن المقفع في القرن العاشر الميلادي.

الصَّفي بن العسَّال في القرن الثَّالث عشر

نحن الآن في القرن الثَّالث عشَر الميلادي، وهو أحد القرون المنيرة في العصور الوسطى، ليس في كنيسة مصر وحدها، بل في الكنائس الشَّرقيَّة عموماً. ولقد حاول الصَّفي بن العسَّال (١٢٣٥م) أن يشرح لماذا أوقف بعض بطاركة كنيسة الإسكندريَّة الاعتراف السِّري على الكاهن[٧٤]. فأشار في الباب الحادي والخمسين من كتابه "المجموع الصَّفوي" إلى ما يلي[٧٥]:

"... أمَّا الاعتراف فهو طبٌّ روحاني، نسبته إلى الرُّوح نسبة الطِّب الجسداني إلى الجسد. وكما أن الجسداني لا يتم إلاَّ بطبيب خبير خيِّر، وإلاَّ كان ترك الطِّب خيراً منه من جاهل أو شرير. ثمَّ بقبول المريض واستعماله ما يوصف له، ثمَّ بإمكان المداواة من جهة الزَّمان والمكان والإمكان، وإلاَّ فلا فائدة، كذلك الرُّوحاني".

ولما صار وجود الخيِّر الخبير نادراً، وكذلك القسمان الآخران، صار الاعتراف في القبط لا يوجد إلاَّ نادراً. ومنع بعض بطاركتهم منه الجمهور لعدم اجتماع الشُّروط الثَّلاثة التي لا تتم جيداً إلاَّ بها. وكما أنه ليس كل إنسان بمحتاج إلى الطِّب الجسداني، فكذلك الرُّوحاني. وكما أنه ليس كل المحتاجين إليه يحتاجون إليه مستمراً وفي كل مرض، كذلك الرُّوحاني.

ونلاحظ في حديث ابن العسَّال في الفقرة السَّابقة، أنه ربط بين ممارسة سرّ الاعتراف على الكاهن، وبين الإرشاد الرُّوحي الذي يحتاجه الخاطئ لتقويم سيرته. وليس من الضَّروري أن يكون أب الاعتراف هو نفسه المرشد الرُّوحي، وإن كان هذا هو المستحسن والأفضل. فضلاً عن أن فاعليَّة السِّر الكنسي لا تعتمد على استحقاق أو كفاءة الخادم، ولا

74- OCP., Vol. II. 1936, p. 104.

٧٥- جرجس فيلوثاؤس عوض، المجموع الصَّفوي، مرجع سابق، ص ٤٢١

على نيَّة وقصد المخدوم، إذ يصير لغير مستحقيه دينونة، وللمتقدِّمين إليه بتوبة وخشوع خلاصاً وغفراناً وحياة أبديَّة.

وابن العسَّال هنا يصف الحال المتردِّي الذي وصل إليه سرّ الاعتراف في الكنيسة القبطيَّة في هذه العصور الوسطى بسبب عدم أهليَّة الكاهن من ناحية، وعدم اكتراث الشَّعب من ناحية أخرى، ولاسيَّما بعد أن توقَّف الاعتراف على الكاهن في الكنيسة القبطيَّة قرابة سبعين سنة.

ومع حلول القرن الثَّالث عشر الميلادي **بدأ** الحديث عن الاعتراف على الكاهن يعود ثانية إلى الظُّهور. فما ورد عنه في قوانين ابن العسَّال دوَّنه الصَّفي أبو الفضائل الأمجد، وهو الابن الثَّاني لفخر الدَّولة أبو سهل جرجس. أمَّا الابن الأصغر له وهو المؤتمن أبو اسحق إبراهيم، ويُسمى أيضاً مؤتمن الدَّولة أبي اسحق بن الفضل، فله أيضاً كتاب "مجموع أصول الدِّين، ومسموح علم اليقين"، وورد فيه فصل عن الاعتراف بالخطايا والذُّنوب، يوضِّح فيه أن الاعتراف بالخطايا هو على ثلاثة أقسام:

القسم الأوَّل: الاعتراف من المخلوق لخالقه وبارئه فيما بينه وبينه سبحانه بما ارتكب من خطايا. ويستغفر منه عزَّ وجلَّ بالأصوام والصَّلوات والصَّدقات. وعند ذلك يقبل الله توبته ويغفر له، ويرضى عنه. ثمَّ يقول: "وهذا هو الذي يستعمله أكثر القبط".

القسم الثَّاني: اعتراف الإنسان لكل من أخطأ إليه من سائر البشر، وسؤاله أن يغفر له. فإذا غفر له، وجعله في حل، غفر الله له بشرط أن لا يرجع يسئ إليه، لا في سره ولا في جهره، لا بنفسه، ولا بغيره. ثمَّ يقول: "وهذا هو جمهور النَّصارى".

القسم الثَّالث: اعترافه للكاهن المسلم له الاعتراف بجميع خطاياه

التي أخطأها لله وللنّاس. ولا ينبغي أن يكتمه منها شيئاً لا فكراً ولا قولاً ولا عملاً[٧٦]. وإذا اعترف له بجميع أمراضه أمكنه مداواته ومعالجته وملاطفته بالصّوم والصّلاة والصّدقة ورفع القرابين. وما يضعه عليه من القوانين، ويطلب من الله عنه، ويستغفر منه سبحانه. ثمّ يقول: "وهذا هو رأي جمهور النّصارى إلاّ كُثّر من القبط".

وهنا يتّضح لنا تماماً أن العودة إلى الاعتراف على الكاهن في الكنيسة القبطيّة لم يكن رجوعاً سريعاً سهلاً، بل استغرق ذلك الأمر عدّة قرون تالية كما سنرى بعد قليل.

مؤتمن الدّولة أبي اسحق ابن الفضل في القرن الثّالث عشر

ويوضّح مؤتمن الدّولة أبي اسحق ابن الفضل سبب ذلك الأمر في موضع آخر من كتابه المذكور فيقول:

"إن من لم يقبل بالاعتراف على الكاهن من القبط، قد تأمّلوا عدم الشّروط المعتبرة في الكاهن المعترَف عليه، إذ (رأوه قد) عدمها عياناً (وذلك) بعيون بصائرهم وأبصارهم وبتواتر أخبارهم. فمنه ما شاهدوه، ومنه ما سمعوه في كل زمان ومكان عن الخلل والفساد الذي لا يُصبر عليه، ولا يُحتمل، الذي حصل لهم به ضد قصدهم، وتزايد خطاياهم ...

وقد رأيت جماعة من المباينين لنا والخارجين عنّا يعيّروننا بذلك، ويوسعون القول فيه. فأدّى ذلك بالقبط المذكورين إلى ترك اعترافهم على الكهنة. فصاروا يعترفون لله بخطاياهم فيما بينهم وبينه تعالى، ويقلعون عنها، ويستغفرون منها بالصّوم والصّلاة والصّدقة. وإذا أخطأ بعضهم إلى بعض يمضي الواحد المخطئ إلى الآخر ويسأله أن يجعله في

٧٦- بحسب النّص الحرفي: فكرياً ولا قولياً ولا عملياً.

حل من إساءته إليه، ولا ينفصل عنه إلى أن يزرع الله في قلب كليهما المحبَّة لصاحبه".

ثمَّ يورد الكتاب عشرة شروط واجبة على الكاهن الذي يقبل الاعتراف، وفيما يلي موجز لها:

(١) أن يكون كاهناً.

(٢) أن يأمره بطريركه أو أسقفه بقبول الاعتراف بعد أن يتثبَّت من أهليَّته لذلك الأمر.

(٣) أن يكون تعليمه صحيحاً، ومشهود له بذلك.

(٤) أن يكون كتوماً، ويمحو من صدره ما يلقيه إليه المعترف، حتى وإن حصل وحشة بينه وبين المعترف.

(٥) أن يكون ذا نشاط وقوَّة على الصَّوم والصَّلاة عمن يقبل اعترافه مضافاً إلى صلواته الخاصة. وإن كان الكاهن غنياً والمعترف فقيراً، يتصدَّق عنه وقتاً بعد وقت بحسب إمكانه.

(٦) أن يكون له تجربة بالزَّمان وأهله، وبحواثهم ومستجداتهم ووقائعهم وتقلُّباتهم.

(٧) أن تكون له فراسة جيِّدة صحيحة تدل على حال المعترف من حركاته وفلتات لسانه وشهواته وتقلُّباته وتغيُّر أحواله. فإن كثيراً من المعترفين يغلبهم الحياء على كتم بعض أمراضهم على كاهنهم، ولاسيَّما المستقبحة. ومنهم من يخشى صعوبة الأدوية وعُسر استعمالها. فلا يذكر كل خطاياه خشية أن يغلط الكاهن بالتفوُّه بها، أو بالكتابة عنها، أو بالتَّعريض بها والعياذ بالله.

(٨) أن يكون كامل الحذق في طب النُّفوس.

(٩) أن يطبِّب مريضه مجاناً.

(١٠) ألاَّ يحابي من يطبِّبه ولا يستحي منه، ويواجهه بالحق، ويبكِّته

بالوعظ والتّأنيب.

كما يورد الكتاب المذكور شُروط المعترف أيضاً، وهي: أن يكون عاقلاً صادقاً صبوراً على تناول الأدوية المرّة لتخلُص نفسه، طائعاً لطبيبه، قابلاً لأقواله، حسن الظّن به ... الخ.

الشّيخ الفاضل علم الرّئاسة بن كاتب قيصر في القرن الثّالث عشر

وقد وضع الشّيخ الفاضل علم الرّئاسة ابن كاتب قيصر - وكان معاصراً لأولاد العسّال - مقالة جيّدة ذكر فيها آراء من يأخذ بالاعتراف، ومن لا يأخذ به، والرّد على كلا الفريقين[٧٧].

يوحنا ابن سباع في القرن الثّالث عشر

ومن أقدم الكُتُب التي تكلّمت عن الاعتراف السّري على الكاهن في العصور الوسطى هو كتاب "الجوهرة النّفيسة في علوم الكنيسة" ليوحنا بن سباع في القرن الثّالث عشر الميلادي. وهو الكتاب الذي يُعد مرجعاً من أقدم المراجع العربيّة وأهمها للطّقوس القبطيّة[٧٨].

ففي الباب السّادس والعشرين من الكتاب المذكور، وتحت عنوان: "في ذكر إقامة الحاكم معلم اعتراف لشعب الله تعالى" يقول ابن سباع:

"وعلى البطرك إقامة معلّم اعتراف لشعبه، لأن بوجود المعلّم يقل الخطأ من على الأرض. فإذا قلّت الخطايا رحم الله العالم.

وذلك أن الإنسان أشرط على نفسه شروطاً عند المعموديّة، وهي

٧٧- نفس المرجع السّابق، ص ٤٢٤-٤٢٨ بتصرف.

٧٨- الأب جورج شحاته قنواتي، مرجع سابق، ص ٢٢٣

جحد الشيطان وجنوده وأسبابه، والتي من أجله والصَّائرة منه، وقلنا أنه أوجب بذلك على ذاته أولاً ترك القتل والزِّنا والسَّرقة وشهادة الزُّور والتَّحديف والعظمة والبُغضة والافتراء والنَّميمة والحقد والقساوة.

فإذا أحس الإنسان من نفسه أنه قد وقع في شئ من ذلك بعد المعموديَّة، مضى إلى معلِّم الكنيسة وباح له بما وقع فيه. ومن قلَّد المعلِّم قلَّد البطرك الذي أقامه. وبتواضعه للمعلِّم بذكره خطاياه له، والرِّضا بقبوله القانون من فمه يسامحه الله بخطاياه التي صنعها، وتفرح به ملائكة السَّماء لقول الكتاب المقدَّس إنه يكون فرح في السَّماء بخاطئ واحد يتوب، أكثر من تسعة وتسعين صدِّيقاً لا يحتاجون إلى توبة.

فمن هذه الجهة يعرف الكاهن المقدَّس من معلِّم الاعتراف عدد متناولي القربان، ويرفع التَّقدمة من خبز وخمر على كفايتهم. كثيراً يكثِّر، وقليلاً يقلِّل.

ومعلم الاعتراف أيضاً (هو) عكاز البطرك في من تبرأ عن الخطايا ليشعره بخلاصه، لأجل رتب الكهنوت، ومصباح يستضئ به في ذلك.

وكل ما (يختص بـ) البطرك ويلزمه، كذلك يكون للأسقف ويلزمه بمثاله في كهنته"[٧٩].

القس شمس الرِّئاسة المعروف بابن كبر في القرن الثَّالث عشر

أمَّا القس شمس الرِّئاسة ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، وكان قساً بكنيسة العذراء المعلَّقة بمصر القديمة، وهي الكنيسة البطريركيَّة آنئذ. وكان معاصراً للبابا يوحنا الثَّامن (١٢٩٢-١٣١٢م). ففي الباب الرَّابع والعشرين

٧٩- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، الجوهرة النفيسة في علوم الكنيسة، حققه الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيسي، القاهرة، ١٩٦٦م، ص ٢٩٩-٣٠١

من الجزء الثّاني من موسوعته الطّقسيَّة "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة"، يقول تحت عنوان: "فصل في ترك الاعتراف على معلّم أو قس" ما بدايته:

"لما تلمذ مرقس الرَّسول أهل الإسكندريَّة ومصر وغيرهما من البلاد، لم يسن لهم أن يعترفوا بخطاياهم على أحد من العالم رجوعاً إلى قول سيِّدنا: لا تتَّخذوا لكم معلّماً على الأرض، فإن أباكم ومعلّمكم الله في السَّماء ...".

وهنا يتَّضح أن ابن كبر في أواخر القرن الثّالث عشر وأوائل الرَّابع عشر ينقل - مع التَّصرف البسيط - ما سبق أن ذكره الأنبا ميخائيل مطران دمياط عن سرّ التَّوبة والاعتراف في القرن الثّاني عشر. مما يعني أن تعليم الكنيسة الذي ظهر في القرن الثّاني عشر بخصوص الاعتراف على الشوريَّة ظلّ مستمراً حتى القرن الرابع عشر باستثناء فترة أولاد العسَّال في القرن الثّالث عشر الذين حاولوا شرح سبب توقُّف معظم الأقباط عن الاعتراف على الكاهن، مع محاولة إقناعهم بالعودة إلى التَّقليد القديم الذي ساد كل الكنائس، وهو أهميَّة الاعتراف على الكاهن بعد الاعتراف على الله والتَّوبة إليه.

ويستطرد ابن كبر في شرح ما سبق أن ذكره أنبا ميخائيل مطران دمياط الذي قال: "فكما أن الخاطئ في العتيقة يذكر خطيئته في أذن ذبيحته سراً، والكاهن يقدِّمها ويستغفر له، هكذا جُعل للخاطئ في الحديثة أن يعترف بخطيئته على مجمرة البخور عندما يبخِّر الكاهن، والكاهن هو الذي يرفع البُخور لله، ويستغفر منه". فيقول ابن كبر:

"ورتب مرقس أحوال البيعة واستمر حال القبط بأرض مصر وما معها على ذلك، لا يعترف أحد منهم على كاهن أو معلّم، بل على المجمرة إذا طاف بها الكاهن. فإن القس جُعل أن يرفع البخور على مذبح

الله مثل هرون وزكريا وغيرهم من الكهنة. وأن يدوروا به على الشَّعب، ليذكر كل إنسان خطيئته ويقلع عنها، ثمّ يعود القس بالبخور إلى هيكل الرَّب الذي هو قدس الأقداس ويستغفر عن الشَّعب. والله قابل التَّوبة والاعتراف وغافر الخطايا.

وكما كان في العتيقة، إذا قدَّم واحد ضحيَّة عن خطاياه، ويقول في أُذُن التَّقدمة ويقدِّمها فدية عن خطاياه، كذلك رُتِّبت المجمرة لأن يعترف عليها كل واحد بذنبه. والذَّنب الذي يذنبه الإنسان يستحق عقوبتين، واحدة لله تعالى، والأخرى للنَّاس. مثال ذلك قال الله: لا تسرق، ولا تقتل. فإن سرق الإنسان أو قتل، صار عليه عقوبة عصيانه لأمر باريه، وصاحب السَّرقة أو المقتول، كل واحد منهم يطلب ما يخصّه.

وأما قول الله اغفروا يُغفر لكم، فمعناه أنك إذا غفرت لمن أساء إليك، غفر الله لك ما أسأت بين يديه من تعدِّي أوامره. فأما ما يستحقه النَّاس بعضهم على بعض، فما يخلِّصهم منه إلاّ أن يحلِّل بعضهم بعضاً، فيغفر الله لهم تعدِّياتهم أمره ويخلُصوا جميعاً. ويدل على ذلك قول سيِّدنا في الإنجيل المقدَّس: إذا قدَّمت قربانك على المذبح وما يتلوه. وليس كاهن ولا نبي ولا أحد سلم من الهفوات، لقول سيِّدنا: ليس صالح إلاّ الله الواحد. فله وحده نسجد، وله نعترف دائماً. آمين".

وفي نفس هذا الباب، وبعد قليل يقول ابن كبر تحت عنوان: "حاشية تتعلّق بالاعتراف بالهفوات":

"يقول سيِّدنا ليس صالحاً إلاّ الله الواحد، ولا يليق بأحد أن يدين أحداً على خطيئته إلاّ أن يكون بريئاً من مثلها. فإن قال يعقوب الرَّسول في الكاثوليكون: اعترفوا بخطاياكم لبعضكم البعض، أنني أضمرتُ في نفسي أو هميت (هممت) بأن أفعل أو فعلتُ بأحد شراً، فأردتُ خلاص

نفسي، صرتُ إليه وأوردتُ إليه بخطيئتي في حقّه، ولمّا آتي إليه وأسأله الصَّفح، فإذا صفح لي ودعا لي ودعوتُ له، خلُصت كما خلُص زكا. وأيضاً فقد قال القدّيس غريغوريوس إنه لا ملائكة ولا رؤساء ملائكة ولا رئيس ولا نبي[٨٠] يأتمنهم على خلاصنا. بل أنت لا محالة تجسَّدت وصرت إنساناً، إلى قوله: وجلعت الاثنين واحداً. واحدة من قول إشعياء النّبي: ليس هو ملاكاً ولا شفيعاً لكن الرَّب أتى وخلّصنا، فله وحده نسجد. وإياه وحده نعبد".

كتاب سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت من قول معلّمي البيعة

إن ما ذكره ابن كبر منذ قليل في القرن الرّابع عشر الميلادي قد ظل تعليماً مستمراً في الكنيسة القبطيَّة بعد ذلك بعدة قرون أيضاً.

ففي مخطوط يعود إلى **القرن الخامس عشر** وجده جرجس فيلوثاؤس عوض في الإسكندريَّة، وهو مؤرَّخ بتاريخ ١٧ برمهات سنة ١٢٠٩ش/ ١٣ مارس سنة ١٤٩٣م، ويحمل عنوان: "كتاب سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت"[٨١]. وهو مخطوط يشرح طقس القدّاس الإلهي، نقرأ فيه ما يلي: "... ثمّ يطوف (الكاهن) على الشّعب ليقول كل واحد واحد خطيئته وأفكاره على يد الكاهن ليرفعها إلى الله تعالى وذلك مثل ما قال الله لموسى النّبي: إن كل من عمل خطيئة يأتي بذبيحة قدّام الكاهن وليقل خطيئته في أذن الذّبيحة سراً وليقدّمها الكاهن. كما أن بطرس الرّسول لمّا جحد فندم وخرج بكى بكاءً مراً سراً، فقبل الله توبته. وقد

٨٠- أضف النّص هنا كلمة: "لم"، وهو خطأ.

٨١- نشره جرجس فيلوثاؤس عوض ضمن سلسلة كتب عن القدّاس، بعنوان: "كتاب سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت" تأليف أحد علماء الكنيسة القبطيَّة في القرون الوُسطى، ١٩٤٢م. وقد نشره بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين من عمره، وقد وُلد في طنطا في ١٣ أكتوبر سنة ١٨٦٧م.

أبطل آباؤنا الاعتراف من البيعة القبطيَّة، وقد وضعوا في ذلك كتاباً وامتدوا في ذلك. وعند فروغ تطوافه البيعة يعود إلى المذبح ويقول "ⲫϯ ⲫⲏⲉⲧⲁϥϣⲟⲡ ⲉⲣⲟϥ ⲛ̀ϯⲟ̀ⲙⲟⲗⲟⲅⲓⲁ̀..."(٨٢).(٨٣).

ولم تكن هذه هي النُّسخة الوحيدة من المخطوط المذكور التي وجدها جرجس فيلوثاؤس عوض في الإسكندريَّة، بل وجد نسختين أخريين من هذا الكتاب كانتا حوزة المعلّم مرقس نعوم المتوفي سنة ١٨٩٦م، وكان متضلّعاً في اللُّغة القبطيَّة. كما وجد القُمُّص أرمانيوس حبشي شتا البرماوي (١٨٩٤-١٩٣٩م) نسختين أخريين من هذا الكتاب. إلى جانب نسخ أخرى. وعن هذه المخطوطات السَّابق ذكرها نشر جرجس فيلوثاؤس عوض كتاب "سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت" محقّقاً من هذه النُّسخ.

كما يوجد هذا الكتاب عينه في مخطوطين آخرين محفوظين في مكتبة البطريركيَّة بالقاهرة، المخطوط الأوَّل برقم (١٩/٢٦٤ لاهوت)، وهو يعود إلى القرن السَّادس عشر، ومؤرَّخ (في ص ٧٤ وجه) بتاريخ ١٥٦٢م. وهو بخط يوحنا بن غبريال بدير أنطونيوس برسم (البابا) غبريال السَّابع (١٥٢٥ـ ١٥٦٨م) الخامس والتسعين من بطاركة الكنيسة القبطيَّة. والمخطوط الثّاني برقم (٦/٧٤٧ لاهوت)، من القرن الخامس عشر، ومؤرَّخ بتاريخ ١٤٩٣م(٨٤).

كما أشار جراف G. Graf إلى هذا الكتاب أي "كتاب سرّ الثّالوث

٨٢- أي: "يا الله الذي قبل إليه اعتراف ...".

٨٣- جرجس فيلوثاؤس عوض، سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت، مرجع سابق، ص ١٢، ١٣

٨٤- انظر: مؤتمن الدَّولة أبي اسحق إبراهيم، الأعمال الرَّئيسيَّة في الآداب الكنسيَّة، نشره بعد تصحيحه ووضع حواشي عليه، جرجس فيلوثاؤس عوض، القاهرة، ١٩٤٢م.
Cf. also, G. Graf, GDCAL, III, p. 525.

في خدمة الكهنوت"، وأضاف - إلى ما سبق أن ذكره جرجس فيلوثاؤس عنه - أنه موجود أيضاً في مخطوط رقم (٦١٤٧ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس (من ص ٨٧ ظهر إلى ص ١٠٠ ظهر)، وهو مخطوط يعود إلى القرن السَّابع عشر أو الثّامن عشر[٨٥].

إذاً لم ينتهِ التَّعليم الذي تبناه الأنبا ميخائيل مطران دمياط في منتصف القرن الثّاني عشر بخصوص الاعتراف على الشَّورية بعد نياحته، بل امتد تأثيره في الكنيسة إلى ما بعد زمانه بقرون طويلة.

ولازال كتاب الخولاجي المقدَّس المطبوع الذي بين أيدينا حتى اليوم يتحدَّث عن "سرّ اعتراف الشَّعب" الذي يقوله الكاهن أمام المذبح بعد عودته من دورة البُخور في الكنيسة، وهو الطّقس الذي ظهر في هذه العصور الوسطى. ويضيف الخولاجي المقدَّس في حاشية له عن ذلك الأمر بقوله:

"عن طواف الكاهن البيعة بالبخور. ففي أحد كتب القوانين قال أحد الأساقفة: ينبغي للإنسان عند حضور المجمرة إلى عنده أن يقول: أسألك يا سيِّدي يسوع المسيح أن تغفر خطاياي التي أعرفها والتي لا أعرفها. ولهذا السَّبب عند كمال الشَّعب وتبخيره إياهم يطلع (الكاهن) إلى قدس الأقداس ويبخر الهيكل. وهو دليل على رفع خطايا العالم إليه. وبعد ذلك يتوسَّل في الطلبة عنهم. فمن كان من الشَّعب مقلعاً عن خطاياه وطالباً إلى الله المغفرة، كانت طلبة الكاهن مساعدة له على قدر نيَّته وضميره. وإن كان مصراً على خطاياه فلا منفعة في استغفار الكاهن عنه ولا ربوات كهنة إلاّ إن أضمر الإقلاع عنها"[٨٦].

85- G. Graf, GDCAL, IV, p. 130.

٨٦- الخولاجي المقدَّس، وهو مصحح ومستوفي الترتيب على يد القُمُّص عبد المسيح صليب، طُبع في مصر بمطبعة عين شمس سنة ١٩٠٢م، ص ٢٣٧، ٢٣٨

خلاصة موضوع التَّوبة والاعتراف في العصور الوسطى

ممَّا سبق ذكره يتَّضح لنا أن ما كُتب في العصور الوسطى عن سرّ الاعتراف في الكنيسة، يتلخَّص في أمرين:

الأمر الأوَّل: هو محاولة إثبات أنه لا يوجد نص كتابي يؤيِّد الاعتراف على الكاهن بالخطايا. ولقد تجاهل هذا الإثبات التَّقليد الكنسي، والتَّاريخ الطَّقسي للسِّر. وما ذكرتُه عن ذلك في الباب الأوَّل من هذا الكتاب يكفي لتوضيح ذلك.

والأمر الثَّاني: هو محاولة إثبات أن البديل للاعتراف على الكاهن هو الاعتراف على الشُّورية أثناء مرور الكاهن بها في الكنيسة في دورات البُخور، إلى حد نسبة هذه الممارسة إلى مار مرقس الرَّسول نفسه!. وهو ما يذكره الأنبا ميخائيل مطران دمياط في القرن الثَّاني عشر، وما يذكره ابن كبر قس الكنيسة المعلَّقة في القرن الرَّابع عشر، حيث يقول: "ورتَّب مرقس أحوال البيعة واستمر حال القبط بأرض مصر وما معها على ذلك، لا يعترف أحد منهم على كاهن أو معلِّم، بل على المجمرة إذا طاف بها الكاهن".

والسُّطور التَّالية هي عن هذا الأمر.

لقد استقر في طقس الكنيسة القبطيَّة منذ القرن الثَّاني عشر الميلادي تقريباً الطَّقس المعروف اليوم باسم "سرّ اعتراف الشَّعب"، أو "سرّ الرَّجعة". وهي الصَّلاة السِّريَّة التي يقولها الكاهن أمام المذبح بعد عودته من المرور على الشَّعب بالشَّورية في قدَّاس الموعوظين ليجمع اعترافاتهم، ثمَّ يعود إلى المذبح ليقول أمام الرَّب: "سرّ اعتراف الشَّعب" وهو: "يا الله الذي قبل إليه اعتراف اللِّص على الصَّليب المكرَّم، اقبل إليك اعتراف شعبك، واغفر لهم جميع خطاياهم من أجل اسمك القدُّوس الذي دُعي

علينا، كرحمتك يارب ولا كخطايانا".

وفي الحقيقة فإن الطّقس القبطي لصلوات القدّاس الإلهي لا يؤيّد أن مار مرقس الرّسول هو الذي رتّب الاعتراف على الشّورية في الكنيسة. لأنه كيف يمكن أن يمر الكاهن بالشّورية على الشّعب ليجمع بها اعترافات المعترفين عليها بعد صلاة تحليل الخدّام، والتي بموجبها يحلل الكاهن الكنيسة كلها خداماً وشعباً من فم الثّالوث القدّوس، ومن فم الكنيسة المقدّسة؟. فواضح هنا أننا إزاء ممارستين طقسيّتين، الأولى هي صلاة تحليل الخدّام، وهي الممارسة الأقدم، والثّانية هي مرور الكاهن بالشّورية على الشّعب ليجمع اعترافاتهم، وهي الممارسة الطّقسيّة الأحدث. إذ لا يمكن أن تكون صلاة التّحليل سابقة على الاعتراف بالخطايا على الشّورية.

أي أن طقس "سرّ الرّجعة"، أو "سرّ اعتراف الشّعب"، مع ما يصاحبه من صلوات، لا يتوافق ليتورجياً مع صلاة "تحليل الخدّام" التي قيلت من قبل، إذ يفرغها حتماً من مضمونها.

وعلينا أن نلاحظ أيضاً أن صلاة "تحليل الخدّام" تختص بكل الحاضرين الكنيسة بدءاً من الأب الأسقف، ثمّ القسوس والشّمامسة، وانتهاءً بكل الشّعب، باعتبار أن الشّعب هو مشارك فعلي وحقيقي في الخدمة اللّيتورجيّة. أما "سرّ اعتراف الشعب" فهو يختص بالشّعب فقط خلواً من طغمة الإكليروس، متمثّلين في الكهنة والشّمامسة.

إن دورة البُخور في الكنيسة بطقسها المعروف لنا الآن، والمدوّن في الخولاجي المقدّس، هي وليدة أحداث تاريخيّة عبرت عليها الكنيسة القبطيّة في القرن الثّاني عشر الميلادي. فإن كنّا نمارسها لكونها قد صارت

طقساً مستقراً في الكنيسة، ولا ينبغي أن ننقل تخم الآباء، فهذا لا يعني محاولة التَّوفيق بين تحليل الخدَّام، وبين سرّ الرَّجعة، أو بين مرور الكاهن بالشُّورية على الشَّعب ليجمع اعترافاتهم، وبين ترديد الشَّعب أو الخوروس للهيتنيَّات في ذلك الوَقت عينه[٨٧]، لأن هذه المحاولات — التي يسوقها البعض على سبيل التأمُّل - لن تفضي في النهاية إلاَّ إلى مزيد من التَّعقيد، فالتَّاريخ الطَّقسي واضح في هذه الجزئيَّة.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الاعتراف على الشُّورية لا يمكن أن يكون بديلاً عن الاعتراف على الكاهن في الكنيسة، لأن الاعتراف على الكاهن هو التَّقليد الأقدم والأسبق.

إن دورة البخور في الكنيسة هي لمباركة الشَّعب وافتقاده، ليس أثناء القراءات الكنسيَّة نفسها كما تمارس بعض كنائسنا اليوم بل قبلها، لكي يتفرَّغ الشَّعب أثناء القراءات الكنسيَّة للإصغاء الكامل إليها دون أي تشويش. والكاهن في مروره بالمجمرة يقول: "بركة بخور عشيَّة ..."، أو "بركة بخور باكر ..."، أو "بركة بولس الرَّسول ..."، أو "بركة آبائنا الرُّسُل القدِّيسين، بركتهم المقدَّسة تكون معنا آمين". ومن هذه الصِّيَغ اللِّيتورجيَّة لا يوجد ما يشير أنها لجمع اعترافات المعترفين.

ثمَّ أن الكاهن عندما يقدِّم يد البُخور لواحد من الإكليروس، يطلب إليه قائلاً: "أسألك يا أبي ... اذكرني في صلاتك". وهنا لا لذكر

٨٧- كما يقول البعض: "لكي يرفع الكاهن اعترافات الشَّعب مصحوبة بشفاعات وصلوات القدِّيسين". وهنا عدم دراية بتاريخ الطُّقس، لأن الهيتنيَّات لم تستقر في هذا الموضع من اللِّيتورجيَّة المقدَّسة إلاَّ في أواخر القرن التَّاسع عشر الميلادي، أمَّا الاعتراف على الشُّورية فقد ظهر في القرن الثاني عشر الميلادي، والفارق بين الممارستين سبعة قرون.

لخطايا، أو اعتراف بها.

إذاً نخلص إلى نتائج هي:

أولاً: تحليل الخدَّام هو طقس قديم في الكنيسة، اكتمل تماماً بشكله الحالي منذ القرن السَّادس الميلادي تقريباً.

ثانياً: سرّ الرَّجعة أو سرّ اعتراف الشَّعب هو طقس عُرف في الكنيسة القبطيَّة في غضون القرن الحادي عشر أو الثّاني عشر الميلادي، وما بعده، ولكن إلى جانبه ظلّ التَّعليم بوجوب وجود أب للاعتراف أو معلّم للاعتراف موجوداً في هذا الوقت عينه.

ثالثاً: دورة البُخور في الكنيسة هي ممارسة طقسيَّة قديمة في اللّيتورجيًّا، قدم اللّيتورجيًّا نفسها، ولكن ما يصاحبها من صيغ ليتورجيَّة يقولها الكاهن قد تباينت بين كنيسة وأخرى.

رابعاً: إن كان الأنبا ميخائيل مطران دمياط قد أرسى طقس الاعتراف على الشَّورية في الكنيسة القبطيَّة في القرن الثّاني عشر بموافقة بعض الآباء البطاركة في العصور الوُسطى، فإن القس أبو البركات ابن كبر قس كنيسة السيِّدة العذراء المعلّقة — المقر البطريركي في ذلك الوَقت – حين ردَّد نفس كلمات من سبقوه في هذا الشأن بقرنين من الزَّمان، يؤكد لنا جلياً أن هذا التَّعليم ظلّ قوياً ومنتشراً في الكنيسة القبطيَّة، بل وامتد فيها لعدة قرون تالية. أمَّا أن يُنسب هذا التَّعليم إلى مار مرقس الرَّسول فهو ما يؤخذ على ابن كبر الذي لا يزال أحد علماء طقس الكنيسة القبطيَّة، بل وأحد مراجعه الأساسيَّة حتى اليوم.

الفَصل السَّادس

في القرون الوُسطى

في الغـــرب المســـيحي

تمهيد

من المعروف أن التَّوبة والاعتراف في الكنيسة قد تقنَّن كسر كنسي في الغرب أولاً في حدود القرن الثَّاني عشر، قبل أن ينتقل هذا التَّقنين إلى الشَّرق المسيحي عن طريق الكنيسة اليونانيَّة. إلاَّ أن ممارسته في الكنيسة الجامعة كانت منذ نشأة الكنيسة كما سبق أن شرحتُ في الفُصول السَّابقة.

في القرن الثَّالث عشر الميلادي

أقر المجمع اللاتراني الرَّابع سنة ١٢١٥م في قانونه الحادي والعشرين الاعتراف السَّنوي الإلزامي لجميع المؤمنين رجالاً ونساءً وأطفالاً منذ سن الرُّشد. ويوضِّح القانون أن هذا الاعتراف يجب أن يتم لدى كاهن الرَّعيَّة الذي ينتمي إليها كل مؤمن.

ويرى المؤرِّخون أن المجمع قد ألزم المؤمنين بالاعتراف السَّنوي للتَّحقُّق من صحَّة إيمان المسيحيِّين في عصر كثرت فيه البدع. لذلك يضيف قرار المجمع المذكور أن من لا يتقدَّم إلى هذا الاعتراف السَّنوي، يُحرم من الكنيسة.

إلى جانب ذلك فقد نشأت في هذه الفترة عادة الاعتراف المتواتر، مرَّة أو مرَّتين في الأسبوع في أديرة الرُّهبان لاسيَّما الفرنسيسكان والدُّومينيكان، ثمَّ انتقلت هذه العادة إلى العلمانيِّين الذين وجدوا فيها وسيلة لتكرار المناولة الإفخارستيَّة، والتي كانت آنئذ أمراً نادراً.

وبعد أن نشأت الحركة البروتستنتيَّة في الغرب، ظهرت آراء مغايرة

لمعتقد الكنيسة الكاثوليكيَّة في سرّ التَّوبة، تبنَّاها مـــارتن لـــوثر Martin Luther (١٤٨٣- ١٥٤٦م)، ويوحنا كلفـــن J. Calven (١٥٠٩- ١٥٦٤م). ففي نظر لوثر يمكن اعتبار التَّوبة "سراً"، ولكن ليس كسر قائم بذاتـــه، بل كسرٍ مكمِّل للمعموديَّة، أو كسر ارتداد إلى المعموديَّة بحسب تعبيره. وأن المسيح قد منح كنيسته سُلطة حل الخطايا وربطها، ولكنه لم يؤسِّس الاعتراف المفصَّل بالخطايا. أما كلفن فينكر على التَّوبة صـــفة السِّـــر، ويدعوها "ذكرى المعموديَّة"، أي ذكرى مغفرة الخطايا التي نالها المؤمن في المعموديَّة.

وبما أن لوثر وكلفن لا يقرّان بسر الكهنوت بالمعنى الأرثوذكســـي والكاثوليكي، لذلك فهما يعتبران أن الحل من الخطايا يمكن أن يكـــون على يد العلمانيِّين.

وضداً لهذه الأفكار التي قالها لوثر وكلفن، أقرَّ المجمـــع التريـــدنتيني الأمور الثَّلاثة التَّالية:

(١) ضرورة الاعتراف بالخطايا المميتة على الأقل مرَّة في السَّنة.

(٢) ضرورة الإقرار بالخطايا أمام الكاهن، والذي وحده يســـتطيع منح الحل عنها أو ربطها.

(٣) التَّأكيد على أن هذه القوانين ليست من وضع كنسي، بل هي من وضع إلهي[١].

١- الأب سليم بسترس، اللاَّهوت المسيحي والإنسان المعاصر، الجزء الثالـــث، لبنـــان، ١٩٨٧م، ص ٢٢٩

في القرن الخامس عشر الميلادي[٢]

يقول الأرشيمندريت جراسيموس مسرَّة رئيس كنيسة السُّوريين الرُّوم الأرثوذكس في اللاذقيَّة، في كتابه "تاريخ الانشقاق"[٣]: في هذا القرن نقرأ عن بابا روما المُسمى مرتينوس الخامس في سنة ١٤١٧م، وهو الذي وزَّع على الجميع غفرانات، وحلّهم من الخطايا المميتة، وحرم الشَّعب من تناول الدَّم الإلهي في سرّ الشَّركة. وكان ذلك في مجمع "قسطنديا" عندما ذكر في نص القرار ما يلي:

"... ثمّ وإن كان المؤمنون يتناولون هذا السِّر تحت الشَّكلين في الكنيسة القديمة، لكن العادة كُرِّست بعد ذلك بكل حكمة تجنباً لبعض الأخطاء والشُّكوك أن لا يتناول تحت النَّوعين إلاّ القسوس الخادمون. وأما العوام فتحت النَّوع الواحد فقط، نوع الخبز. لأنه لا ريب في أن كل جسد يسوع المسيح وكل دمه موجود في كل واحد من هذين النَّوعين. ولذا بما أن هذه العادة أُدخلت بحكمة إلى الكنيسة، وصارت مرعيَّة منها زمناً طويلاً، نقرِّرها شريعة لا يستطيع أحد أن يلغيها أو يغيِّرها بلا موافقة الكنيسة ...".

وقال المؤلّف الغربي فلوري: "لو أن قراراً مثل هذا القرار صفته سلب الإلهيَّات تُلي في أحد المجامع المسكونيَّة. فالآباء القدِّيسون الذين كانت ترن بعد في آذانهم أقوال المسيح التي قالها على العشاء السِّري في دمه الإلهي «اشربوا منها كلكم»، أما كانوا يا تُرى يرتعدون حين

٢- أرشيمندريت جراسيموس مسرَّة اللاذقي، تاريخ الانشقاق، الجزء الثالث، ١٨٩٩م.
وهو يبحث في موضوع الانشقاق العظيم الذي حدث بين الشَّرق والغرب، أي بين الكنيسة اليونانيَّة والكنيسة اللاتينيَّة، والذي بدأ في عصر البطريرك القسطنطيني فوتيوس سنة ٨٦٣م، وتم في عصر البطريرك القسطنطي ميخائيل كيرولاريوس سنة ١٠٥٤م.

٣- أرشيمندريت جراسيموس مسرَّة، تاريخ الانشقاق، مرجع سابق، ص ١٣٠

يسمعون أن الذي يتمِّم هذا العهد يُدعى هرطوقياً؟".

مجمع فلورا

ومن بين المجامع التي عُقدت بين الشَّرق والغَّرب سعياً في طريق الاتحاد بينهما آنئذ، كان مجمع فلورا الذي عُقد سنة ١٤٣٨م في مدينة البندقيَّة، وبصحبة بعض الأساقفة الشَّرقيِّين حضر بطريرك القسطنطينيَّة وتقابل مع يوليانوس بابا روما، وقبَّلا بعضهما القُبلة الأخويَّة. وشرح يوليانوس في الجلسة الختاميَّة للمجمع تعليم الكنيسة الرُّومانيَّة عن المطهر أو النَّار المطهِّره، فقال:

"إن الكنيسة الرُّومانيَّة تسلَّمت منذ القديم، وتعتقد من بدء انتشار الدِّين المسيحي بأن نفوس المتوفِّين بعد خروجها من هذا العالم تذهب حالاً إلى التَّمتُّع بالخيرات إذا كانت نقيَّة ومجرَّدة من كل شائبة كما هي نفوس القدِّيسين. وأما نفوس الذين سقطوا بعد المعموديَّة في الخطايا ثم ندموا عليها ندامات خالصة، واعترفوا بها، ولكنهم لم يملكوا وقتاً ليتمِّموا القانون الذي فُرض عليهم من رئيس اعترافهم، ولا أن يأتوا بأثمار للتَّوبة كافية لمحو خطاياهم الشَّخصيَّة ، فهذه النُّفوس تُطهَّر بالنَّار المطهِّرة أزماناً متفاوتة، بعضها طويلاً، وبعضها قصيراً، على نسبة الخطأ الذي خطئوه. وبعد التَّطهُّر تذهب إلى التَّمتُّع بالسَّعادة. ثمَّ أن الكنيسة تساعدهم بطلبات الكاهن، كما أن القداديس وأعمال الرَّحمة تسعفهم أيضاً ..."[٤].

أمَّا الرُّوم الشَّرقيُّون فإنهم يعترفون بوجود نار في المستقبل فقط، وبعذاب وقتي للنُّفوس، بمعنى أن نفوس الخطأة تذهب إلى مكان مظلم مخوف، فتحزن حزناً وقتياً وتُعذَّب بحرمانها من النُّور الإلهي. على أنها

٤- نفس المرجع، ص ٢٠٠

بواسطة طلبات الكنيسة والقدّاسات الإلهيَّة وأفعال الرَّحمة تُطهَّر، أي تُعتق من ذلك المكان المظلم، مكان الحزن، وتُطلق، ولكنها لا تطهَّر بنار. فلا يعترف الرُّوم بأن الفعل للنَّار كما يعترف اللاتين، بل يعترفون بأن الفعل إنما هو للصَّلاة والطِّلبة والصَّدقة[٥].

وفي الجلسة التَّالية استند اللاتين — من بين ما استندوا - على قول بولس الرَّسول: «فإنه لا يستطيع أحد أن يضع أساساً آخر غير الذي وُضع، الذي هو يسوع المسيح. فإن كان أحد يبني على هذا الأساس ذهباً فضة حجارة كريمة خشباً عشباً قشاً، فعمل كل واحد سيصير ظاهراً لأن اليَوم سيبينه، لأنه بنار يُستعلن وستمتحن النَّار عمل كل واحد ما هو. إن بقى عمل أحد قد بناه عليه فسيأخذ أجرة. إن احترق عمل أحد فسيخسر وأما هو فسيخلص ولكن كما بنار» (١كورنثوس ٣:١١-١٥).

أمَّا المعلّمون الشَّرقيُّون فقد أبرزوا تفسير القدِّيس يوحنا ذهبي الفم لهذه الآية حيث يقول:

[إن النَّار هنا يعني بها النَّار الأبديَّة لا مطهراً زمنياً].

وقالوا: أما الكلمات "خشب وحشيش وتبن" فيعني بها الأعمال الأدبيَّة التي هي عزاء النَّار الأبديَّة. وأما قوله فسيخسر، فمعناه سيفنى ويباد ويضمحل. وأما اليوم فهو يوم الدَّينونة الرَّهيبة. وأما الخلاص الذي كأنه بنار، فلا يعني به العتق من العذاب، بل الخلاص من الخسارة، والسَّلامة من الاضمحلال والفناء. فيكون المعنى إذاً بقاء الأشرار واستمرارهم في العذاب. وعليه رفضوا تفسير أغسطينوس المبني فهمه على كلمة "سيخلص"، بمعنى سيكون مغبوطاً، فجاء فهمه لكل الآية على

٥- نفس المرجع، ص ٢٠٠، ٢٠١

معنى مغاير لمعناها، لأنه كان يجهل اليونانيَّة التي كتب بها الرَّسول.

فكلمة "سيخلص" تُلفظ في اليونانيَّة بلفظ "سوثيسته"، وهو من فعل "سوزسته"، الذي معناه الأصلي البقاء وعدم الفناء. وهذا ما أراده الرَّسول. فإنه لما كانت خاصية النَّار أنها تفني الأشياء، ولما كان الذين يدخلون العذاب الأبدي لا يفنون، يقول الرَّسول إن هؤلاء المعذَّبين يبقون ويدومون في الوجود، ولكن كأنهم بنار أي ملتهبين ومحترقين، ولكي يؤكِّدوا أن هذا هو معنى قول الرَّسول قالوا ما يأتي:

الرَّسول يقسم كل البناء – المبني على الأساس الموضوع – إلى نوعين فقط، ولا يذكر نوعاً ثالثاً غيرهما. فأولاً يذكر الذَّهب والفضة والحجارة الكريمة، ويعني بها الفضائل. وثانياً: يذكر الخشب والحشيش والتبن، ويعني بها الرَّذائل. ولم يذكر غير هذين النَّوعين.

فبعد أن عدَّد الرَّسول الأعمال التي توجب السَّعادة الأبديَّة، أعني الفضائل، والأعمال التي تستلزم القصاص الأبدي، أعني الرَّذائل، قال: «فإن عمل كل واحد سيصير ظاهراً». ثمَّ إنه عيَّن الوقت الذي فيه يظهر العمل، وأشار إلى اليوم الأخير الذي فيه يأتي الله ليكافئ كل واحد بحسب استحقاقه، فقال: «لأن اليوم سيبيِّنه، لأنه يُعلن بالنَّار». ومن الواضح أن اليوم الذي يعنيه إنما هو يوم حضور يسوع المسيح والدَّهر الآتي بعده، الذي بنوع خصوصي يُدعى يوماً بالنسبة إلى الدَّهر الحاضر الذي يُسمى ليلاً.

هذا هو اليوم الذي يأتي فيه بمجد، ويجري قدامه نهر النَّار كما ورد في الكتاب المقدَّس «من أمامه جرى وخرج نهرٌ من نار، تخدمه ألوف ألوف، وربوات ربوات تقف بين يديه. فجلس (أهل) القضاء، وفُتحت

الأسفار» (دانيال ٧: ١٠). وأيضاً: «النّار قدامه تتّقد، وحوله عاصف شديد» (مزمور ٤٩: ٣). وأيضاً: «منتظرين ومستعجلين مجئ يوم الرّب، الذي فيه ستلتهب السّماوات، وتنحل العناصر محترقة وتذوب. ولكننا على مقتضى موعده ننتظر سماوات جديدة، وأرضاً جديدة يسكن فيها البر» (٢بطرس ٣: ١٢، ١٣).

فمن هذه الشّهادات يتّضح جلياً أن بولس المغبوط إنما يتكلّم هنا عن اليوم الأخير، وعن النّار الأبديّة. فهذه النّار ستمتحن عمل كل واحد ما هو بأنها تنير على بعض الأعمال، وتحرق بعضها مع الذين عملوها. على أن الأعمال عند احتراقها في النّار تفنى وتُباد، ولا يعود لها أثر. ولكن فاعليها لا يتلاشون ولا يفنون، بل يبقون في النّار، ويكون تعذيبهم واحتراقهم فيها أبدياً. فإذاً من حيث أن الرّسول لا يقسّم الخطايا هنا إلى مميته وغير مميته، بل يقسّم كل الأعمال إجمالاً إلى صالحة وشريرة، ومن حيث أن الوقت الذي ستميَّز فيه هذه الأعمال هذا التّمييز هو اليوم الأخير كما يشير بولس ويوافق عليه تعليم بطرس، ومن حيث أنه يصف تلك النّار بإبادة الأعمال السّهلة الاحتراق، وبقاء فاعلها، يتّضح جلياً أن القدّيس بولس لا يتكلّم هنا عن نار مطهِّرة تمس - على زعمكم - بعض الأعمال الرّديئة، وخصوصاً أصغرها وأقلها اعتباراً، ولا تمس سائر الأعمال الرّديئة، وخصوصاً أعظمها، بل يتكلّم عن النّار الأبديّة التي تحرق جميع الأعمال الرّديئة وتفنيها وتعذّب فاعليها.

ثمّ إن الكلمات التّالية وهي قوله: «إن احترق عمل أحد فسيخسر» توضّح أن الكلام هنا يتعلّق بالخاسرين المعذّبين بالعذابات الأبديّة، والمحرومين من النّور الإلهي. وهذه صفة لا تليق على زعمكم بالمطهَّرين. لأن المطهَّرين لا يُدعون خاسرين، بل رابحين، لأنهم أُعتقوا من العذاب، إذ توشّحوا الطّهارة والنّقاوة. فلا يصح أن يكون احتراق العمل هنا بمعنى

التطُّهر، لأن الطهَّارة ربح. والنَّص الشَّريف لا يقول بالرِّبح بل بالخسارة[٦].

مجمع فلورنسا والأحداث المصاحبة له

في سنة ١٤٣٩م عُقد مجمع فلورنسا الشَّهير، وكان بين كنيسة القسطنطينيَّة وما يتبعها من كنائس، وكنيسة روما وما يتبعها من كنائس. أي بين الكنيستين الشَّرقيَّة والغربيَّة[٧]. وهو المجمع الأخير الذي عُقد بين الشَّرق والغرب في القرون الوسطى من أجل عودة الاتحاد بين الكنيستين. وقد فشل هذا المجمع في الوصول إلى هدفه، وهو الاتحاد بين روما والقسطنطينيَّة.

وفي موضوع نار المطهر، وهو ما يختص بموضوعنا، قال الأساقفة الشَّرقيُّون: "إننا نعترف بأن نفوس الصدِّيقين تنال مكافأة تامة، ونفوس الخطأة قصاصاً تاماً. وأما النُّفوس التي في حالة متوسِّطة فإنها تعذَّب في حبس. لكننا لا نعيِّن ما إذا كانت ما تعذَّب به ناراً أو ظلاماً

٦- نفس المرجع، ص ٢٠٠-٢٠٦

٧- كان بطريرك القسطنطينيَّة في ذلك الوقت هو البطريرك يوسف. أما الحبر الرُّوماني فهو البابا أوجانيوس.

وما هي إلاَّ عشر سنوات لا يزيد بعد هذا المجمع المذكور حتى دخل الأتراك مدينة القسطنطينيَّة بقيادة السُّلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥١م، وأعملوا السَّيف في كل من وجدوه أمامهم من أي جنس وسن. ولكنهم بعد قليل استبدلوا القتل بالنَّهب والسَّلب. ودخل السُّلطان المدينة عند الظُّهر وذهب رأساً إلى كنيسة آجيَّا صوفيَّا راكباً على حصانه، وحوله الوزراء والحرس الخاص. وما أن وصل إليها حتى ترجَّل ودخلها وتعجَّب من منظرها وجمالها. وأمر حالاً أن يؤذَّن فيها بالصَّلاة إعلاناً بتحويلها إلى جامع. ومن ذلك اليوم صارت القسطنطينيَّة عاصمة الدَّولة العثمانيَّة، وتحوَّل اسم العاصمة إلى اسطنبول.

أو شيئاً آخر"[٨].

وظلّ إيمان الكنيسة الغربيَّة الكاثوليكيَّة بموضوع المطهر كما هو حتى اليَوم. فالتَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة الذي صدر باللاتينيَّة عن حاضرة الفاتيكان سنة ١٩٩٧م، وجرى تعريبه سنة ١٩٩٩م يقول:

كل إنسان ينال في نفسه الخالدة جزاءه الأبدي منذ موته، في دينونة خاصة تُحال فيها حياته إلى المسيح، إمَّا عبر تطهير، وإما للدُّخول مباشرة في سعادة السَّماء، وإما للهلاك الفوري والدَّائم[٩].

والذين يموتون في نعمة الله وصداقته، ولم يتطهَّروا بعد تطهيراً كاملاً، وإن كانوا على ثقة من خلاصهم الأبدي، يخضعون من بعد موتهم لتطهير، يحصلون به على القداسة الضَّروريَّة لدخول فرح السَّماء.

وتدعو الكنيسة (الكاثوليكيَّة) **مطهراً** هذا التَّطهير النَّهائي للمختارين، المتميِّز كلياً عن قصاص الهالكين. لقد صاغت الكنيسة عقيدة الإيمان المتعلّقة بالمطهر بنوع خاص في مجمع فلورنسا والمجمع التِّريدنتيني. ويتكلّم تقليد الكنيسة عن نار مطهِّرة، مستنداً إلى بعض نصوص الكتاب المقدَّس[١٠].

٨- أرشيمندريت جراسيموس مسرَّة، تاريخ الانشقاق، مرجع سابق، ص ٢٧٩
٩- التَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة، مرجع سابق، ص ٣١٥
١٠- نفس المرجع، ص ٣١٧

الفصل السَّابع

في العصـــر الحـــالي

تمهيد

في هذا الفَصل أشير فقط إلى بعض الممارسات التي صاحبت الاعتراف على الكاهن كما نراها اليَوم، مع التَّعقيب عليها.

ممارسة الاعتراف على الكاهن أثناء صلوات القدَّاس

القدَّاس الإلهي ليس هو وقت قبول الاعترافات، لأن ممارسة الاعتراف على الكاهن أثناء صلوات القدَّاس الإلهي تعبِّر في الحقيقة عن عدم إدراك لهيبة القدَّاس الإلهي والذَّبيحة الإلهيَّة المرفوعة على المذبح. فهل التَّقصير هنا هو من جانب الشَّعب، أم من جانب الكاهن الذي يسمح لنفسه بأخذ اعترافات أثناء الصَّلوات الإفخارستيَّة؟. فانصراف الكاهن عن الصَّلاة وسط الشَّعب بدعوى تقبُّل الاعتراف، يصرف الشَّعب بالتَّالي عن الصَّلاة أيضاً. وهكذا تبرد حرارة العبادة في الكنيسة.

وهنا أشير إلى القانون رقم (١٧) من قوانين البابا غبريال الثَّاني بن تريك (١١٣١ - ١١٤٥م) البطريرك السَّبعون من بطاركة كنيسة الإسكندريَّة الذي يقول: "انتهى إلى مسكنتي أن قوماً من الكهنة في بعض الكنائس يتعمَّدون في أوقات القدَّاسات الانصراف عن السَّماع والصَّلوات، ويتوفَّرون على الحديث والمحاربة. ولا يزال هذا دأبهم إلى أن يحين وقت القربان فيخطفوه مثل الطَّعام الذي قد أُعد لهم وينصرفون. فيجب أن يتركوا عنهم هذه العادة الرَّديئة المهلكة المرذولة، ويقفوا حول المذبح في أوقات الصَّلاة برؤوس مكشوفة خائفين الله ليسمعوا أو يجيبوا. ومن تعدَّى هذا فليس له قربان، ومن علم بحاله وقرَّبه فهو شريكه في خطيئته".

وإن التَّركيز المستمر في الحديث مع النَّاس عن أن غفران الخطايا التي تؤرق سلامهم وضميرهم هو في يد الكاهن، قد يصرفهم عن الله. وهل تتعجَّب أخي الحبيب من هذا الكلام؟ فالمثال واضح أمامك؛ المسيح قائم على المذبح، وأنا منشغل عنه بالحديث مع الكاهن لنوال الحل. فالإفخارستيًّا على المذبح هي الخلاص الحقيقي والحل الحقيقي من الخطايا، فكيف نترك المذبح، والاشتراك في الصَّلوات المرفوعة عليه، مع ما يصاحبها من صلوات تحليل عامة لكل الشَّعب، ونبحث عن الكاهن لكي يضع يده على الرأس ويصلِّي صلاة التَّحليل ليرتاح ضمير الإنسان عندما يقترب من الأسرار المقدَّسة ليتناول منها؟.

من المعروف أنه قبل انتهاء صلوات القدَّاس الإلهي بقليل يصلِّي الكاهن سراً صلاة تحليل سريَّة وطويلة على كل الحاضرين في الكنيسة، والمزمعين التَّناول من الأسرار المقدَّسة، وهو التَّحليل المعروف باسم "تحليل الآب"، يقول فيه الكاهن: "فليكن يا سيِّد عبيدك آبائي وإخوتي وضعفي محاللين من فمي بروحك القدُّوس أيها الصَّالح محب البشر. اللَّهم يا حامل خطيئة العالم، أسبق بقبول توبة عبيدك منهم، نوراً للمعرفة، وغفراناً للخطايا ... وإن كنَّا أخطأنا إليك بالقول أو بالفعل فسامح واغفر لنا كصالح ومحب البشر. اللَّهم حاللنا وحالل كل شعبك من كل خطيئة ومن كل لعنة ومن كل جحود ... حاللنا وحالل كل شعبك ...".

ماذا نريد أكثر من هذا؟ فهل يليق بعد كل ما تقدِّمه الكنيسة في القدَّاس الإلهي أن نرى بعض الآباء الكهنة يأخذون الصَّليب ويقرأون التَّحليل على جموع المتناولين قبل تناولهم؟. ما هذا الذي نفعله؟ ففي بعض كنائسنا، وبعد انتهاء صلوات القدَّاس، يرفع الكاهن الصَّليب وهو واقف مكانه على المذبح، ويتَّجه بنظره إلى النَّاحية البحريَّة ليقرأ التَّحليل على الرِّجال، ثمَّ إلى النَّاحية القبليَّة ليقرأ التَّحليل مرَّة أخرى على النِّساء.

بل لقد تسرَّبت هذه الأخطاء اللّيتورجيَّة المعيبة إلى بعض أديرتنا أيضاً. وأصبح الضُّيوف الحاضرون القدّاس يطلبون الحل من أي كاهن قبل التّناول من الأسرار المقدَّسة. وكأن صلوات القدّاس الإلهي نافلة لا لزوم لها، وممارسة طقسيَّة لا غرض منها سوى "تفريخ" مستمر لجسد المسيح ودمه الكريمين فحسب. فهل يليق أن يغتصب الكاهن لنفسه كرامة الله وهيبته وقداسته، بدعوى كرامة الكهنوت، وسلطان الحل والرَّبط الممنوح له من الله.

نية التّوبة أثناء الاعتراف هي محك صحّته

ماذا يحدث لو سهي على المعترف أن يعترف بخطيئة معيَّنه لأب اعترافه، أو يكون قد فعل خطيئة بعد اعترافه ويريد أن يتناول؟. هنا لا ينبغي أبداً لمثل هذا الإنسان المنتظم في الاعتراف على فترات معيَّنه بالاتفاق مع أب اعترافه أن يتشكّك مطلقاً في التَّقدُّم للتّناول من الأسرار المقدَّسة لحين التّقابل مع أب اعترافه في أقرب فرصة.

لأنه في الكنيسة وفي أثناء الصَّلوات اللّيتورجيَّة تصلّي الكنيسة على الحاضرين صلوات تحليل كثيرة. فهناك ثلاث صلوات تحليل على الشَّعب بعد انتهاء صلوات رفع بخور عشيَّة أو باكر، ثمّ صلاة تحليل الخدّام بعد تقديم الحمل وقبل قراءة الرَّسائل، ثمّ صلاة سرّ الرَّجعة على المذبح بعد دورة البُخور على الشَّعب، ثمّ صلاة تحليل الآب على المذبح قبيل الانتهاء من صلوات القدّاس؟.

وإلاّ لو انتابنا الشَّك والرِّيبة من التّناول، فما هو معنى مرد الشمّاس منادياً الشَّعب قائلاً: "اطلبوا لكي يرحمنا الله، ويتراءف علينا، ويسمعنا ويعيننا ... **ويجعلنا مستحقين أن ننال من شركة أسراره المقدَّسة**

المباركة لمغفرة خطايانا؟". لأن جواب الشَّعب قائلاً: "يارب ارحم"، أي اجعلنا يارب نحن غير المستحقين، مستحقين لتناول أسرارك المقدَّسة، فإن كنَّا مستحقين ضميرياً فماذا تعني إذاً هذه الطِّلبة؟.

وما معنى قول الكاهن في أوشيَّة التَّقدمة على الخبز والخمر: "ليكونا لنا جميعاً ارتقاء **وشفاءً وخلاصاً** لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا؟".

وما معنى قول الشَّعب في القدَّاس الإلهي: "بشفاعات والدة الإلـه القدِّيسة مريم، **يارب انعم لنا بمغفرة خطايانا؟**". أو قولنا: "**كرحمتـك يارب وليس كخطايانا**".

وما معنى قول الكاهن في القدَّاس الإلهي: "خذوا كلوا منه كلُّكم، لأن هذا هو جسدي الذي يُقسم عنكم وعن كثيرين، **يُعطـى لمغفـرة الخطايا؟**". ونفس الكلام عن الدَّم الكريم أيضاً.

وأيضاً قول الكاهن: "اجعلنا مستحقين كلَّنا يا سيِّدنا أن نتناول من قدساتك **طهارة** – أو تقديساً – لأنفسنا وأجسادنا وأرواحنا ...".

وأيضاً قول الكاهن في نهاية المجمع: "هـؤلاء الـذين بسـؤالاتهم وطلباتهم **ارحمنا كلنا معاً وأنقذنا** من أجل اسمك القدُّوس الذي دُعي علينا".

وحتى نهاية القدَّاس وفي الاعتراف الأخير ألسنا نسمع قول الكاهن: "يُعطى عنَّا **خلاصاً وغفراناً للخطايا وحياة أبديَّة** لكل من يتناول منه"؟.

فهل بعد كل هذا نتشكَّك ونبحث عن كاهن ليقرأ لنا التَّحليل حتى نتناول بضمير مستريح؟. أو ننصرف عن الاشتراك في الصَّلوات المقدَّسة لننشغل بالاعتراف على الكاهن لننال الحل منه؟.

إن السَّعي الحثيث المصحوب بالقلق للاعتراف على الكاهن لننال الحل منه شخصياً قبل التَّناول، قد طغى على كل شئ، حتى على المسيح نفسه، وعلى دمه الكريم على المذبح، بل وعلى القدَّاس الإلهي برمَّته. وهنا نعود ونكرِّر أنه لا ينبغي أن نغفل أن صلوات التَّحاليل في القدَّاس الإلهي هي الأصل والأساس، أمَّا التَّحليل الذي يصليه الكاهن للمعترف - والذي هو هو نفسه منطوق التَّحليل العام في الكنيسة — فيكون في غير وقت القدَّاس الإلهي.

يا إخوتي، دم المسيح على المذبح لا يُمنح للأبرار، بل للخطاة الرَّاجين تبريره وخلاصه. دم المسيح على المذبح ينتظر من يتناوله لتُمحى خطاياه، وتتجدَّد حياته، فينال الشِّفاء. فليس الاعتراف على الكاهن لغفران الخطايا هو وحده وسيلة أو استحقاق التَّناول من جسد المسيح ودمه الكريمين. لأنه إن كان الأمر كذلك فما هو لزوم دم المسيح على المذبح إذاً ؟ فدم المسيح لم يُسفك من أجل الأبرار، بل من أجل الخطاة الطَّالبين رحمته. والذي يمنع التَّناول من الأسرار المقدَّسة فقط هو عدم التَّوبة، وليس عدم الاعتراف على الكاهن ونوال الحل منه قبل التَّناول مباشرة. فإن كانت التَّوبة تكتمل بالاعتراف على الكاهن، وقبول التَّحليل منه في غير وقت القدَّاس الإلهي، فهي تكتمل أيضاً في صلوات القدَّاس الإلهي وصلوات التَّحاليل التي تقال فيه، لكل من له أب اعتراف يعترف لديه على فترات معيَّنة، كلٌ بحسب حالته، وبحسب ما يرى أب اعترافه.

سؤال حول دور سرّ الاعتراف في التَّهيئة للتَّناول

• سؤال: ما هو دور سرّ الاعتراف في التَّهيئة للتَّناول؟.

• الجواب: يقول الأب ألكسندر شميمان[١]:

إن طرح هذا السؤال واجب لأنه في كثير من الكنائس الأرثوذكسيَّة تنمو عقيدة أصبحت مقبولة اليَّوم عموماً، وهي تؤكِّد أن المناولة للعلمانيين مستحيلة بدون الاعتراف والحل. ولو رغب المرء أن يتناول مراراً، عليه في كل مرَّة أن يعترف، أو على الأقلَ أن يذهب إلى الكاهن ليحلَّه[٢].

لقد حان الوقت أن نقول علناً إنه مهما كانت الأسباب التي دعت إلى هذه العقيدة وممارستها، فهي لا أساس لها في التَّقليد. وهي تقود إلى انحرافات خطيرة في العقيدة الأرثوذكسيَّة للكنيسة، وسر الشُّكر فيها، والتَّوبة نفسها.

ولكي يتأكَّد المرء من هذا، عليه أن يتذكَّر فهم الكنيسة الأساسي لسرِّ التَّوبة. إن هذا السِّر حسب تعليم الكنيسة الجوهري، هو سرّ مصالحة مع الكنيسة والعودة إليها، وإلى حياتها، ولاسيَّما لأولئك المحرومين

١- ألكسندر شميمان، الصَّوم الكبير، نُشر جزء منه في العدد الرَّابع من مجلَّة النُّور اللبنانيَّة، سنة ١٩٨٥م.

والأب الكسندر شميمان (١٩٢١-١٩٨٣م) من عائلة روسيَّة، انتقل إلى فرنسا وتلقى علومه الأولى فيها في مدارس المهاجرين الرُّوس. ثمَّ التحق بجامعة باريس. ثمَّ درس اللاهوت في معهد القدِّيس سرجيوس في باريس بين سنة ١٩٤٠ وسنة ١٩٤٥م، ثم رُسم كاهناً سنة ١٩٤٦م. وكان قد تزوَّج سنة ١٩٤٣م من جوليانا أوسورغين ابنة العائلة الروسيَّة المؤمنة، وطالبة الآداب في جامعة السُّوربون. سافر إلى الولايات المتَّحدة سنة ١٩٥١م، والتحق بمعهد القدِّيس فلاديمير للاهوت، ودرَّس فيه اللاهوت الرَّعائي، واللاهوت اللِّيتورجي وغيره من المواد. ومنذ سنة ١٩٦٢ وحتى سنة ١٩٨٣م، شغل الأب الكسندر شميمان منصب عميد المعهد. وقد عرفه العالم المسيحي أستاذاً كبيراً، ولاهوتياً عظيماً، وقد ترك مؤلَّفات كثيرة.

٢- يقول التَّعليم الكاثوليكي: الاعتراف الفردي الكامل والحل الذي يعقبه هما الطَّريقة العاديَّة **والوحيدة** لتحقيق المصالحة مع الله والكنيسة، إلَّا إذا أعفى من مثل هذا الاعتراف مانع طبيعي أو أدبي.

انظر: التَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة، مرجع سابق، ص ٤٤٦

أي المفروزين من الاجتماع الشُّكري (الإفخارستي) للكنيسة ...

كانت التّوبة فقط – بعد التّنصير الجماعي للإمبراطورية الرُّومانيَّة – من أجل المحرومين أي المفروزين من الكنيسة لأعمال وخطايا يحدِّدها بوضوح التّقليد القانوني للكنيسة. وبقي هذا المفهوم للتّوبة في الكنيسة حتى اليوم ...

ولكن هل هذا يعني أن غير المحروم، أي المؤمن العادي تعتبره الكنيسة بلا خطيئة؟ بالطّبع لا. إن تعليم الكنيسة يقول بوضوح إنه لا أحد بلا خطيئة إلاّ الله، وليس من إنسان يحيا ولا يخطئ. كما أن تعليم الكنيسة أيضاً كان يعتبر دائماً أن هناك خطايا تحرم المرء من الاشتراك في المناولة وأخرى لا تحرمه ... هذا لا يعني أن هذه الخطايا لا تحتاج إلى التّوبة والاعتراف.

إن التّهيئة للمناولة ما هي إلاّ توبة وصراخ للغفران والمصالحة ... والحل ينطبق على المحرومين فقط، أما خطايانا "غير المميتة" وخطايانا العامة فيُعترف بها في كل مرَّة يجتمع فيها المؤمنون لإقامة سرّ الشُّكر. وما حياة الكنيسة كلها إلاّ توبة مستمرة ...

يجب أن يكون واضحاً أن العقيدة التي تقول بأن ممارسة سرّ التّوبة والاعتراف شرط ضروري لقبول العلمانيِّين للمناولة، ليست انحرافاً عن التّقليد الأساسي العام للكنيسة وحسب، بل تشويه أيضاً للتّعليم الأرثوذكسي حول الكنيسة والإفخارستيَّا والتّوبة نفسها. إنها تشوِّه عقيدة الكنيسة لأنها تقسم عملياً أعضاءها إلى فئتين: بالنِّسبة لواحدة منهما – أي العلمانيِّين – إعادة الولادة بالمعموديَّة، والتّقديس بالميرون، والصَّيرورة مواطنين مع القدِّيسين في بيت الرَّب. كلها لا تعتبر مانحة

للعضويَّة الكاملة أي الاشتراك في السِّر الذي تُحقِّق فيه الكنيسة ذاتها كجسد المسيح، وهيكل الرُّوح القُدُس. إنها تشوِّه عقيدة سرّ الشُّكر، لأنها بوضعها لشروط غير شروط العضويَّة بالكنيسة للمناولة تجعل مستحيلاً عملياً أن نرى ونختبر الإفخارستيَّا كسر الكنيسة نفسه، وكالعمل الذي يجعلنا - حسب قدَّاس باسيليوس - "نحن الذين اشتركنا بالخبز الواحد والكأس الواحدة نتَّحد مع بعضنا البعض في شركة الرُّوح القُدُس". وهي تشوِّه بالنهاية سرّ التَّوبة نفسه، لأن الاعتراف إذ يصبح شكلياً، وبالتَّالي الشَّرط الوحيد للمناولة يستبدل التَّهيئة الحقيقيَّة للمناولة التي تقوم على التَّوبة الحقيقيَّة الدَّاخليَّة. والتَّشديد في السِّر يتحوَّل من التَّوبة إلى الحِل ليُفهم بطريقة سحريَّة.

وما يطلبه المرء اليوم هو هذا الحِل الشَّكلي والسِّحري والقانوني وليس المصالحة مع الكنيسة التي فصلته خطاياه عنها، يطلبه ليس لأن خطاياه تزعجه، بل ليؤهِّله للاقتراب من المناولة بضمير مرتاح. وهكذا يصبح سرّ التَّوبة الحاسم والرَّهيب في الكنيسة الأولى مجرَّد "شرط" للمناولة، ويفقد معناه الحقيقي ومركزه في الكنيسة ...

إن التَّأثير الغربي على اللاهوت الأرثوذكسي قد شوَّه كثيراً في حياة الكنيسة، وبالدَّرجة الأولى في فهم الأسرار. إن هذا التَّأثير الغربي هو الذي قاد إلى هذا التَّحوُّل من التَّوبة والمصالحة مع الكنيسة كجوهر سرّ التَّوبة إلى الحِل المحصور تقريباً في فهم قانوني.

ففي الفهم الأرثوذكسي الأصيل، ينبع الحِل من أن الكاهن هو شاهد على التَّوبة، وعلى حقيقتها. وهو مؤهَّل بالتَّالي ليعلن و"يختم" على الصَّفح الإلهي، وعلى مصالحة التَّائب بيسوع المسيح مع الكنيسة المقدَّسة. أما في الإطار الغربي القانوني فالحِل يصبح "قوَّة بحد ذاتها"

تطوَّرت هنا وهناك إلى عادة غريبة بالحقيقة، وهي طلب الحِل بدون اعتراف.

وإنه من المؤسف بالحقيقة أنّ التّسرُّب الفاضح من الغرب، يؤمن به كثيرون من الأرثوذكس، وكأنه القاعدة الأساسيَّة للأرثوذكسيَّة. بينما مجرَّد المحاولة لإعادة تقييم هذه العادة في ضوء التّقليد الأرثوذكسي الأصيل تُدان غالباً، وكأنها انحراف.

ما نحتاجه إذاً بالدَّرجة الأولى هو أن يكتشف المؤمنون اكتشافاً حقيقياً في الكنيسة المعنى الأصيل للإفخارستيَّا كسر الكنيسة ... وأن نكتشف المناولة من جديد كالغذاء الجوهري الذي يوحِّدنا بالمسيح، ويشركنا بحياته وموته وقيامته ... والمعنى الحقيقي للتّهيئة كالمركز الرَّئيسي لحياتنا الرُّوحيَّة. وإن حياة الكنيسة كلها كانت بالواقع دائماً تلك التّهيئة. إن كل قواعدها اللّيتورجيَّة والرُّوحيَّة، النِّظاميَّة والانسحاقيَّة، لا غاية لها إلاّ أن تجعل حياتنا كلنا تهيئة دائمة، ليس فقط للمناولة، بل بالنهاية لما تهيِّئنا المناولة إليه، فرح النَّهار الذي لا يغرب لملكوت الله الأبدي، وكماله.

وهكذا نكتشف الحاجة الحقيقيَّة لسر التَّوبة، للاعتراف السِّري. ونجد فيه ليس حلاً شكلياً أو شرطاً شكلياً للمناولة، بل تجديداً روحياً عميقاً ومصالحة حقيقية مع الله، وعودة إلى الكنيسة التي نُحرم منها غالباً بسبب وجودنا المُعلَن اليائس. نكتشف في أنفسنا الحاجة للإرشاد الرُّوحي الحقيقي، وفوق كل شئ، نكتشف سرّ جسد المسيح ودمه الذي نتقدَّم إليه بخوف الله وإيمان ومحبَّة، كالمركز الدَّائم لحياتنا كمسيحيِّين، والنَّبع الأصيل لها.

قصَّة واقعيَّة عن روعة حياة التَّوبة والاعتراف

إن كنتَ أخي الحبيب لم تقرأ ما سبق من كلام، أو عبرتَ على المكتوب عبور الكرام، أو أُعجبت بجانب منه واستأت من آخر ترى فيه رأياً يُلام، فاقرأ القصَّة التَّالية، فهي لنا خير ختام. فيها تطبيق فعلي لمعنى سرّ التَّوبة والاعتراف، وكيف أنه دعوة من الله إلى الله بشهادة كاهن الله. أما التَّطبيق فيها على هذا السِّر الكنسي فقد وصل إلى حد الكمال والتَّمام. وإليك القصَّة.

"خرجتُ للافتقاد في يوم غير قريب، وعلى وجه التَّقريب منذ ١٤ سنة تقريباً. وأخرجتُ مفكِّرة صغيرة كانت في جيبي لآخذ بعض العناوين وأسماء الشَّوارع في منطقة افتقادي التي كانت في ذلك الحين كثيرة الشَّبه ببعضها في النُّطق والكتابة. فمثلاً شارع هليوبوليس، شارع هيرموبوليس، ممفيس، تانيس، أو ومنيس ... الخ.

فقرأتُ أحد العناوين من المفكِّرة واحتفظت به في ذهني — رقم البيت والشَّارع ورقم الشَّقَّة — وذهبت إلى الشَّارع ووجدتُ الرَّقم الذي أريده، وصعدتُ سلم المنزل حتى الدَّور الثَّالث، حيث رقم الشَّقَّة التي أقصدها.

ولكن هذا البيت ما دخلته قبل ذلك، وربما أخطأتُ العنوان، فأخرجتُ مفكِّرتي أعيد النَّظر في العنوان، فوجدتُني فعلاً قد أخطأتُ الشَّارع ولكنني كنتُ قد طرقت البَاب، فخجلتُ أن أنزل قبل أن يُفتح البَاب. وفعلاً انفتح البَاب بعد لحظة ووجدتُني أمام رجل ناهز الأربعين من عمره، مشعث الشَّعر، وبادرني على الفور، نعم.

كنتُ في هذه الأثناء قد لمحتُ صورة معلَّقة على الحائط حالما فُتح البَاب، صورة دينيَّة لنتيجة مسيحيَّة. فقلتُ في نفسي: حسناً وإن كنتُ

قد أخطأتُ العنوان، ولكن لا بأس من الزِّيارة، فهذا بيت مسيحي.

- قلتُ للرَّجل: أأنتم مسيحيُّون؟.
- قال نعم. ولكن كيف حصلتَ على عنواننا؛ من أعطاك إياه؟.
- قلتُ: ما دمتم مسيحيِّين فأنا أزوركم.
- قال وقد بدا عليه اضطراب لا أعرف سببه: تفضَّل.

أحسستُ في نفسي أن في الأمر شيئاً، شيئاً غريباً لستُ أعرفه. إنني لأوَّل مرَّة أواجه مثل هذه الظُّروف.

وما أن دخلتُ إلى داخل، وأغلق الرَّجل البَاب خلفي حتى كرَّر سؤاله بحيرة ولهفة بالغة.

- أرجوك، أخبرني من أعطاك عنواني؟.
- قلتُ وقد ملكني الاستغراب: ممكن أجلس؟.
- قال: تفضَّل.

وظلَّ الرَّجل واقفاً أمامي، فقلتُ له بهدوء شديد: أرجو أن تستريح أولاً، وأنا أقول لك.

جلس الرَّجل إلى جواري، وعلامات الاستغراب ما تزال مرتسمة على وجهه. ثمَّ مرَّت لحظة صمت بادرته بعدها قائلاً:

- لماذا أنت مضطَّرب هكذا؟ ألم تر كاهناً من قبل؟ سوف لا أقول لك كيف أتيتُ ما لم تقل لي أولاً لماذا أنت هكذا؟.

قال الرَّجل وقد ملكه انفعال عجيب. أمري عجيب للغاية. أكاد لا أصدِّق ما أنظره بعيني، وأعيشه هذه الأيام. أنا على ما ترى أعيش

بمفردي في هذه الشّقّة. وأنا متغرِّب هنا بالإسكندريَّة منذ أكثر من عشرين سنة. وكنتُ قبل أن أحضر إلى الإسكندريَّة في بلدة صغيرة من أسرة مسيحيَّة. كنتُ أيامها شاباً متديِّناً ولى علاقة حب بالمسيح، مواظباً على الأسرار. أكملتُ دراستي، ثمّ عُيِّنت موظفاً بالإسكندريَّة. بدأت حياتي الرُّوحيَّة ينتابها شئ من الفتور والتَّقصير في الصَّلاة، ثمّ بعض أصدقاء السُّوء، ثمّ اللامبالاة، ثمّ حياة الخطيئة في كل صورها وأساليبها. ثمّ أحسستُ بالضَّياع. وفي البداية كان ضميري يصحو في بعض الأوقات، وأفتقد حياتي مع الله وكنيستي، ولكن لم أعط هذه الأفكار وقتاً ولا مكاناً، فكانت تموت في مهدها.

ولي الآن أكثر من عشرين سنة، نسيتُ فيها كل شئ. تصوَّر أنني لم أتناول طوال هذه المدَّة. والغريب أنني منذ أسبوعين وبلا مقدِّمات، تحرَّكت أحشائي كالبركان. إحساسات توبة ورجوع إلى الله، ودموع صادقة تنفجر من عيني. لقد رجعتُ إلى وقفات الصَّلاة، وبحثتُ عن إنجيلي حتى وجدته في كومة كُتُب قديمة مكدَّسة عندي. إنني أقرأه بشغف عجيب. كلماته مثل سهامٍ مبريَّة تخترق جدران قلبي، لقد سقط العالم كله من نظري، ولستُ راغباً في شئ منه.

– قاطعت الرَّجل وأنا في حيرة من أمره. ولكن في هذه الآونة الأخيرة، ألم تحضر اجتماعاً من اجتماعات الكنيسة؟ ألم تسمع عظة؟ ألم تقابل خادماً؟.

– قال: على الإطلاق. وهذا ما جعلني في غاية الغرابة. قد تغيَّر برنامج يومي تماماً. فأنا أعود من عملي كل يوم، وأغلق شقّتي، وأظلُّ في صلواتي ودموعي وإنجيلي كل الوقت حتى ساعة متأخِّرة من المساء. ثمّ أنام لاستيقظ في الصَّباح.

- قلتُ له: والأصدقاء؟.

- قال: إنهم في غاية الاستغراب والحيرة من أمري. إنهم يحاولون معي كل يوم لكي أعود إلى سيرتي الأولى. وبعضهم يظن أنني مريض، أو قد أُصبتُ باكتئاب نفسي. وبعضهم منذهل من تغيير طباعي وكلامي وسيرتي. ولكن على العموم لقد زهدتُ الأصدقاء والنّاس جميعاً. أجدُ الآن لذّتي في أعمال التّوبة في داخل مخدعي.

ولكن الأمر الأكثر غرابة أنني كنتُ أخاف أن تكون هذه المشاعر وقتيَّة عابرة، أو أنها ليست من الله. وأمس فقط وأنا أصلّي وأبكي أمام الله توسَّلتُ إليه بدموع قائلاً: أعطني يارب علامة بها أعرف أنك قبلتني. ورغم كثرة خطاياي وآثامي تجاسرتُ أن أطلب هكذا، وقلت في الصَّلاة، هذه هي العلامة أن ترسل لي كاهناً لكي أعترف أمامه، وأشعر أن توبتي ووسيلتي قد وجدت دالة أمامك.

- أخذتني رعدة وأنا أسمع هذه الكلمات، وبحدتُ المسيح إلهي الذي يعمل بروحه القدُّوس في توبة أولاده. وعندما يغيب الخدَّام، يعمل هو في القلوب ويرد إليه خروفه الضَّال، ويجد درهمه المفقود.

قلتُ للرَّجل الذي ملأت الدُّموع عينيه: إذاً أعطاك الرَّب سؤال قلبك.

- قال: نعم يا أبي، ولكن أرجوك عرِّفني كيف حضرتَ إلى هنا؟.

- أخرجتُ مفكرتي الصَّغيرة. وأشرتُ إلى العنوان المكتوب فيها، رقم البيت، ورقم الشّقّة، مطابقين لعنوانه، ولكن مع اختلاف اسم الشَّارع!.

- قلتُ له: إن الله يعمل معنا عظائم حقاً. لقد أخطأتُ في قراءة العنوان، فأتيتُ إليك من قِبَل الرَّب.

صلّينا معاً بحرارة وشكرنا المسيح الحنون الرَّاعي الصَّالح، وقدَّمنا سجودنا القلبي لقابل الخطاة، ومحب البشر.

ثمّ قدَّم هذا الأخ اعترافاً، يسجَّل في السَّماء، كخاتم لتوبة صادقة مقبولة أمام الله.

وقرأتُ له التَّحليل، وانصرفت ممجِّداً الله. وصارت لنا بعد ذلك لقاءات متكرِّرة، وصار يحضر إلى الكنيسة بشوق وعطش وجوع إلى البر. وكانت النِّعمة تشبعه حسب وعد الرَّب «طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبَعون». لقد عوَّضته النِّعمة عن السِّنين التي أكلها الجراد.

وختم الرَّب على صدق توبته. وأكمل أيامه مرضياً لدى الله، مؤازراً بقوَّة روحه القدُّوس"[٣].

٣- القُمُّص لوقا سيداروس، رائحة المسيح في حياة أبرار معاصرين، الجزء الأوَّل، ص ٥٤-٦٠

المراجـــع

أولاً: المراجع العربيَّة

- أبو البركات بن كبر، الجزء الثّاني من مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس. وهو "كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة".

- أبو المكارم، تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثّاني عشر الميلادي، الجزء الأوَّل، الوجه البحري والقاهرة، إعداد وتعليق الرَّاهب صموئيل السِّرياني.

- أبو المكارم، تاريخ الكنائس والأديرة في القرن الثّاني عشر الميلادي، الجزء الثّاني، إعداد الراهب صموئيل السِّرياني، والأستاذ نبيه كامل داود، القاهرة ١٩٨٤م.

- أثناسيوس الرَّسولي (القدِّيس)، تفسير المزامير، عن مخطوط رقم (٢٧ك.م) بمكتبة دير القدِّيس أنبا مقار، لم يُنشر بعد.

- أحد علماء الكنيسة القبطيَّة في العصور الوُسطى، كتاب سرّ الثّالوث في خدمة الكهنوت، نشره جرجس فيلوثاؤس عوض سنة ١٩٤٢م.

- الخولاجي المقدَّس، وهو مصحَّح ومستوفي التَّرتيب على يد القُمُّص عبد المسيح صليب، طُبع في مصر بمطبعة عين شمس سنة ١٩٠٢م

- المنجد في اللُّغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦م.

- أنبا إيسيذوروس (الأسقف)، الخريدة النَّفيسة في تاريخ الكنيسة، الجزء الثّاني، القاهرة، ١٩٦٤م.

- بستان الرُّهبان، مطرانيَّة بني سويف، ١٩٦٨م.

- توفيق الحكيم، عودة الوعي، الطَّبعة الثّانية، دار الشُّروق، ديسمبر ١٩٧٤م.

- جراسيموس مسرَّة (الأرشمندريت)، الأنوار في الأسرار، بدون تاريخ.

- جراسيموس مسرَّة اللاذقي (الأرشمندريت)، تاريخ الانشقاق، الجزء الثالث، ١٨٩٩م.

- جرجس فيلوثاؤس عوض، المجموع الصَّفوي، بدون تاريخ.

- جورج شحاته قنواتي (الأب)، المسيحيَّة والحضارة العربيَّة، دار الثَّقافة، الطَّبعة الثَّانية، ١٩٩٢م.

- حنانيا كسَّاب (الأرشيمندريت)، مجموعة الشَّرع الكنسي، منشورات النُّور، دمشق، ١٩٧٥م.

- رمزي تادرس، دائرة المعارف القبطيَّة، الجزء الأوَّل، مطبعة صادق بالمنيا، بدون تاريخ.

- ساويرس ابن المقفع (الأنبا)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصريَّة، المعروف بسير البيعة المقدَّسة، المجلد الثَّاني، الجزء الثَّاني، مطبوعات جميعة الآثار القبطيَّة، قسم النُّصوص والوثائق، قام على نشره يسى عبد المسيح، عزيز سوريال عطيَّة، أسولد بورمستر القاهرة، ١٩٤٨م،

- ساويرس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، تحقيق الأب سمير خليل اليسوعي، القاهرة ١٩٧٨م.

- سليم بسترس (الأب)، اللاَّهوت المسيحي والإنسان المعاصر، الجزء الثَّالث، لبنان، ١٩٨٧م.

- سويرس زكا عيواص (المطران)، والأب الرَّبان اسحق ساكا، الأسرار السَّبعة بحسب معتقد وطقس الكنيسة السِّريانيَّة الأرثوذكسيَّة، طبعة أولى، بغداد، ١٩٧٠م.

- شنوده الثَّالث (قداسة البابا)، لماذا نرفض المطهر، أكتوبر، ١٩٨٨م.

- كيرلس سليم بسترس (المطران)، التَّعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكيَّة، عرَّبه عن الطَّبعة اللاتينيَّة الأصليَّة التي صدرت عن حاضرة الفاتيكان سنة ١٩٩٧م المطران سليم يسترس وآخرون، المكتبة البولسيَّة، جونيه، لبنان، ١٩٩٩م

- للمؤلِّف، الدِّياخي أي تعليم الرُّسُل، القاهرة، يناير ٢٠٠٠م.

- للمؤلِّف، المراسيم الرَّسوليَّة -- دراسة موجزة، نص الكتاب الثَّامن، أكتوبر، ٢٠٠٤م.

- لوقا سيداروس (القُمُّص)، رائحة المسيح في حياة أبرار معاصرين، الجزء الأوَّل، الإسكندريَّة،

- مؤتمن الدَّولة أبي اسحق إبراهيم، الأعمال الرَّئيسيَّة في الآداب الكنسيَّة، نشره بعد تصحيحه ووضع حواشي عليه، جرجس فيلوثاؤس عوض، القاهرة، ١٩٤٢م.

- مجلّة النور، لبنان، الأعداد ٢، ٣، ٤، ١٩٨٥م

- مخطوط رقم (٥٠ س) بمكتبة دير أنبا مقار، يعود تاريخ نساخته إلى سنة ١٢٤٣م

- هنري داميس الدُّومينكي (الأب)، الطُّقوس الشَّرقيَّة، تعريب الشمَّاس كامل وليم، المعهد الكاثوليكي، المعادي، ١٩٧٨م.

- وليم سليمان (الدُّكتور)، الدِّسقوليَّة – تعاليم الرُّسُل"، القاهرة، ١٩٧٩م.

- يوحنا الدَّرجي (القديس)، السُّلَّم إلى الله، تعريب رهبنة دير مار جرجس الحرف، لبنان، ١٩٧٩م.

- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة، حقَّقه الأب فيكتور منصور مستريح الفرنسيسي، القاهرة، ١٩٦٦م

- يوحنا تابت (الأب) وآخرون، الأسرار، منشورات قسم اللّيتورجيَّا في جامعة الرُّوح القُدُس، الكسليك، لبنان، ١٩٨٧م.

- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القُمُّص مرقس داود، القاهرة، ١٩٧٩م.

ثانياً: المراجع الأجنبيَّة

- Burmester, O.H.E. Khs, *The Egyptian or Coptic Church, A Detailed Description of her Liturgical Services and the Rites and Ceremonies Observed in the Administration of her sacraments*, Publications de la Société d'Archéologie Copte. Textes et Documents, X, Le Caire, 1967.

- Burmester, O.H.E. Khs, *The Sayings of Michael, Metropolitan of Damietta*, Orientalia Christiana Periodica (OCP), Vol. II, N. I-II, Roma, 1936.

- Cayre A.A., Précis de patrologie, t. 1, *Descleé et cie*, 1927.

- Chrysostomo, J., *La conversion, Coll. les pères dans la foi*, Paris, 1978.

- Cross, F.L., & Livingstone, E.A., The Oxford Dictionary of the Christian Church (ODCC), (2nd edition), 1988.

- Dictionaire de spiritualité, vol. 2, Paris, 1983.

- Graf, G., GDCAL, III ; GDCAL, IV.

- Hamman, A., *Baptême et Confirmation*, Paris, 1969.

- Kallistos ware, *The Orthodox way*, London, 1981.

- Lamp, G.W.H., D.D., *A Patristic Greek Lexicon*, Oxford, 1961.

- NPNF., 1st Ser., vol. VIII.

- NPNF., 1st Ser., vol. X.

- NPNF., 1st Ser., vol. XII.

- NPNF., 2nd Ser., vol. XII, *The Book of Pastoral Role of St. Gregory the Great.*

- Quasten J., *Initiation aux Pères de l'Eglise*, t. 1, Trad. par J. Laporte, Cerf, Paris, 1955.

- Renaudot, *La perpétuité de la foi de l'Eglise Catholique sur l'Eucharistie*, t. III, col. 848.

- Ugo Zanetti S.J., *Une seconde copied u livre de Marc ibn al-Qanbar sur la confession*, dans OCP 55, 1989.

- Ugo Zanetti, *Le livre de Marc Ibn Qanbar sure la confession retrouvé*, dans Orientalia Christiana Periodica (OCP), Vol. 49, 1983.

- V. Patachovsky & C. Vogel, *Sin in the Orthodox Church and in the Protestant Church*, Originally published in French as part of Théologie du péché, Desclée, Tournai, 1960.

الدُّرَّة الطَّقسيَّة للكنيسة القبطيَّة

بين الكنائس الشَّرقيَّة

للرَّاهب القس أثناسيوس المقاري
www. Athanase. net

• السِّلسِّلة الأولى: مصادر طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
١/١	الدِّيداخي أي تعليم الرُّسل (طبعة ثانية)	يناير ٢٠٠٦م
١/٢	التَّقليد الرَّسولي (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/٣	المراسيم الرَّسوليَّة – دراسة موجزة — نص الكتاب الثَّامن	أكتوبر ٢٠٠٤م
١/٦	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة – الكتابات اليونانيَّة	يناير ٢٠٠٣م
١/٧	فهرس كتابات آباء كنيسة الإسكندريَّة – الكتابات القبطيَّة	يوليو ٢٠٠٦م
١/١٠	قوانين البابا أثناسيوس بطريرك الإسكندريَّة (طبعة ثانية)	ديسمبر ٢٠٠٦م
١/١١	قوانين هيبوليتس القبطيَّة	أكتوبر ٢٠٠٤م

• السِّلسِّلة الثَّانية: مقدِّمات في طقوس الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
٢/١	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها– الجزء الأوَّل: رؤية عامة–كنيسة المشرق الآشوريَّة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٢	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها – الجزء الثَّاني: كنيسة مصر	يناير ٢٠٠٧م
٢/٣	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها – الجزء الثَّالث: الكنائس الشَّرقيَّة القديمة (طبعة ثانية)	أكتوبر ٢٠٠٦م
٢/٤	الكنائس الشَّرقيَّة وأوطانها – الجزء الرَّابع: الكنائس البيزنطيَّة	يناير ٢٠٠٥م
٢/٥	الكنيسة، مبناها ومعناها (طبعة ثانية)	مايو ٢٠٠٨م
٢/٦	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الأوَّل (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٤م
٢/٧	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّاني (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٥م
٢/٨	مُعجَم المصطَّلحات الكنسيَّة، الجزء الثَّالث (طبعة ثانية)	سبتمبر ٢٠٠٨م

• السِّلسِّلة الثَّالثة: طقوس أسرار وصلوات الكنيسة

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
٣/١	معموديَّة الماء والرُّوح	يناير ٢٠٠٣م
٣/٢	سرّ الرُّوح القُدُس والميرون المقدَّس	مارس ٢٠٠٧
٣/٣	تسبحة نصف اللَّيل والسَّحَر	نوفمبر ٢٠٠٥م
٣/٤	صلوات رفع البُخور في عشيَّة وباكر	يناير ٢٠٠٦م
٣/٥	القدَّاس الإلهي سرّ ملكوت الله، الجزء الأوَّل	يناير ٢٠٠٨م

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
٣/٦	القدّاس الإلهي سرّ ملكوت الله. الجزء الثّاني	يناير ٢٠٠٨م
٣/٧	الدّبلة والإكليل	مارس ٢٠٠٥م
٣/٨	الأجبية أي صلوات السّواعي	إبريل ٢٠٠٦م
٣/٩	التّاريخ الطّقسي لسرّ التّوبة والاعتراف	أكتوبر ٢٠٠٧م

◆ **السِّلسِّلة الرَّابعة: طقوس أصوام وأعياد الكنيسة**

الرَّقم	اسم الكتاب	تاريخ النَّشر
٤/١	الزّمن الطّقسي من عيد النّيروز إلى عيد الصّليب	لم يصدر بعد

يُطلب من

مكتبة مجلَّة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا - القاهرة ت/ ٢٥٧٧٠٦١٤

والمكتبات المسيحيَّة والكنسيَّة

كما يُطلب من

الأستاذ المحاسب **مينا سمير أنطون** ت/ ٠١٠١١١٦٦١٨

E-mail: minasas2001@yahoo.com